

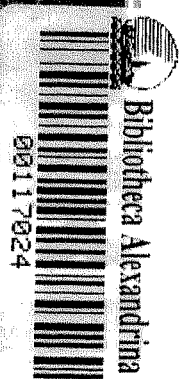
سلسلة الدراسات الأدبية

الدكتور أحمد ضيف

بلاغة الحرب في الأنكلس



دار المعارف للطباعة والنشر - سوسة - تونس



بلاغته العرب في الأندلس

الدكتور أحمد ضيف

بلاغه العرب في الأندلس



دار المعارف للطباعة و النشر

سوسة - تونس

الطبعة الأولى 1924

الطبعة الثانية 1998

العدد المسند من طرف الناشر 98/691

تدمك: 9 - 565 - 16 - 9973 ISBN

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

كانوا ولا يزالون يعتبرون الأدب ضرباً من الفكاهة والتسلية. ويريدون بالأدب نادرة ظريفة ، أو عبارة ظريفة ، أو حكمة بليغة ، أو بيت شعر يملك النفس ، ويسحر اللب بتركيبه البليغ وألفاظه الفصيحة . ويقولون فلان أديب : لأنه كثير النادرة ، حاضر الذاكرة ، واسع الاطلاع ، أنيس الجليس ، عذب الحديث ، حافظ راوية . ويقولون هذا كتاب أدب : لأنه جامع لكثير من مسائل اللغة وقواعدها ، والشعر وأنواعه، والنوادر الخاصة والعامة ، وتواريخ الملوك والأمم . ويقولون فلان كاتب : لأنه طلى العبارة ، عارف باختيار الالفاظ ، عالم بكثير من المترادفات ، تنقاد اليه البلاغة انقيادا ، فيصور الحق باطلا ، ويجعل الباطل حقاً . ولكن الادب نتاج العقول والقرايح البشرية ، وقوة الفكر والادراك الانساني التي تنفتق بها السنة الشعراء ، وتسيل بها أقلام الكتاب ، فيفيضون على العالم من أحوال الاجتماع وصورده، وأسرار النفوس وخفايا الوجود ما يملأ النفس عظمة واعجاباً ، بصحيح الآراء وجمال الافتنان ، ويمتازون عن العامة من الكتاب والمفكرين بدقة الادراك ، وتصوير المعاني النفسية والاجتماعية تصويراً يقرب من أن يكون مدركا بالحواس .

ان البلاغة - أو الادب كما يقولون - هي خلاصة كد العقول والافهام ، وثمرة هذا الاضطراب الفكري الذي مابرح دليلاً على قوة الادراك وحياة النفوس العاقلة . والغرض من الكتابة البليغة أن يجعل الكاتب أو الشاعر الالفاظ وسيلة من وسائل التعبير عن لحظة من لحظات الحياة لا يكتفى أن يدركها عقله ادراكاً

ثم يتركها تمر ولا تعود ، ولكنه يحرص عليها ويحيطها بمباراة تكشف عن
أسرارها وتبين حقيقتها . قال أحد كبار نقاد الأدب « ليست الحياة الآن لهواً
أو لعباً ، ولكنها نوع من المسابقة والمباراة . ذلك الى أننا جميعاً مضطرون الى ابداء
آرائنا في الدين والفلسفة والسياسة والفنون والاجتماع . اذ على كل واحد منا أن
يكون مخترعاً أو آخذاً طريق غيره . والاختراع صعب المنال ، والتقليد مخجل مؤلم .
ليست الحياة دار مسامرة ، ولكنها معمل فكري وجد . أتظن ان معملاً كيميائياً يكون
من دواعي السرور؟ أو ان ميدان مسابقة يكون من أسباب الراحة ؟ لقد تكون
فيه الوجوه مقطبة ، والعيون متعبة ، والجبهة في حيرة والحدود متاجبة ¹ »

والحق أن حركات العقول والادراك ليس لها أن تظهر إلا على أقلام الكتاب وألسنة
الشعراء . ليس الأدب من دواعي اللهو ، وانما هو من دواعي الإعجاب والعبارة . أما
العبارة فلما به من آراء الكتاب والشعراء المحتوية على كثير من صور الانسان
وحالات الاجتماع . وأما الجمال فهو من أخص لوازم الأدب ، لانه من فنونه ، ولان
الكتابة لا تدخل في باب الأدب أو البلاغة حتى تملك الحواس وتأسر العقول بما
فيها من جمال التعبير وحسن الاسلوب والافتنان في العبارة ، وحتى يكون صاحبها
من أصحاب المواهب الفنية ، والملاحظات الدقيقة ، والابداع المطلق .

بهذا يمكن أن يكون الأدب شيئاً من جمال الحياة وأثراً من آثار العقول ، ومعرضاً
لصور النفوس والادراك الانساني ، وفناً من فنون الجمال ، ودليلاً على الحياة
العقلية . فهو أكثر الاشياء انتشاراً في الحياة ومن ألصق الاشياء بالاجتماع . لانه
كل هذه الأحاديث التي في المجالس الخاصة والعامة ، والمسامرات من جد وهزل
وأسرار الناس وخفايا ما يمر بين الرجل وأهله وولده وصديقه ، وما يتحدث به
عن نفسه ، وما يحده به ضميره ، وما يمر بذكريته ، وما يوقظ منه حب
الاستطلاع . فليس أدل على الحياة من الأدب .

قد تستغنى بعض الامم عن سماع الموسيقى ، وربما لا تدرك جمال التصوير .

(1). Voir St Beuve, Causerie de lundi T. 13. P. 250

ولكن أمة من الامم لا تعيش بدون أن تعبر عن ادراكها ، ولا بغير أن تبت عواطفها واحساساتها ، ولا من غير أن تتغنى بالأمها واحزانها وحظها من الحياة أو آرائها في الوجود

يجب أن يفهم جمهور الناس أن الغرض من قراءة قصيدة بليغة أو قصة أنيقة هو ادراك معانيها النفسية والاجتماعية . ويجب مع هذا أن يسلك كاتبنا وشعراؤنا طريقاً غير هذا الطريق الذي سارت فيه آدابنا زمننا طويلاً فلم نتقدم خطوة واحدة ، ولم تسلك مسلكتنا نافعاً ، ولم تفد الاجتماع شيئاً كثيراً ، يجب على شعرائنا وكاتبنا طرق الموضوعات الاجتماعية العامة لنقدها في كتاباتهم ، والعمل على اصلاحها ، وارشاد الناس الى طريق الخير . وذلك لا يكون الا بكتابة القصص الاجتماعية ، والخروج من هذه الصبغة الشخصية الوجدانية ، التي لا يرى القارىء فيها غير نفس الكاتب أو الشاعر ، وقد تكون نفساً مريضة مملوءة بالخطأ والنظر القاصر .

ان أسلوب القصائد المعروف عندنا لم يعد صالحاً لحالتنا الاجتماعية ، ولا لنفوسنا التي تهذبت بشيء من العلم الصحيح ، والنظر في حياة الامم المختلفة . هذه النفوس لا تطمئن الآن الى قراءة قصيدة ليس فيها غير الوزن المرقص والقافية المنسقة . لانه لا يطربها هذا الصوت القديم ، ولا تلك الحكم البالية المحفوظة التي ذهبت بجذتها الالسن لكثرة مرورها على الأفواه والاذهان .

ان الواجب على أصحاب البيان وذوى اللسن أن يشتغلوا بوصف الاجتماع وتصوير النفوس ، وأن يتركوا ضخامة اللفظ وعذوبة المعنى - كما يقولون - وأنواع البديع ، ويعلموا أن الحياة جد لا هزل ، وأن الناس أحوج الى ملاحظاتهم النفسية والاجتماعية منهم الى العبث بالألفاظ والبراعة في التشبيه .

هذا ما ندعو اليه ويدعو اليه كل عامل على ترقية اللغة العربية وآدابها . ويجب مع هذا أيضاً أن يعنى المؤلفون والادباء ببيان ما في بلاغة العرب ، من نثر ونظم وما في ذلك من الافكار العامة والمسائل الاجتماعية التي لا تخلو من مرقها الشعراء

والكتاب، والتي هي نتائج القول والقرائح وسبب حياة الأدب وبلاغات الامم. وهذا ما حاولناه في الكلام على بلاغة العرب في الاملس في هذا الكتاب كان لعرب الاملس أدب رائع، وشعر بليغ، ونثر بديع، وسعة في الخيال، وقدرة على الابتكار. وكانت دولة الادب هناك في عز مجدها وأزهى عصورها، وساحاته خاصة بالشعراء والكتاب في كل فن من فنون البيان، أو مذهب من مذاهب البلاغة. « من عجائب علمهم وغرائب نظمهم ونثرهم مما هو أحلى من مناجاة الأحبة بين التمتع والرقبة، وأشهى من معاطاة العقار، على نغمات المزاهر والايوتار لأن رؤساء هذه الجزيرة كانوا رؤساء خطابة، ورؤوس شعر وكتابة. ترفقوا فأنسوا البحر واسترقوا فأدركوا الشمس بالبدر. وذهب كلامهم بين رقة الهواء وجزالة الصخرة الصماء^١ »

« فالاملس عراق المغرب عزة انساب ورقة آداب واشتغالا بفنون العلم وافتنانا في المنشور والمنظوم، لم تضق لهم في ذلك ساحة، ولا قصرت عنه راحة... وهم أشعر الناس فيها كثرة الله في بلادهم وجعله نصب أعينهم، من الاشجار والانهار والاطيار، لا ينازعهم أحد في هذا الشأن... وأما اذا هب نسيم. ودار كاس في كف طيبي رخييم. وصفق للماء خريير. أو راقت العشيية وخلفت السحب ابرادها الفضية والذهبية. أو تبسم عن شعاع نغر نهر، أو تفرق بطلّ جفن زهر. أو خفق بارق. أو وصل طيف طارق. أو وعد حبيب فزار من الظلماء تحت جناح، وبات مع من بهوى كالماء والراح... فؤلئك هم السابقون الذين لا يجارون ولا يلحقون. وليسوا مقصرين بالوصف اذا تقعقع السلاح، وسالت خلجان الصوارم بين خلجان الرماح. وبنّت الحرب من العجاج سماء. واطلمت شبه النجوم اسنة واجرت شبه الشفق دماء... وقد أعانتهم على الشعر أنسابهم العربية. وبقاعهم النضرة وهمهم الابية... الخ^٢ »

(١) راجع خطبة ابن يسام في الجزء الاول من الذخيرة

(٢) راجع نوح الطيب طبع أوروبا جزء ٢ صفحة ١٠٧

فكان لهؤلاء الكتاب والشعراء أثر عظيم في اللغة العربية وآدابها، ولا سيما ما ابتكروه من أنواع المعاني والخيال في النظم والنثر لذلك رأينا أن نذكر هنا شيئاً من هذا . وبدأنا كلامنا بفصول موجزة عن تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، حتى لا يحرم من لا يريد أن يكلف نفسه الاطلاع على ذلك من أن يستفيد من هذا الإيجاز ولكننا لم نقصد من هذا الكتاب أن يكون تاريخاً جامعاً لأدب العرب وبلاغتهم في الأندلس، ذلك لم يكن من غرضنا الآن . وإنما أردنا أن نجتمع طائفة قليلة من الشعراء والكتاب المعروفين هناك، ونورد شيئاً من منظومهم ومنثورهم ونتكلم عما لهم من الآثار الفنية في شعرهم ونثرهم، لنفتح على طلاب الأدب وتلاميذ المدارس باباً من أبواب الفهم والبحث في بلاغة العرب . فإذا وفقنا الله إلى العودة في هذا الموضوع كانت لنا جولة أوسع من هذه . والله المسئول أن يرتدنا إلى الصواب .

القاهرة في ذي القعدة سنة ١٣٤٢ الموافق شهر يونيو سنة ١٩٢٤

محمد ضيف

العرب في الأندلس

ظهر الاسلام في العرب فانتشروا في الأرض وأوغلوا في الفتح واختراق الآفاق، وانسابوا في البلاد وانساب عليهم الظفر والغنم . قوجدوا في ذلك مطعماً لهم ، وسعة لدوتهم ، وعونا لدينهم ، وعزاً لمجدهم . ففتحوا في نحو ثلاثة قرون ما لم تصل اليه أكبر دولة في العالم .

وقد خرج العرب من بلادهم الى مصر فالقيروان فبلاد البربر فالاندلس . فأسسوا هناك دولة واسعة الارحاء ، كانت أعظم دولة أقامها العرب ، وأنغر مدينة جاء بها الاسلام . توغل المسلمون في افريقية سنة ٥٠ من الهجرة في خلافة معاوية ابن أبي سفيان ، بقيادة عقبة بن نافع الذي أسس مدينة القيروان . وانتشروا في بلاد البربر شمال افريقية فاسلم سكانها . وفي سنة ٨٢ عهد الوليد بن عبد الملك الخليفة الاموي الى موسى بن نصير بولاية افريقية . فنزل القيروان وأخضع قبائل البربر . ثم سار الى طنجة وفتحها . فدانت لسلطانه جميع هذه البلاد ، وأسلم أهلها ومنهم أهل طنجة . وترك موسى بن نصير جنده تحت قيادة مولاة طارق بن زياد . ثم تطلع الى فتح اسبانيا ، لما علم من ضعف أهلها واضطراب حالها . فاستأذن الخليفة في ذلك ، ونزل الشواطئ في سنة ٥٩١ هـ ، وفي سنة ٩٢ عبر طارق بن زياد البحر مع جنوده ، ونزلوا الجبل المسمى الآن باسباسه . وانتشروا في بلاد الأندلس انتشاراً عظيماً . ولما استقرت قدمهم هناك نزح اليها العرب من كل بطن وقبيلة ، من عدنايين وقحطايين وغيرهم . فن العدنانيين القرشيون والهاشميون الذين كانت منهم دولة بنى حمود . ومنهم الخزوميون الذين منهم أبو بكر الخزومي الشاعر الأعمى المشهور ، والوزير ابن زيدون . ومن بينهم الفهريون ، ومنهم عبد الرحمن الفهري الذي غلبه على أمره ، وأخذ منه الملك عبد الرحمن الداخل مؤسس دولة بنى أمية بالاندلس . اما القحطايون أو اليمينيون فكانوا أكثر

انتشارا . ومن قبائلهم كهلان . ومنها محمد بن هانيء الشاعر المشهور ، ومنهم الازد ومنهم الجم الغنير بالاندلس^١ ورحل الى الاندلس أيضا كثير من أهل مصر والشأم والعراق . كما عبر اليها من مراكش وشمال افريقية جماعة من البربر . واختلط كل هؤلاء بسكان البلاد الأصليين ، من قوط وغيرهم بالمصاهرة والمصادقة ، وجمعهم الاسلام فكانوا أمة واحدة . ولكن هذه الأمم لم يكدهم يجتمع أمرها حتى دب فيها ديبب التنازع . وكانت العصبية العربية في أشد ما تكون . فقام النزاع والخصام بينهم وأيقظوا الفتنة القديمة النائمة . ودارت رحى الحرب بين اليمنيين والمضريين ، وتنافسوا في الملك ، حتى أدى ذلك الى انقسام الامارة فيهم وادلتها بين الجندين سنة لكل دولة .^٢ وكان خلفاء بني أمية بعد ذلك يستعينون ببعض القبائل على بعض تأييدا للمكهم ، ويميلون الى اليمنيين الذين نصرهم في واقعة مرج راهط . فكان انقسام العرب منذ وطئت أقدامهم هذه البلاد .^٣ وقد دامت هذه الفتنة مدة وجود الدول الاسلامية في بلاد الاندلس ، حتى قيل : ليست هناك بقعة من أرض الاندلس الا رويت بدماء المسلمين . ولم يكدهم يخلو يوم من الأيام التي خفقت فيها راية الاسلام هناك من حرب أو شجار بين المسلمين والمسيحيين واليهود ، أو بين بعض المسلمين وبعض مع هذا فقد كان لدول المسلمين عصور ذهبية ، وأيام زاهرة ، أثمرت فيها قرآنهم وجهودهم . وظهر فيها صفاء عقولهم وميلهم الفطرى للرقى ، حتى أصبحوا قواد العالم واساندة المعبورة . وربما كان ذلك التنافس في الملك من أسباب رقى تلك البلاد . لان كل امير او خليفة كان يريد ان يوطد ملكه بنشر العلوم والمعارف . ولا سيما ان العباسيين كانت مدينتهم ازهرت في بغداد ، فارادوا ان يجاروهم في قرطبة ، ويظهروا عليهم فيما كان لهم من الفضل . هذا الى ما كان عليه

١ راجع الباب الثامن من نفع الطيب

٢ انظر الجزء الاول من تاريخ المسلمين في أسبانيا تأليف دوزى صحيفة ٢٥٢ وتاريخ

ابن خلدون جزء ٤ صحيفه ١٢٠

٣ راجع الفصل الحادى عشر من الجزء الاول من كتاب دوزى المذكور

العربي من ميله للعلم ونشره ، لأنه كان يرى في ذلك نشر المدينة على يديه ، وهذه وسيلة من وسائل الفخر والاعجاب اللذين هما من أكبر مظاهر الاخلاق العربية . ولقد كان مثل الأمة العربية مثل النائم المستغرق في نومه ، فإذا استيقظ كانت يقظته يقظة النشيط المجد .

ولما دخل العرب الاندلس ادخلوا معهم بلاغتهم ولغتهم التي كانت من أكبر مظاهر الفنون لديهم ، فتبعت اول خطوة خطاها أكبر قوادهم فاتح هذه البلاد طارق بن زياد . وأول مظاهر تلك البلاغة العربية الخطبة الحماسية الشيرة لهذا الفاتح العظيم ، التي تدل على رسوخ ملكة البيان في القواد ، وخبرتهم بالقيادة ونفوس الجنود ، وكيفية امتلاكها بالرهبة أحيانا والرغبة تارة ، وبث الأمل في نفوسهم باكتساب الغنيمة وانتظار الاجر من الله ، وان القائد بلسانه كالقائد بسيفه وسنانه . قالها طارق بن زياد وهو قادم على عدوا أكثر منه عددا وعُدّة ، لانه دخل الاندلس ومعه اثنا عشر الف رجل ارهب بهم سبعين الفا من الاعداء

وهذه الخطبة هي اول ربح هبت على تلك البلاد معطرة ببلاغة العرب . واول كلام بليغ عبر عبيره هناك . بل اول تاريخ البلاغة العربية . ولم تكن بلاغتها في الاسلوب وحده ، بل في الحماسة والشجاعة اللتين كانتا من طبع العربي . وهي من نوع الكلام الذي يوحى به حب الجهاد ، والرغبة في نيل الاجر الدنيوي والاخروي معا ، ويذكر الجيوش بمفخرة النصر على العدو ، أو الموت في سبيل الدفاع عن الحوزة ونشر الدين . وفيها من ضروب الاستبسال والترغيب في القتال ما لا يكون الا من قلب حديد وقائد عظيم مجرب ١

١ وهذه هي خطبة طارق بن زياد :

ايها الناس . اين الفر . البحر وراءكم . والمدو امامكم . وليس لكم والله لا الصديق والصبر . واعلموا انكم في هذه الجزيرة اضيع من الايتام في مأدبة الشام . وقد استقبلكم عدوكم بجيشه واسلحته واقواته موفورة . وانتم لاوزر لكم الا سيوفكم . ولا اقوات الا ما تستخلصونه من ايدي عدوكم . وان امتدت بكم الايام على اقتفاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهب ربحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراء عليكم . قادضوا عن انفسكم خذ لان هذه العاقبة من امركم بمنحاة هذا الطاغية . فقد القت به اليكم مدينته

هذا وقد كان للمسلمين هناك عصور تاريخية وعصور أدبية . أما العصور التاريخية فقد بدأت بمصر الامراء منذ الفتح الى سنة (١٣٨) . تولى الامر فيها عشرون اميرا كانت مدتهم ستة واربعين عاماً (٩٢ - ١٣٨) . وكانت هذه الامارات تابعة للخلفاء في المشرق زمن الامويين والعباسيين . ولكن هذا العصر كان عصر اضطراب وشجار لا ينقطعان . ولما علم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الاموي بما هناك من المنافسة بين اليمانيين والمضريين ، وكان قد فر من ظلم ابي جعفر المنصور الذي نكّل بيني مروان ، التجأ الى بلاد البربر وذهب الى الاندلس مع جماعة من أتباعه ، واسس هناك دولة بني امية سنة ١٣٨ واستتب له الملك سنة ١٤١ هـ واستولى على قرطبة بمساعدة اليمانيين ، فتأسست دولة بني امية التي كان عصرها من ازهى عصور العلم والادب والحضارة بجميع انواعها . وبقيت هذه الدولة ٢٨٤ سنة (الى سنة ٤٢٢ هـ) تولى الملك فيها ١٩ خليفة . وقد بلغت الدولة ذروة مجدها في زمن عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر (٣٠٠ - ٣٥٠) ودامت مع الدولة العباسية بالمشرق . فكان نور المدنية

الحصينة . وان اتهاز الفرصة فيه لمكن ان سمحتم لآتفسكم بالموت . وانى لم اخذركم امرا انا عنه بنجوة . ولا حملتكم على خطة ارحس متاع فيها النفوس . ابرأ منها بنفسى واعلموا انكم ان صبرتم على الاشق قليلا استمتعتم بالارفة الالذ طويلا . فلا ترغبوا بانفسكم عن نفسى . فا حظكم فيه باوفر من حظى . وقد بلقكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الزافات فى الدر والمرجان . والحلل المنسوجة بالمتيان المتصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك امير المؤمنين من الابطال عربانا . ورضيكم لمملوك هذه الجزيرة اصهارا واختانا . ثقة منه بارتياحكم للطعان واستماحكم بمجالدة الابطال والفرسان . ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولى انجادكم على ما يكون لكم ذكرا فى الدارين . واعلموا انى اول مجيب الى ما دعوتكم اليه . وانى عند ملتقى الجمعين حامل بنسى على طاعة القوم لذريق قتاله انشاء الله تعالى . فاحلوا معى فان هلكت بدمه فقد كليتمكم امره . ولم يعوزكم بطل غائل تسندون اموركم اليه . وان هلكت قبل وصولى اليه فاحلفونى فى عزيمتى هذه واحلوا بانفسكم عليه واكتفوا اليهم من فتح هذه الجزيرة بقتله فانهم بدمه يخذلون (فتح الطيب طبع اربوا جزءا صحيفة ١٥٠)

الاسلامية يسطع من المشرق والمغرب معا. فان عبدالرحمن الداخل عاش من عصر ابي جعفر المنصور الى زمن هرون الرشيد (١٣٢ - ١٨٢) وكان الحكم بن هشام معاصراً للمأمون (١٨٠ - ٢٠٦) فكانت الدولتان تتسابقان في ميدان العلوم والحضارة. وكانت قرطبة وبغداد كعقبى العلماء ومنبعى العلوم والفنون .

وبعد زوال دولة بنى امية اتقسم الناس احزاباً وشيعاً. فكانت هناك ممالك كثيرة مستقلة سموا ملوكها بملوك الطوائف . فقام ابن عباد في اشبيلية . وابن الأفطس في بطليوس. وذو النون بطليطة. وابن هود بسر قسطة الخ. وبقيت الحال كذلك كانت البلاد فيها أكثر ما تكون اضطرراً

مع هذا فقد كان لملوك الطوائف ميل عظيم للعلوم . فكان ابن الافطس الملقب بالمظفر احص الناس على جمع علوم الادب خاصة من النحو واللغة والشعر ونوادير الاخبار وعيون التاريخ . انتخب له مما اجتمع من ذلك كتاب كبير ترجم باسمه (المظفرى) كان يقع في نحو ٥٠ مجلداً . وكان لابنه المتوكل قدم راسخة في صناعة النظم والنثر . قالوا: وكانت ايام بنى المظفر اعياداً ومواسم ، وكانوا ملجأ لاهل الادب. وفيهم قال الوزير الكاتب ابو محمد عبدالمجيد بن عبدون قصيدته الشهيرة وكان بنو هود ملوك سر قسطة وما يليها من اهل العلم وانصاره. فقد كان المؤمن بن المقدر بالله قائماً على العلوم الرياضية وله فيها تاليف. منها كتاب « لاستكمال المناظر » ومن اشهرهم ابوالقاسم المعتمد على الله بن عباد ، كان شاعراً اديباً . وكان لا يستوزر وزيراً الا أن يكون اديباً وشاعراً ، ومن وزرائه الكاتب الشهير ابن زيدون. ومنهم الكاتب ابن عمار . وكان

١ قال صاحب المعجب : واما حال اهل الاندلس بعد انحلال دعوة بنى امية فقد تفرقوا فرقاً وتقلب في كل جهة منها متقلب ؛ وضبط كل متقلب ما تنقلب عليه وتقسوا القاب الخلاة . فمنهم من تسمى بالمتضد ومنهم من تسمى بالمأمون وآخر تسمى بالمستمين والمقتدر والمتمتع والمعتمد وغير ذلك من القاب الخلاة . وفي ذلك يقول ابو على حسن بن رشيق

كما يزهدنى في أرض أندلس سماع مقتدر فيها ومتمضد
القاب مملكة في غير موضعها كالمزجى انتفاخا صولة الاسد

المعتمد هذا من اعظم ملوك الطوائف. ولم تذهب دولته الا بعد ان استعان
بيوسف بن تاشفين الذى تغلب عليه واسره فى افريقية بعد ان ابلى بلاء حسنا
فى محاربتة (سنة ٤٨٤ هـ). ومنذ ذلك الزمن ملك البربر اسبانيا وسموا بالمرابطين ،
واصبحت الاندلس ولاية تابعة لافريقية. وملك يوسف بن تاشفين بلاد الاندلس
واصبح هو وابنه من اكابر الملوك^١

اما دولة المرابطين هذه فعلى الرغم من ميلها للعلوم . لم يكف يستتب للموكلها
الامر حتى ظهر فيهم الجهل والتعصب لمسائل الدين. وابتدأت الحالة العقلية تنحط ،
وحركة اللغة والعلوم تقف. وفى زمن على بن يوسف بن تاشفين ظهر التعصب لمذهب
الامام مالك ، حتى قالوا انه نسي النظر فى كتاب الله . وصدورت كتب الكلام ،
ومنع الكلام فى العقائد ، وأمر باحراق كتب الغزالي. ثم عمت الفوضى جميع البلاد ،
واضطرب حال المسلمين بعد سنة خمسمائة ، واوكلت الأمور العامة للنساء . وعلى
أثر ذلك قامت دولة الموحدين التى نشأت بمرآ كش فى أوائل القرن السادس
واراد الموحدون ان يردوا عظمة عصر نبى امية من علوم وفنون وصناعات . واشتهر
فى زمنهم طائفة من العلماء والشعراء والفلاسفة. فقد كان لامرائها ميل عظيم للعلم
كأبى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ — ٥٨٠) الذى اشتهر حبه للعلم
والاشتغال به وجمع الكتب ، وكان يتناقش مع ابن رشد الفيلسوف الشهير . حتى
قال ابن رشد انه هو الذى حملنى على تلخيص ما تلخصته من كتب الحكيم ارسطاطليس .
ثم ظهر بنو هود فى أوائل القرن السابع الهجرى وغلبهم بنو الاحمر ملوك
غرناطة . واضطربت الحال فى هذه المدة بين بنى الاحمر وبنى هود ، كما كانت
عند الفتح بين الامراء . وانتهت الدولة فى أواخر القرن التاسع الهجرى حيث خفت
صوت المسلمين هناك . وقد ظهر فى هذه المدة الاخيرة كثير من الادباء والشعراء
كاسان الدين بن الخطيب وابن زمرك وغيرهم.

اما عصور الادب والبلاغة فقد ابتدأت بتأسيس الدولة الاموية . ولم يأفل

١ قالوا وانقطع الى امير المسلمين من الجزيرة من اهل كل علم فحولته حتى اشبهت حضرته
حضرة نبى العباس فى صدر دولتهم واجتمع له ولايته من اعيان الكتاب وقرسان البلاغة ما لم
يسبق اجتماعه فى عصر من العصور

يحم هذه الدولة الابد ان أفعمت البلاد بالعلماء والفلاسفة والادباء ومعاهد العلم ودور الكتب . وكانت الصبغة العربية في هذا العصر ظاهرة في الشعر والنثر . لأنها كانت أشبه بما في بلاد المشرق . فلما كثر الترف وذاع اللهو والمجون في اواخر الولة وفي دولة العامرين، وفي عصر ملوك الطوائف ، ظهرت الاباحة في كل شيء ، وظهر كل هذا في انواع البلاغة من نظم بديع ونثر رشيق ، ومن كلام في وصف مجالس اللهو والطرب والelman والنساء، وأغرب الشعراء والكتاب في هذه الانواع . وأكثر مشهورهم ظهوروا في زمن ملوك الطوائف وبعده ، كما ظهر كثير من العلماء والفلاسفة والادباء . وما زالت النهضة الادبية سائرة سيراً حثيثاً ، لان العقول كانت قد نضجت واخذت في البحث والاستنباط . وقد زالت الدولة على أثر الاضطرابات السياسية ، والحياة العقلية في عز مجدها . وعلمائها وادباؤها كانوا لا يزالون في ابان نشاطها ، ونشوة يقظتهم العقلية حتى انتشر وفي البلاد ، وأفاضوا عليها من فضل علومهم ما كان له أثر نافع عند الامم التي نزلوا فيها .

الحياة العقلية في الأندلس

امتزج المسلمون الذين دخلوا الأندلس بسكان البلاد وتصاهروا وتحابوا . ثم دخل كثير من غير العرب في الاسلام ، فظهرت صلة أخرى غير صلة الاجتماع في بقعة واحدة ، وهي صلة الدين ، وامتزجت كل هذه الاجناس بعضها ببعض امتزاجا تسرب في عقولهم كما تسرب في دمائهم . فكانت لهم نزعة عقلية جديدة . ونمت مواهبهم الفطرية ، وساعدتهم على ذلك انتجاعهم بلاداً واسعة غنية جميلة ، مختلفة المناظر متعددة المناحي ، فكان أثر ذلك كله ان أصبحت لهم مميزات عقلية وصفات لم تكن لسيرهم من العرب الخالص . فاشتغلوا بأنفسهم في نقل العلوم ونشرها ، ووصلوا الى البلاد في طلبها ، ورحل اليهم كثير من العلماء ، فاخذوا عنهم كما أخذوا عن آثار اليونان والرومان والفرس . ولم يكن للعرب اذ ذاك من يزاحمهم ، لان معالم الحضارة كانت خفيت . والعالم يتطلع الى من ينقذه من مخالب الموت ويفيض عليه بنور العرفان . وكان العرب أبطال تلك الايام ، فاصبحوا زعماء المدنية . وأرادوا أن ينالوا شرف هذه الزعامة ويملكوا زمام العالم . وقد عرفوا ان ذلك لا يكون الا اذا ارتقت العقول وتقدمت العلوم ، وان دولة لا تؤسس الا على العلم ، وان أمة تريد أن تعيش لا تحيي الا بالعلم . فاراد عبد الرحمن الداخل أن تكون دولة بني أمية في المغرب أثبت دعامة من دولة بني العباس بالمشرق ، وأبقى وأفخم من ملك آبائهم في ربوع الشام افتمهدت في زمنه وسائل السعادة والمدنية وكان يعمل على ترقية العقول ونشر العلوم والفنون والصناعات . كذلك كان عبد الرحمن الثاني المعاصر للمأمون (من سنة ٢٠٦ الى ٢٣٨) شديد الرغبة في

١ فقد رووا عنه

ابن أمية قد جبرنا صدعكم بالغرب رحما والسعود قبائل
مادام من نسلي امام قائم فالحكم فيكم ثابت متواصل

الفنون والأدب والموسيقى ، فعمل على ترقية أذواق أهل الاندلس بنشر هذه الفنون الجميلة . فكان خلفاء بني أمية يجارون دولة بني العباس في حضارتهم وفي كل شيء لديهم . وأرادت قرطبة أن تظهر على بغداد . فأدخل عبد الرحمن الثالث في اسبانيا ما كان عند العباسيين من علوم وفنون . وأنشأ في قرطبة كثيراً من المباني الفخمة . وبلغت أبهة الملك منهاها في أيامه . وفي عصره كانت المدينة الاسلامية زاخرة . فكان العلماء والادباء يقدون من المغرب الى المشرق ، ومن المشرق الى المغرب . والطريق من بغداد الى قرطبة لا يفتقر الى ضوء العلم ، ولا تنقطع عنه قدم العلماء ، والعالم يستضيء في ظلمة جهله بأشعة العلوم العربية ، ويهتدى بأثار العرب وجهودهم في نقل الحضارة من اليونان وغيرهم ، مما كشفوا مخبآتة وفتحوا معيئاته . وقد نمت مواهب العرب في اسبانيا كما ينسى النبات الصالح للحياة في الارض الخصبة الطيبة . وظهر أثر ذلك كله في العلوم والفنون ، كما ظهر في أنواع البلاغة من شعر ونثر ، مما لم يكن عند سواهم . ذلك لما كان لهم من النشاط والجد والمثابرة على البحث والتنقيب ، والعمل على فهم ما تركه الناس قبلهم من علوم عقلية أو عقلية ، ومن صناعات وفنون . فكان لهم أثر في كل شيء . أطلعوا عليه ، فألفوا ودونوا واخترعوا ، مما لا يكاد يحصى ، حتى ان الحركة العقلية لديهم لم يكن لها مثيل في زمنهم ، لأنها كانت نتيجة جهود العقول والقرائح عند العرب جميعاً .

وقد عثروا عناية عظيمة بجمع الكتب في كل علم وفن . فقد كان في اسبانيا ستون مكتبة عامة ، أنشأها الخلفاء الامويون وغيرهم . أشهرها مكتبة قرطبة ، وكانت تحتوي على الكتب العقلية والنقلية التي ترجمها وألفها العرب في الزراعة والفلك والرياضة . وفي الطب والكيمياء والموسيقى . وفي أصول الدين ككتب التوحيد والفقه والحديث والتفسير . وفي فنون الأدب كالبلاغة والتاريخ والقصص والرحلات والخطب ودواوين الشعراء المختلفة ومعاجم اللغة . كان ذلك كله مجموعاً جماً منظماً في مكتبة الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦) كل غرفة

محتوى على علم أو فن من الفنون.^١ واشتدت رغبة الحكم في اقتناء الكتب فكانت فهارس المكتبة أزرعة وأربمين، وبلغت الكتب فيها مائتي ألف مجلد. جمعها من افريقية وفارس وجميع البلدان. وانتقلت رغبة جمع الكتب الى طبقة العامة حتى صار ذلك أنفس ما يقتنى. وحرص الناس عليها وعلى نقلها. وكان الحكم نفسه عالماً بالاخبار والأنساب، محباً للقراءة، حتى قالوا انه قلما يوجد كتاب في مكتبته الا كان له نظر فيه وتعليق عليه، يكتب عن المؤلف وعن مولده ووفاته ويأتى بفرائب لا توجد الا عنده. وكان يجمع في داره الحدائق في صناعة النسخ والضبط والاجادة في التجليد، ويوجد عليهم بالمال. فكانت داره أشبه بمجمع علمي. وكان يبعث في الكتب الى الافطار رجالاً من التجار، ويعطيهم الأموال لشراؤها حتى جلب منها الى الأندلس ما لم يكن لهم به عهد، مما كان يضاهاى ما جمعه ملوك بنى العباس في الازمان الطويلة. واستخدم العلماء في كل ما يساعد على العلم ونشره، فكان منهم الوراقون المشهورون المعروفون بالضبط وحسن الخط. وبعث في كتاب الأغاني الى مؤلفه أبي الفرج بألف دينار من الذهب المين، فجاءه بنسخة منه قبل أن يخرج الى العراق. كذلك كان للخلفاء ميل عظيم الى اكرام العلماء والاخذ بنصارهم.^٢ فكان المنصور بن أبي عامر على مثل هذه الحال يعمل على ترقية العلوم ونشرها في أنحاء الدولة لدى الرعاية على اختلاف أجناسهم ونزعاتهم، بعد أن كان العلم مقصوراً على الوجوه منهم. وكان يزور المدارس ويحضر الدروس ويختلط بالطلبة، ويمدح المدرسين

١ كان الحكم من أشد أنصار العلم؛ لأن اباه عبد الرحمن الثالث رباه بأمر الاساتذة ووكل أمر تعليمه الى أبي علي التالبي. وقد نشر الحكم على نفقته الحاصه مؤلفات احمد بن عبيد به صاحب العقدة الفريد. وجعل في قرطبة أكبر د ر لمطالعه الكتب العربية وجعل أخاه عبدالغزيز مدير آلهة ومحافظاً عليها؛ على حين ان اخاه المنذر كان له الرياسة على أندية العلوم المختلفة التي تأسست في قرطبة

٢ راجع خبر دخول أبي علي التالبي الى الاندلس والاختفاء به واشتغال الحكم بالعلم وجمع الكتب — نفع الطيب طبع أوروبا جزء ١ صفحة ٢٥٠

ويكافئ التلاميذ على جدهم ، ويجلس في مجالس العلماء للمناقشة والبحث، ويختار من نابيهم القضاة والقراء والخطباء^١

على مثل هذا كانت عناية العرب بنشر التعليم تفوق كل عناية . فكانوا اذا فتحوا بلداً أو مدينة يبدأون بإنشاء مسجد ومدرسة^٢ وكانهم يقصدون بذلك أن نشر الدين والعلم معاً لازم لتهديب الامم وأن تربية النفوس بالدين كترية العقول بالعلوم والمعارف . وعندهم أخذ أهل أوروبا المدارس الجامعة ونظام « الكليات » التي يجتمع فيها كثير من الطلبة على أساتذة يتعلمون العلوم المختلفة . وكان في كل مدينة من مدن اسبانيا مدرسة كبيرة . بل كانت القرى تحتوى على مدارس لتعليم القرآن والقراءة والكتابة . وأصبح السواد الأعظم من سكان البلاد عارفاً بالقراءة والكتابة ، على حين أن أهل أوروبا كانوا من العامة الذين لا يقرأون ولا يكتبون ، لأن التعليم كان منحصرًا لديهم في طائفة التسوس الذين لم يخرج العلم من دائرتهم ، وان تعدادهم على بعض الامراء والاغنياء . وكانت معاهد التدريس خاصة بالعلماء والفضلاء ورؤساؤها من أكبر الرجال المفكرين^٣.

٢ هذا على الرغم من تظاهر المنصور بكرامة علوم الفلسفة والنجوم ارضاء لشهوته السياسية . راجع طبقات الامم في ذلك

٢ بلغت مساجد قرطبة في زمن عبد احن الداخل ٤٩٠ مسجداً

٣ أما العلماء والمؤلفون فكثيرون في كل علم وفن. ذكر جلة من ذلك ابو محمد بن حزم الحافظ في رسالة طويلة رد فيها على الحسن بن محمد القيرواني فيما كتبه في تخليد علماء بلده وتصوير أهل الاندلس في ذكر علمائهم (نفع الطيب طبع اوروبا جزء ٢ صحيفة ١٠٨)

فن المؤرخين ابو مروان حيان بن خلف (ولد سنة ٣١٧ وتوفي سنة ٤٦٩) وكتابه المسمى بالمتين أو المبين في تاريخ الاندلس يقع في ستين مجلداً (منه نسخة بجامعة الزيتونة بتونس) وله كتاب المقتبس في تاريخ الاندلس في عشر مجلدات (به نسخة بتونس واكسفورد) وللقاضي ابي القاسم صاعد بن احمد الطليطلي كتاب التعريف أخبار علماء الامم من العرب والعجم . ومما ألف في الجغرافيا كتاب معجم ما استعجم من البقاع والاماكن .

ومن أشهر المنجمين ابراهيم بن ارياحيل الاسرائيلي من رجال القرن الخامس الهجرى ويؤثر عنه أنه باشر عدة مرات رصد التحقيق نطق الراس والذنب من الارض . ومنهم جابر بن اطلع الاشيلي الذي اختصر كتاب المجسط لبطليموس . ومنهم ابو الوليد محمد بن رشد القرطبي الفيلسوف ويقولون أنه أول من تلبه للسمع على وجه الشمس وكتب عنها . وكثير من هؤلاء كانت لهم قلم

وكان للطلب أربع مدارس أهلة بالمدرسين والتلاميذ من جميع الملل والاجناس
في قرطبة واشبيلية وطليلطة ومرسية

هذا شيء يسير عن الحركة العلمية والأدبية في الأندلس. منها يمكن الوقوف
على مقدار ما كان هناك من الميل الى العلوم والمعارف، وما وصلوا اليه في الحضارة
والاطلاع. وكثير من هؤلاء العلماء كانوا من الادباء والفقهاء. وقد كانت لهم
عناية خاصة بعلوم اللغة والدين، لان تربيتهم العقلية كانت مؤسسة على هذين الفرعين.
لذلك كان لكثير من علماء العرب المتخصصين في العلوم الرياضية والطبيعية
شهرة عظيمة في علوم اللغة والدين. فكان أبو عبيدة مسلم بن أحمد المعروف بابن
السمينة من أهل قرطبة بصيراً بالحساب والنجوم والنحو واللغة والعروض ومعاني
الشعر والفقهاء والحديث والأخبار والجدلي. وكان الحافظ أبو الوليد هشام من أعلم

راسخة في الهندسة والمساحة والجبر وسائر العلوم الرياضية.

ومن اشتغل بالفلسفة أبو محمد علي بن حزم من رجال القرن الخامس الهجري. وله كتاب الفصل
بين أهل الاهواء والنحل وكتاب أخلاق النفس وكتاب مراتب العلوم وغيرها. ومنهم ابن باجة
السرقسطي المعروف بابن الصائغ من رجال القرن السادس ومن أكابر العلماء في الفلسفة والرياضة
والطب والموسيقى. ومنهم ابن طفيل الذي كان معاصراً لابن الصائغ ويقولون أنه أول من قال بتدرج
الحيوان الى انسان وهو صاحب الرسالة الشهيرة التي سبها جيسى بن يقظان. ومن تلاميذه أبو
الوليد بن رشيد المذكور أشهر علماء الاندلس وأكبر فلاسفتها الذي ألف في الطب والحص ببعض
مؤلفات جالينوس في الامزجة والطلل والحيات

ومن أطباء الاندلس بنو زهر. وهم أبو العلاء بن زهر. وابنه أبو مروان عبد الملك وابنه
أبو بكر. وعبد الملك هذا صاحب كتاب التيسير وكتاب الاغذية اللذين كانا لها شهرة عظيمة
في المشرق والمغرب. ومن المشتغلين بالعلوم ابن البيطار واحد اهل عصره في معرفة النبات
سافر الى بلاد الاغريق وأقصى بلاد الروم والمغرب واجتمع بكثير ممن يمانون هذا الفن وطاب
حناته وتحققها. ومنهم أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي المتوفى سنة ٥٠٠ من الهجرة كان
أشهر أطباء زمانه وهو صاحب كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف. وهو أول من ألف
في فن الولادة ورسم في كتابه آلات الجراحة. وعلماء اللغة والادب أكثر من أن يحصى عددهم
راجع في الكلام على العلماء في الاندلس ما يأتي :

رسالة ابن حزم المذكورة ورسالة أبي الوليد الشقندي في ذكر علماء الاندلس ومؤلفاتهم في الجزء
الثاني من كتاب نفع الطيب جزء ٢ صفحة ١٠٨-١٤٠ وطبقات الامم للقاضي ابي القاسم صاعد
الاندلسي. والباب الثالث عشر من كتاب طبقات الاطباء والجزء الثاني من كتاب فيارديو «تاريخ
العرب والمغاربة في اسبانيا» والسنة الثانية من مجلة الضياء في مقالات «العلوم عند العرب»

الناس بالهندسة وآراء الحكماء والنحو واللغة ومعاني الشعر والعروض وصناعة الكتابة والفقه والشروط والفرائض . فكانت الفنون الشرعية وعلوم اللغة أساساً لتربيتهم العقلية، حتى لا تكاد نجد عالماً أو فيلسوفاً أو منجماً إلا وله علم بالشعر والعروض واللغة . لهذا ظهر شيء كثير من آثار تلك التربية العلمية والفلسفية في بلاغتهم من نظم ونثر

أما اللغة العربية وآدابها فقد ذاعت في كل أنحاء البلاد وعند الخاصة والعامة وملكنت منهم ملكة البيان : قال بعض المؤرخين

« هجر أهل اسبانيا اللاتينية واشتغلوا باللغة العربية وآدابها، وكانوا لا يكتبون غيرها، حتى ان أحد العلماء المشهورين منهم شكوا من ذلك . وقال اننا نحب قراءة الشعر والقصص العربية، وندرس المسائل الدينية والفلسفة الاسلامية باللغة العربية لتعلم لغة رشيقة وعقارة بليغة . ولا يكاد يوجد عندنا من يقرأ الكتب المقدسة باللغة اللاتينية . وكل شباننا الأذكى لا يعرفون غير لغة العرب وآدابها، لأنهم يقرأون الكتب العربية ويدرسونها بهمة عظيمة، ويدعوهم كثرة اطلاعهم على تلك الكتب الى الاعجاب بأدب العرب . فاذا حدثتهم عن كتاب من الكتب اللاتينية سخرُوا منها، وقالوا انها لا تستحق عناية قارئ أو مستفيد . من أجل ذلك نسي المسيحيون لغتهم، فلا تكاد تجد في الألف منا واحداً يمكنه أن يكتب رسالة باللاتينية . أما اذا أرادوا أن يكتبوا بالعربية فان كثيراً منهم يكتب عبارات بليغة، وأسلوب منمق، وقد يفوقون العرب أنفسهم في ذلك، حتى في الشعر وكتابة القوافي . »¹

كذلك دخلت الألفاظ العربية في اللغة الاسبانية وغيرت شكل لغة البلاد وأكسبتها لهجة جديدة في زمن شارل الأصلع

« وفي أوائل القرن التاسع كانت اللغة العربية هي لغة الوثائق الرسمية . وفي هذا الوقت ترجم قسيس من أهل اشبيلية التوراة الى اللغة العربية لتلاميذه فوجد أحد العلماء هناك على أهل دينه، وأتهمهم بالمساعدة على نشر اللغة العربية والعمل

1 Dozy Hist des Arabes en Espagne T. 2. P. 103

على ترك اللاتينية . وقد دامت هذه الحال زمنا طويلا في قرطبة و طليطلة، حتى ان القسس لجهلهم باللاتينية اضطروا الى ترجمة كتب الكنيسة الى اللغة العربية . وبقى ذلك إلى أواخر القرن الحادي عشر، أى بعد ان استولى ألفونس السادس على طليطلة سنة ١٠٨٥ م .

وليس لأحد أن يناقش كلام « كوند » القائل بأن من أدب أهل اسبانيا ما هو مأخوذ من أدب العرب ومتأثر به . ولا شك في أن الاسبانيين مدينون للعرب بلغتهم وآدابهم ومعرفتهم الفلسفية الخ .^١
وأما اهتمامهم بالفنون كالأدب والغناء والموسيقى فقد كان أكثر انتشاراً، لأنهم كانوا أحوج إليها في ساعات اللهو والطرب ، ورياضة النفوس ومجالس الخلفاء والامراء . وهي عليهم أسهل ، ولدى ذوقهم أعذب، ولنفسهم أقرب



1 James Fitzmaurice Kelly. His de la littérature en Espagne P. 7 & 8.
A Literary History of the Arabs by Nicholson P. 476.
Engène Baret. His. de la litt. en Espagne. P. 16 & 17.

الفنون في الأندلس

كانت همة العرب في أبان نهضتهم متجهة الى العلوم ، منصرفة الى الدرس والتأليف والنقل . فظهر منهم طائفة عظيمة من الفلاسفة والاطباء وعلماء النبات والحيوان والكيمياء والطبيعة والفلك والرياضة كما أشرنا الى ذلك . وكان اهتمامهم بالفنون كاللوسيقى والغناء والشعر وفن العمارة عظيماً أيضاً ، حتى فاقوا غيرهم في بعضها وأخذوا بعضها عن الامم الاخرى . ولهم في ذلك آثار جميلة بديعة ، وميولهم الى فن التصوير والنحت كانت من بواعث الامل على تقدمهم في ذلك لو أن دولتهم امتد زمنها . فقد كان لدولة بني الاحمر بقرناطة آثار بديعة في فن العمارة ، بل ظهر قبل ذلك ميول الخلفاء الأمويين لفن النحت والتصوير . فبنى عبدالرحمن الناصر لجاريته الزهراء مدينة سماها باسمها ، أتقن بناءها وأحكم الصنعة فيها ، وجعلها مستنزهاً ومسكناً لها ولحاشيته وأرباب دولته ، ونقش صورتها على الباب . وكانوا يجلبون الصور والتماثيل من البلاد الاخرى كالقسطنطينية وغيرها . وقد نصب الناصر على باب الزهراء ثمانية منها ^١ وقلدوا بعض النقوش التي كانت في كنائس اسبانيا وصقلية . وروى بعض المؤرخين ان ثلاثة أعمدة في مسجد قرطبة كانت عليها نقوش وصور . فكان على أحدها صورة عصا موسى ، وعلى الثاني صورة أهل الكهف ، وعلى الثالث صورة غراب نوح ^٢ أما تصوير الآنية والأثاث والأشكال الهندسية فقد برعوا فيها براعة عظيمة ، وصوروا الطيور وأشكال الرجال ،

١ نفع الطيب طبع اروبا جزء أول صحيفة ٣٤٦ راجع الكلام هنا على مدينة الزهراء
٢ نفع الطيب طبع اروبا جزء أول صحيفة ٣٤١

كما في الحوض الذي أتى به الناصر إلى مدينة الزهراء . فقد كانت به نقوش وتماثيل على صورة الانسان نصب عليه اثنا عشر تمثالا^١

ومن آثارهم في فن العمارة هناك ما لا يزال ناطقاً بما كان لهم من البراعة في بناء المدن والقصور والمساجد . ولهم من الاتقان في ذلك ما لم يكن لغيرهم في زمنهم . ومن أشهر آثارهم الفنية مسجد قرطبة الشهير الذي - فضلاً عما يدل عليه من البراعة في فن العمارة - يدل على ذوقهم الفني ، وعلى بلوغهم درجة عظيمة في الترف وبجاراتهم غيرهم فيما عرفوه من آثار الرومان في المدن العظيمة والقصور الشاهجة والكنائس المنمقة^٢

وقد أخذ أهل أوروبا عن عرب الأندلس كثيراً من الفنون وغيرها فقد كانوا لا يعرفون شيئاً عن علوم اليونان ومدنيتهم . ولا عن اللغة الاغريقية وما ألف فيها . فلما ترجم العرب كتبهم وشرحوها وأضافوا اليها ما أضافوه ، فتحوا على أهل أوروبا باب المدنية الحاضرة ، وأطلعوهم على تلك الآثار التي بنوا على أنقاضها حضارتهم . فقرأوا الكتب اليونانية باللغة العربية . ومنذ ذلك عنوا بدراستها وبمعرفة اللغة اليونانية . بل ترجم أهل أوروبا الكتب العلمية اليونانية من العربية

١ نفع الطيب طبع أوروبا جزء ١ صحيفة ٣٤٦ . راجع مجموعة الصور المأخوذة من صقلية ، وطبعت في روما ومنها نسخة بمكتبة سراي عابدين . وراجع الكلام على فن العمارة في نفع الطيب جزء ١ صحيفة ٣٠٣ والجزء الثاني من كتاب فياردو
٢ أما مسجد قرطبة فقد أسسه عبد الرحمن الداخل وأتمه ابنه هشام . فكان أنشاؤه في أول أيام الدولة الاموية ، مما يدل على تيقظ العرب ونشاطهم منذ دخولهم تلك البلاد . وقد كان في هذا المسجد الف ومائتا عمود كلها من الرخام ، وكان باب المسجد من الذهب وفيه المحراب وما يليه قد أجرى فيه الذهب المطعم . وكان باب المقصورة من الفضة . وكان بالمقصورة تفاعلات من الفضة والذهب ، يحيط كل تفاعلة مائة اشبار ونصف ؛ واثمان من هذه التفاعلات من الذهب الايريز ؛ وتحت كل تفاعلة وفوقها سوسنة قد هندست بأبداع صنعة وورمانة ذهب . قال المقرئ انها احدى غرائب الارض . وكان بالجامع المذكور في بيت منبره مصحف عثمان الذي خطه بيده (هكذا يقولون) وعليه حلية ذهب مكللة بالدر والياقوت ؛ وعليه اغشية من الديباج وهو على كرسى من العود الطيب بمسامير الذهب . وارتفاع المنارة الى مكان الاذان ٤٥ ذراعاً ، ودور الثريا الكبرى تحتوى على الف كأس واربعة وتمائيز ؛ كلها موشاة بالذهب . وفي عضادتي المحراب أربعة اعمدة ؛ اثنان اخضران واثنان لآزوردبان وبه منبر خشبه الصاج والاينوس والعود . وصرف عليه عشرة آلاف مثقال وخمسون مثقالاً ويقولون أنه كان بالجامع حاصل كبير ملاك من آية الذهب والفضة لاجل وقوده : راجع الكلام على مسجد قرطبة في نفع الطيب جزء ١ صفحة ٣٥٨ — ٣٦٩

الى اللاتينية . ومن أول الكتب التي ترجمت في ذلك كتاب اقليدس في الهندسة سنة ١١٣٦ م

ولم يأخذ أهل أوروبا عن عرب الأندلس العلوم وحدها ، بل أخذوا عنهم أيضاً بمض الفنون التي اشتغلوا بها كفن العمارة والموسيقى والشعر .^١ أما فن الموسيقى فقد توسع فيه أهل أوروبا بما تركه العرب لهم . قال بعض المؤرخين « ان للعرب اليد الطولى فيما تركوه من فنون الموسيقى التي ساعدت أهل أوروبا على الوصول الى الدرجة التي عليها الآن هذا الفن الجميل . فان مكتبة طليطلة بها آثار عظيمة تدل على ما كان للعرب من التقدم في ذلك . وأن هناك جزءاً من المخطوطات في الموسيقى عليه بعض ملاحظات بخط ألفونس العاشر ، الذي كانت كل معلوماته وتربيته العقلية مكتسبة من قراءة الكتب العربية . وأن الموسيقى قبل ذلك العصر كانت مقصورة على الكنائس . فساعد العرب على نشر هذا الفن بواسطة الفرنساويين أنفسهم ، الذين كانوا يقيمون في اسبانيا مع العرب ، أو يتعلمون في مدارسهم . وكان الشعر الفرنسى العامي من نوع الشعر العامي الاسبانى المأخوذ عن الشعر العربى ، لا عن الشعرا اليونانى أو الرومانى . لأن سكان تلك البلاد لم يكونوا يعرفون بعد شعراء اليونان أو الرومان ، حتى ينسجوا على منوالهم ، اذ لم يطلعوا على شيء من ذلك قبل القرن الرابع عشر . لذلك كان الشعر عندهم يشبه الشعر العربى من حيث انه قطع صغيرة ، وأبيات قليلة في المدح أو الذم أو الوصف . وذلك أظهر ما يكون في فرنسا عند شعراء القرن الرابع عشر ، و بعض القرن الخامس عشر . حتى ان أسماء هذه المقطوعات أو الأصوات كانت تشبه أسماء الشعر العربى . قال : ولقد أجدنا صناعة الشعر والقوافى عن العرب ، فان الاسبانيين أول من أخذ القافية عن الشعر العربى

(١) أخذ العرب كثيراً من فنون العمارة عن دولة الروم الشرقية . كما نقلها الجرمانيون الى بلادهم . فكانت العمارة عند الجرمانيين تشبه ما عند عرب اسبانيا . حتى أن مسجد قرطبة يشبه الكنيسة الجرمانية الكبرى . لأن أصلهما مأخوذان عن الشكل البوزانتى . وكانت آثار البناء في أوروبا الجنوبية مأخوذة من نماذج عربية حتى قالوا أنه يوجد شيء من ذلك في كنيسة باريس الكبرى : فياردوا جزء ٢ من ١٨٠

ثم وصلت هذه الصناعة الى مرسيليا وطولون بواسطة التجار الذين كانوا يجيئون من أسبانيا. ١

واقنيس الأروبيون كثيراً من أعمال العرب في الحروب والصناعة وغيرها مما يطول شرحه. وإنما أردنا أن نثبت ذلك القدر القليل تنويهاً بفضل العرب وأثرهم في المدنية الحاضرة

وقد بلغ عرب اسبانيا الى درجة عظيمة من الترف وأبهة الملك. ولعل ذلك ما يسونه الآن «ردفعل». فقد كانوا في خشونة من العيش، بعيدين عن كل رفاهية، فلما فتح أمامهم باب السعادة على مصراعيه، ورأوا مدينة الأمم الأخرى وملكو العالم، أرادوا أن يتناسوا تلك الخشونة البدوية، فتشبهوا بالدول العظمى. وكان العربي بطبيعته يتأثر بالمظاهر والمشاهد الجميلة. لآنها هي التي كونت فكره وادراكه وتصوره، وأوحت اليه هذه المعاني الشعرية. وقد رأى ذلك كله في البلاد التي فتحها، فأراد أن يكون من أصحاب العظمة والابهة والترف. غاهم ببناء القصور الضخمة، والأبنية المشمخرة، وحيازة الأشياء النفيسة، ولبس اللؤلؤ الفخمة المزركشة، وامتلاك الأواني الذهبية والأثاث المرصع بالأحجار الكريمة، وغلبت عليه طبيعة السخاء، فكان يجود بالهدايا الثمينة، ويستعين بالأموال^٢ فقد اتخذ عبد الرحمن الثاني القصور والمنتزهات، وجلب اليها الماء من الجبال وأقام الجسور، وبنيت في أيامه المساجد الكثيرة والمدارس. على

١ الجزء الثاني من كتاب فياردو

٢ فقد رووا عن عبد الرحمن الثاني أنه كان له جارية اسمها طروب أغضها مرة فهجرته ونزلت مقصورتها. فاشتد قلقه لهجرتها وضاق ذرعه من شوقها. وأراد ان يسترضيها فأعياء ذلك فارسل مع خاصة خصيانه من يكرها على الوصول اليه. فأغلقت بابها في وجوههم وآلت ان لا تخرج اليهم طائفة ولو انتهى الامر الى القتل. فانصرفوا وأعلموا الامير بذلك واستأذنوه في كسر الباب عليها. قهاهم وأمرهم بسد الباب من خارج بيدر الدراهم. فعملوا وبنوه عليها باليدر وأقبل حتى وقف بالباب وكلامها على أن لها جميع ما سد به الباب. فأجابت وفتحت البواب فأنهالت البدر في بيتها فأ كتبت على رجليه تقبلها وحازت المال (نفع الطيب طبع لروبا جزء ٩ صحيفة ٢٥٥)

ما كان عليه من الكلف باللهو والميل الى الجوارى .^١ وكان ملك عبد الرحمن الناصر بالأندلس في غاية الفخامة والضحامة ، كما يعلم من مقابلة رسل الملوك له ، فقد أمر أن ينلقوا أعظم تلق وأنخه .^٢ وامتدت الثروة والأبهة الى الحجاب والوزراء . فقد أهدى أحمد بن عبد الملك بن شهيد الذي استوزره الناصر هدية لسيدة ، قال فيها ابن خلدون : انها تدل على ضخامة الدولة الأموية واتساع أحوالها . وقالوا انها عبارة عن خمسمائة الف مثقال من الذهب العيين ، وأربعمائة رطل من التبر ، وخمس وأربعين الف دينار من سبائك الفضة ، واثني عشر رطلا من العود الهندى ، ومائة وثمانين رطلا من العود المتخير ، وثلاثين شقة من الحرير المرقوم بالذهب للباس الخلفاء المختلفة الألوان والصناعات ، وعشرة أفرية ، من غالى جلود الحيوان الخرسانية ، وغير ذلك

وكرت القصور والمساجد وغيرها من الأبنية العامة الى درجة عظيمة فقد كان عسدد الدور فى قصر قرطبة أربعمائة دار ونيفا وثلاثين . وكان عدة دور الرعايا مائة الف وثلاثة آلاف دار ، وبلغت ديار أهل الدولة ثلثمائة وستة آلاف ، وبلغ عدد المساجد بهاسعة وثلاثين وثمانمائة وثلاثة آلاف وعددا للحمامات سبعمائة^٣

١ أعطى جاريته حليا قيمته مائة ألف دينار فقيل له ان مثل هذا لا ينبغي أن يخرج من خزانة الملك فقال ان لابسه أنفس منه .

٢ رتب الناصر لحجابته رجالا من الموالى ووحوه الحشم وصاروا الى قصر منية الحكم ولى العهد وكانوا ستة عشر رجلا لربع دول اسكل دولة أربعة رجال ، ورحل الناصر من قصر الزهراء الى قصر قرطبة لوفود الروم عليه فقمعد فى بهو المجلس الزاهر ، وحضر الوزراء على اختلاف مراتهم ، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالى والامراء . وقد بسط صحن الدار بمتاق البسط وظللت أبواب الدار وحتاياها بظلال الدياج ، ورفيع السطور ، حتى ان رسل ملك الروم عند ما وصلوا ورأوا ذلك دهشوا من بهجة الملك وفخامة السلطان وقدها كتاب ملكهم صاحب قسطنطينية وفيه وصف هدية عظيمة ارسلت الى الناصر

٣ نفع الطيب طبع أوروبا جزء ١ ص ٣٥٥

الفناء ومجالس الأدب

أما مجالس الفناء والوهو فقد غصت بها المحافل، وشغلت أكثر أوقات الشعراء، وفتقت ألسنتهم بقول الشعر الجميل، وفتحت عليهم أبواباً من الخيال. وزاد في الاقبال عليهم ميل الخلفاء والامراء وأهل الظرف والادب والنساء الشواعر^١ جاءت صناعة الفناء الى الاندلس من المشرق، لانها كانت وهي في أوج عزها عند العباسيين من الفنون الناضجة، ومن اكبر وسائل السرور والتسلى. واستاذ المغنيين في الاندلس زرياب (أبو الحسن علي بن نافع مولى المهدي العباسي)، قدم الى الاندلس بأمر الحكم بن هشام المتوفى سنة ٥٢٠٦هـ. ولما أخبر بوفاة الحكم قبل وصوله الى الاندلس هم بالرجوع، فجاءه كتاب من عبد الرحمن بن الحكم يذكر تطلعه اليه وسروره بقدومه عليه. وكتب الى عماله على البلاد أن يحسنوا اليه ويرافقوه الى قرطبة. وأمر خصياً من اكبر الخصيان أن يتلقاه، فدخل هو وأهله البلد ليلاً، وأنزله في دار من أحسن الدور، وحمل اليها جميع ما تحتاج اليه، وكتب له في كل شهر بمائة دينار راتباً، وأن يجري على بنيه الذين حضروا معه عشرون ديناراً كل شهر لكل واحد منهم، وأن يجري على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار، وأن يقطع له من الطعام العام مائة مدي. وأقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ومن الضياع ما يقوم بأربعين الف دينار. ولما استدعاه الى مجالسه وسامع غنائهم ترك كل غناء سواه، وأحبه حباً جماً، وقدمه على جميع المغنيين وشره بالأسكل معه، لما عمله من فضله وأدبه. وكان زرياب مغرماً بفنه، حتى انه كان يدعي أن الجن كانت تعلمه،

١ فقد كان عبد الرحمن الثاني مولماً بالسامع مؤثراً له على جميع لذاته. نفع الطيب طبع
اروبا جزء ١ صحيفة ٢٥٥

فكان يهب من نومه فيدعوا بجاريته غزالات وهنيده فيأخذان عودها ، ويأخذ هو عوده فيطارحهما ليلته ، ويكتب الشعر ، ثم يعود عاجلاً الى مضجعه . وزاد زربل في أوتار العود وتراً خامساً اختراعاً منه ، وزيادة على الصنعة القديمة . وكان يحفظ عشرة آلاف صوت من الاغاني بألحانها . قالوا وهذا العدد من الالحان هو غاية ما ذكره بطليموس واطع هذا الفن . واختص بنوع من الصناعة في تعليم الغناء وضرب العود ، صارت منهجاً لمن جاء بعده ، وكان عالماً بكثير من العلوم والفنون ، أديباً ظريفاً ، حسن الحديث والمسامرة .^١ وكانت له جارية اسمها متعة أديبها وعلمها أحسن أغانيه . وعرفت حمدونة ابنته باتقانها هذه الصناعة . وأخذ عن زربل الغناء كثير من الرجال والنساء

وكانت مجالس اللهو والطرب خاصة بغناء الأشعار والرقص والزاقصات ، وفي جميع البلدان أصناف من الملاحى والرواقص المشهورات بحسن الانطباع واللعب بالسيوف وغيرها ، كما كان من بين المغنين كثير من كبار القوم ، مثل عبد الوهاب بن حسين الخاحب ، «الذي كان وحيد دهره في الغناء الرائق ، والأدب الرائع ، والشعر الرقيق ، واللفظ الأنيق ، ورقة الطبع ، واصابة النادرة والتشبيه المصيب .» وكان قد قطع عمره وأفنى دهره في اللهو والطرب ، وهو أعلم الناس بضرب العود» هذا كله يدل على حسن الذوق ، ورقة الطبع ، اذ كلما أمن الانسان في فنون الجمال دل على رقة ذوقه . ولو أن العرب عرفوا شيئاً من بلاغة اليونان والرومان لجاروهم في فنون التمثيل واختراع القصص ولكنهم قنعوا من ذلك بما كان لهم في مجالس الأدب والغناء واللهو والشرب التي تفنن الكتاب والشعراء في وصفها^٢ واشتملت

١ راجع أخبار زربل في الباب السادس من نفع الطيب والجزء الثاني من تاريخ دوزى
صفحة ٨٩

٢ كتب بعضهم يستدعى عود غناء فقال :

انتظم من اخوانك أعرك الله عقد شرب يتساقون في ودك ، ويماطون ربحانة شكرك وحمدك ،
وما منهم الا شره المسامع الى رنة حمامة ناد ؛ لا حمامة بطن واد . والطول لك في صلتنا بجماد
تألق ؛ قد استعار من بنان لسانا ؛ وصار لضمير صاحبه ترجانا . وهو على الاساءة والاحسان
لا ينفك من ايقاع به ؛ في غير ايجاع به ، فان هنا عركت اذنه وادب . وان تأنى واستوى بجمع
بطنه وضرب . لا زلت منتظم الجندل ملتئم الامل .

أغاني الأندلسيين على كثير من أغراض الشعراء ، فكانت تشمل مدح الامراء ، ووصف القصور والحدائق ، والخيول والفرسان ، ومجالس الشرب في الولائم . وغير ذلك من الموضوعات الكثيرة المختلفة ، التي نشأت من أحوال الاجتماع هناك وأوحت بها الى نبوس الشعراء تلك الحياة الاجتماعية ، وطبيعة البلاد وما بها من رغد في العيش ، وساعد هذا كله على نمو الشعر العربي .

وقد كانت أغاني العشق تدل على أثر المرأة في النفوس والاجتماع . لأنها كانت ذات مكان عظيم ومنزلة رفيعة وأثر ظاهر في الحركة العقلية ، بل كانت تسابق الرجال فتسبقهم أحياناً ، واشتهر عدد عظيم من النساء في الشعر والأدب كما هو معروف . ولم تكن صلة المرأة بالرجل صلة قلبية أو نفسية لا غير ، بل كانت صلة احترام واحلال ، لظهورها في ميدان الجهد والعمل ، واشتراكها مع الرجل في أحوال الاجتماع ، ولأثرها في مجالس الأدب وفنونه . وكان ذلك في أكثر طبقات النساء . فقد كان لعبد الرحمن الناصر جارية حسنة الخط ، راوية للشعر ، حافظة للأخبار ، عالمة بضرور الأدب . وكانت العبادة جارية المعتمد أديبة ظريفة ، كاتبة شاعرة ، ذاكرة لكثير من اللغة ، معدودة من علماء اشيلية . فكانت المرأة هناك أرقى وأجل منها في أوربا، وحبها ممزوجاً بشيء من الوجد والاجلال معاً . وازدادت مجالس الغناء بالعانيات المطربات من الجوازي وغيرهن ، وكان فيهن من هو أمهر من الرجال في هذه الصنعة ، وأكثرهن وافر من المشرق . كالمغنية فضل التي اشترت من المدينة للأمر عبد الرحمن الأول . فقد نشأت في بغداد وتعلمت الغناء وبرعت فيه ، واشتهرت في هذا الفن شهرة عظيمة . وكان يؤثرها عبد الرحمن على غيرها لجودة غنائها . وكانت قر جارية ابراهيم بن حجاج اللخمي صاحب اشيلية من أهل الفصاحة والبيان والمعرفة بصوغ الالخان . قالوا وجلبت اليه من بغداد وجمعت أدباً وطقراً ورواية وحفظاً ، مع فهم بارع وجمال رائع . كذلك كانت حالة الغناء من حيث الاهتمام به والاقبال عليه من أعظم مظاهر العقول والأدب

وكانت مجالس الأدب في الأندلس من أكبر مسارح الافكار ، وأنعم مظاهر الجمال ، وأجمع أنواع الأدب واللغو والجهد والهزل ، ومظهر الحياة العقلية

والاجتماعية . والشعراء فرسان هذا الميدان . والكلام وحده آلة التعبير عن ذلك بأساليبه المختلفة البليغة . وكان الشعر نشوة الشارب ، وغناء الراقص ، ومؤدب النفوس وزاجرها ، وسلوة الفقير والغني ، وممزة الشريف والسوقي ، وكانوا جميعاً على فهمه أقدر ، وعلى الاقبال عليه أسبق ، وكل اذن واعية عند سماعه خاشعة لروعة بلاغته ، لانه كل مظاهر الحسن والجمال في مجالس الخلفاء والامراء . كذلك كانت روعة تلك المجالس في الشعر وبلاغة الكلام . وكان من أهل الأدب هناك الوزراء والكتاب ، والعمال وجباة الاموال والمستعملون في أمور الدولة ، والخلفاء أنفسهم ، وكثير من اولادهم ونسائهم ومن يحضر مجالسهم . فبرع أهل الأندلس في فنون الادب والشعر براعة شهد لهم بها جلة الناس ، وكانت مجالسهم لذينة ومحاضرم فكهة . والشعراء كثيراً ما تحملهم هذه المجتمعات وما فيها على الارتجال والابتكار .

« حضر أبو عامر بن شهيد ليلة عند المظفر بن المنصور بن أبي عامر بقرطبة فقامت تسقيهم وصيفة عجيبة صغيرة الخلق ، ولم تزل تسهر على خدمتهم الى أن هم جند الليل بالانهزام ، وأخذ في تقويض خيام الظلام ، وكانت تسمى أسياء ، فمجب الحاضرون من مكابذتها السهر طول ليلتها على صفر سنها . فسأله المظفر وصفها فصنع ارتجالاً .

أفدى أسياء من نديمٍ ملازمٍ للكؤوس رائب
قد عجبوا في السهاد منها وهي لمصرى من المعائب
قالوا تجاني الرقاد عنها فقلت لا ترقد الكواكب»

ومن البدهة في المجالس أيضاً ورسوخ ملكة الابداع في النفوس ، ما قيل عن ابن شهيد هذا ، وذكره ابن بسام . « أن جماعة من أصحاب ابن شهيد قلوا

١ من ذلك ما قيل « الاندلس عراق المصرب عزة أنساب ورقة آداب . واشتغالا بفنون العلم وابتنا في المنثور والمنظوم ؛ لم تضق لهم في ذلك ساحة ولا نصرت عنه راحة ؛ فأمر فيها بمصر الأوفيه نجوم وبدور وشموس ؛ وهم أشعر الناس فما كثرة الله في بلادهم ؛ وجعله نصب أعينهم من الاشجار والانهار والاطيار والكؤوس ؛ لا ينازعهم في هذا الشأن منازع ..»

له يا أبا عامر ، انك لآت بالمعائب وجانب بدوائب الغرائب ، ولكنك شديد
 الاعجاب بما يأتي منك ، هاز لعطفك عند النادر ، تبيح لك ، ونحن نريد منك أن
 تصف لنا مجلسنا هذا . وكان الذي طلبوه منه زُبدة التعنيت ، لان المعنى اذا
 كان صلفاً ثقيلاً على النفس ، قبيح الصورة عند الخس ، كالتفكرة عنه وان
 كانت ماضية ، وأساءت القريحة في وصفه وان كانت محسنة . وكان ما في المجلس
 باب مخلوع معترض على الارض ، ولبد أحمر مبسوط قد رصت خفافهم عند
 حاشيته . فقال مسرعاً

وفتية كالنجوم حسناً	كلهم شاعرٌ نبيلٌ
منغذ الجانبين ماضٍ	كأنه الصارمُ الصقيلُ
راموا النصرافي عن الممالئ	والغرب من دونها كليلُ
فاشتد في أثرها فسيحٌ	كلٌ كثير له قليلُ
في مجلس زانه التصابي	وطاردت وصفه العقولُ
كأنما بابه أسيرٌ	قد عرضت دونه نُصولُ
يرادُ منه المقالُ قسراً	وهو على ذاك لا يقولُ
نظر من لبدة لدينا	بجر دمٍ تحتنا يسيلُ
كأن أخفافنا عليه	مراكبٌ مالها دليلُ
ضلت فلم تدر أين تجرى	فهي على شطه تقيلُ

فعجب القوم من أمره

« ودخل الوزير أبو الملاء زُهر بن الوزير بن مروان على الامير عبد
 الملك بن زرير في مجلس انس ، وبين يديه ساق يسقى خميرين من كأسه ومن
 لحظه ، ويبدي ذرين من حبابه ولفظه ، وقد بدا خط عناره في صفحة خده ،
 وكل حسنه باجتماع الضدمنه مع ضده ، فكأنه بسحر لحظه أبدى ليلا في شمس ،
 وجعل يومه في الحسن أحسن من أمس ، فسأله ابن رزين أن يصنع فيه فقال بديها
 نضاعف وجدى اذ تبدي عناره وتم نغان القلب منى اصطباره

وقد كان ظني أن سيحقق لي ليله
فأظهر ضدته ضده إذ وشت له
واستزاده فقال بديها

مُحِيتْ آيَةَ النَّهَارِ فَأُضْحِي بِدَرْتِمٍ وَكَانَ شَمْسَ نَهَارٍ
كَانَ يَعْمَى الْعَيُونَ نَوْرًا إِلَى أَنْ شَغَلَ اللَّهُ خَدَّهُ بِالْعِدَارِ
وكانت مجالس الأديب من بواعث قول الشعر، ومجازاة بعض الأدباء بهضاً في ذلك . قالوا: « ان ابن العريف النحوي دخل على المنصور بن أبي عامر وعنده صاعد اللغوي البغدادي ، فأنشده وهو بالموضع المعروف بالعامرية

فَالْعَامِرِيَّةُ تَزْهِي عَلَى جَمِيعِ الْمَبَانِي
وَأَنْتَ فِيهَا كَسِيفٌ قَدْ حَلَّ فِي عُمْدَانِ
فقام صاعد وكان مناقضاً له . فقال أسعد الله الحاجب الأجل ، ومكن سلطانه .
هذا الشعر الذي قاله قد أعده ، وأنا أقول أحسن منه ارتجالاً . فقال له المنصور قل ليظهر صدق دعواك . فحمل يقول من غير فكرة طويلة .

يَأْيِهَا الْحَاجِبُ الْمُتَسَلِّي عَلَى كَيْوَانِ
وَمَنْ بِهِ قَدْتَنَاهِي نَخَارُ كُلَّ يَمَانِي
الْعَامِرِيَّةُ أَضَحَّتْ كَجَنَّةِ الرِّضْوَانِ
فَرِيدَةٌ لِفَرِيدٍ مَا بَيْنَ أَهْلِ الزَّمَانِ

الى ان قال :

أَنْظَرُ إِلَى النَّهْرِ فِيهَا يَنْسَابُ كَالثُّعْبَانِ
وَالطَّيْرُ يُخَطِّبُ شُكْرًا عَلَى ذُرَى الْأَغْصَانِ
وَالقُضْبُ تَلْتَفُ سُكْرًا بِمَيْسِ القُضْبَانِ
وَالرُّوْضُ يُفْتَرُّ زَهْوًا عَنِ مَيْسِ الْأَقْحَوَانِ

والنرجسُ الغضُّ يرون . بوجنةِ النُّمَّانِ
وراحةُ الريحِ تَمْتَنًا رُ نَفْحَةَ الرِّيحَانِ
فدم مدَى الدهرِ فيها في غِبْطَةِ وَأَمَانِ

هذا أدل في جملته على مكانة الشعر في النفوس ، وأنه شيء من روائع القول وجمال الكون . وهذا من مميزات الشعر العربي ، وهي جمال الشعر الوجداني . لأنه ينقلنا من عالم الحقائق المؤلمة الى عالم الأحلام والخيال ، حيث يتذوق الانسان السعادة ، وينسى آلام الحياة وكوارثها . وذلك هو الغرض من فنون الجمال . لاننا اذا كنا في حاجة دأمة الى الاتصال بالحقائق وأدراكها لفهم الأشياء ، فاننا كثيراً ما نكون أحوج الى الابتعاد من ذلك

« حضر أبو المُطَرِّف بن عبد العزيز مع ابن عمار الوزير عند المؤمن في يوم جادت فيه السماء بهطلها ، وأنبعت وبلتها بطلها ، وأعقب رعداً يرقها ، وانسكب دراكاً وذفها . والازهار قد تجلت من كمامها ، وتجلت بدرغمامها ، والأشجار قد جلى صداها ، وتوشحت بنداها ، وأكؤس الراح كأنها كواكب تتوقد ، تديرها أنامل تكاد من اللطافة تُعَقِّد . اذا بفتى من فتيان المؤمن أحرص لا يُفصح ، مستعجم لا يبين ولا يوضح ، متمر تنمر الليث ، مشمر كالبطل الباسل عند الغيث ، وقد أفاض على نفسه درعا ، تضيق بها الأسننة ذرعا ، وهو يريد استشارة المؤمن في الخروج الى موضع بعنه ووجهه اليه فكل من صده عنه نهره ، حتى وقف الى مكان انفراده ، ووقف بازاء وساده . فلما وقعت عين ابن عمار عليه ، أشار بيده اليه ، وقربه واستدناه ، وضمه اليه كأنه تبناه ، وجد أن يخلع عنه ذلك الغدير ، وأن يكون هو الساقى والمدير ، فأمره المؤمن بخلمه ، وطاعة أمره وسمعه ، فنضاه عن جسمه . وقام يسقى على حكمه ورسمه ، فلما دببت فيه الحيا ، وسبت غرامه بهجة ذلك الحيا ، واستنزلته سورة العنقر ، من مرقب الوقار قال

وهويته يسقى المدام كأنه
متأرجح الحركات تندى ربحه
يسعى بكأس في أنامل سوسن
ياحامل السيف الطويل نجاده
اياك بادرة الوعى من فارس
جهم وإن حسر القناع فأنما
يطقي ويلعب في دلال عناره
عنا بكأسك قد كفتنا مقلة
هذا شيء يسير من مجالس الأدب وأحوال الاجتماع في الأندلس

قر يدور بكوكب في مجلس
كالفضن هزته الصبا بتنفس
ويدير أخرى في محاجر نرجس
ومصرف الفرس القصير المحبس
خشن القناع على عثار أملس
كشفت الظلام عن النهار المشمش
كالمهري درج في اللجام المجرس
حوراء قائمة بسكر المجلس
«

النثر في الأندلس

كان الشعر في أكثر عصور اللغة العربية أشهر من النثر ، ولذلك كان الشعراء أشهر من الكتاب ، لأن البلاغة في الشعر أظهر ، والأخيلة فيه أبين ، وقراء العربية كانوا إلى التأثير بهذه الأساليب والصناعة أقرب . وكانوا يفهمون من الأساليب ما لا يفهمون من الموضوعات ومعانيها وأغراضها .

ومع أن النثر في المشرق كان أقل من الشعر انتشاراً ، وكان في المرتبة الثانية من حيث أنه صورة من صور البلاغة العربية ، أو من حيث الاعتماد عليه في الاستدلال على أساليب العرب وصحة لغتهم ، فقد تنوعت مناحيه ، وظهرت له مذاهب وطرق ، كذهب ابن المقفع وطريقته ، ومذهب الجاحظ وأسلوبه ، وطريقة ابن العميد والحريزي ، وغيرهم كما هو معروف .

أما في الأندلس فقد وسع كل أساليب العرب في المشرق ، من كلام مرسل سهل ، وعبارات يتخللها سجع غير متكلف ، أو كلام مسجوع مُتَعَمَّل . وكانت هذه الأساليب كلها ظاهرة في جميع العصور ، وعلى السنة الكتاب وأقلامهم ، حاشا العصر الأول إلى أواسط دولة بني أمية ، حيث كانت الكتابة سهلة قليلة السجع ، كما في خطبة طارق وكتب الامراء من بني أمية .

وقد ألف عرب الأندلس في العلوم والفنون ، فكان اشتغالهم بالتأليف والكتابة والعلم من الأسباب التي جعلتهم يطرقون هذه الموضوعات في كتاباتهم ، فلم تقتصر الكتابة النثرية على الدواوين والرسائل ، قصيرة كانت أو طويلة . مسجعة أو مرسلة ، في العشق والغرام ، أو في الظم والولم ، أو في المدح

والاستعطاف، وغير ذلك ، مما يظهر لأول وهلة أنه ليس من الموضوعات الممتعة ، والمعاني العامة الاجتماعية ، بل شمل كل شيء في الاجتماع هناك ، وكان مظهرًا لتلك المدنية ، والحالة العقلية والسياسية والعلمية . وكان أثره في الأدب والبلاغة كأثر الشعر ، لاشتماله على كثير من أغراض الكتاب . كوصف المباني الفخمة من كنائس ومساجد ، وقصور وآثار ، وما فيها من صور وتمائيل . وكوصف الأشياء الجميلة التي غنموها أو عملوها بأيديهم . ووصف محافل الأمراء والخلفاء وأهبة الملك ، والمجادلات والمخاصمات ، ومجالس العلم والأدب . وطرق الموضوعات العامة الاجتماعية والفلسفية . بشكل قصصي . كما في رسالة «حى بن يقطان» لابن طفيل . وكتابة الحقائق في أسلوب قصصي تخيالي ، كما في رسالة الوزير أبي عامر أحمد بن أبي مروان ابن شهيد التي هي من نوع رسالة الغفران ، وكالرسائل الطويلة المملوءة بالمعلومات التاريخية ، كرسالة أبي محمد بن حزم الحافظ التي ذكر فيها بعض فضائل أهل الأندلس من علماء وأدباء وحكماء ومؤرخين ، وسرد فيها آثرهم ومؤلفاتهم . ثم تلك الرسائل الفريدة في بابها التي هي من نوع رسائل ابن زيدون . ثم كتابة الفتح بن خاقان ولسان الدين بن الخطيب وما يشبهها مما لم يكن مثله كثيراً في بلاد المشرق ، بل بعض هذه الأنواع لم تكن معروفة

وكانوا يصفون في كتاباتهم نفوس الكبراء والأمراء والقواد ، كما كتبوا في المناظرات الخيالية ، كالمناظرة بين السيف والقلم لابن برد الأضر . وكالمناظرة بين بلدان الأندلس لابي بحر صفوان بن ادريس .^١ وكما كتبوا في الدعوات والأرشاد والتوسل الى الرسول وفي شعائر الحج .^٢ وكانت لهم أساليب في الزهد والاسرار الزبانية عرف الكتاب كيف يتصيدون فيها ألفاظ الزهد والتصوف .^٣

١ التي كتبها الامير عبد الرحمن بن السلطان يوسف بن عبد المؤمن . وهي من الرسائل الطويلة المسله راجع فتح الطيب طبع أوروبا جزء ١ صحيفه ١٠٥

٢ من ذلك ما كتبه الوزير الفقيه أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجند عن لسان من رجع من الحج . وهي من نوع الدعاء أو التوسل بالرسول راجع الذخيرة جزء ٢

٣ من تلك المعرفة في المسكوت . ونجوم الحكمة في الجبروت . وحياة القدس . ولباس التقوى والصراط المستقيم . وراشتك الطبيعة بريش النهي حتى تصير مع الروحانيين في مجال الصديقين ومنازل المقرين الخ وغير ذلك من ألفاظ الغيبات وأساليب ما وراء المادة . راجع رسالة الفقيه ابن عمر احمد بن عيس الالبيري في الذخيرة من الجزء الاول

وفى جوار ذلك تجدهم برعوا فى أساليب اللّهُو والمجون ..^١ ولهم عبارات تحسب من الخيالات الجميلة والسجع المتكلف السائغ للنفس تذوقه^٢ .

وبرعوا فى فن المقامات . ولأبى حفص عمر بن الشّهِيد فصول جيدة فى ذلك ، تشبه ما عند الفرنجة الآن ، أو يشبهها ما هو عندهم . وفيها أوصاف خيالية تدل على براعة فى انتقاء الألفاظ والمعانى ، وأمعان فى الصناعة وضروب الخيال^٣ . وتجد

١ كما بعث بعض الكتابات بترجة وكتب معها كتابا يقول فيه : قد بعثت اليك من بنات الثمار اجلها ، ومن نتائج البستان أفضلها . فشربت على ورد هارطلين ، وتناولتها بالاحتين ، فبحرمة الكأس التى رضنا ، الا ما رفعت قدرها ، وجملت القبول مهرها ، وجملتها على مجلس الدمام ، وحجبتها عن عيون اللثام ، فخصالها عجيبة ، وصفاتها غريبة ، ان خزنتها عطرت أثوابك ، وان أمسكتها أذهبت أوصابك ، وان أعملت فيها غرب السكين ، قرنت لك بين النرجس والياسمين وارترك الكشب على وجه الحبيب . يالها من أترجة غضة ، قد صورت من ذهب وفضة ، سرقت من العاشق سيماء ، ومن المشوق طعم ثناياه .. الذخيرة جزء أول

٢ مثل قولهم خرج الوزير أبو بكر بن عمار والوزير أبو الوليد بن زيدون ومعهما الوزير ابن خلدون من أشيلية الى منطرة لبني عباد بموضع يقال له الفت . تحف به مروج مشرقة الانوار . متنسفة الانجاد والاعوار . متنسفة عن ثنور النوار ، فى زمان ربيع سقت الارض السحب فيه بوسميا ووليا . وجللتها من زاهر ملبسها وباهر حليها . وارداف الربى قد تآزرت بالازار الخضرم من نباتها . وأجياذ الجداول قد نظم النوار قلائده حول لباتها . ومجاسم الزهر تمطر أردية النسائم عند هباتها . وهناك من البهار مايزهى على مدهان النضار ومن النرجس الريان ما يهزأ بنواعس الاجفان . وقد نووا الافراد اللّهُو والطرب والتنزه فى روضى النبات والادب . وبعثوا صاحباهم يسمى خليفة هو قوام لنتهم ونظام مسرتهم الخ...
نفتح الطيب ج ٢ ص ١٦٣

٣ كقول أبى حفص بن الشّهِيد ... وقد صحبتكم مدة . وسبحت الله على رؤوسكم مرارا عدة أوقظكم بالاسحار . وأوذن بالليل والنهار . وقد أحسنت لدجاجكم سفادا . وريت لكم من الفراريج أعدادا فالان حين بلى فى خدمتكم تاجى . انمى الى دجاجى . وتنحى الشفرة على أوداجى . وحين أدركنى المشيخ يمزق لحمى ويطبخ ، بالككرام من ذل هذا المقام ، وجملت دموعه تسفح من دمه . والحزون يطبق على فمه . ثم غشى عليه ، فاجتمعت الناس اليه ، يضربون وجهه بالماء . ويخلصون له فى الدعاء ، ثم أفاق من غشيتة وأنشد :

علام يقتل شيخ	من كل ذنب يرى
محقق متحسد	موحد سنى
هل نص هذا كتاب	أو قال هذا نبي
لاذنب لى غير أنى	مؤذن بدوى

لهم كلاما مسجعا هو من السهل الممتنع، مع رقة في اللفظ، وجزالة في المعنى، وطول لا يمل، وصراحة في القول، وحرية في الفكر^١.

وأحيانا نجدهم وصلوا الى درجة في النثر لا تفرق بينها وبين الشعر إلا في

فرقت له نفس القوم. وأقبلوا على صاحب المنزل باللوم. فقال ويحكم. ان هذا الديك ذو فخذ وصدره قد أصابني عليه ضجرة. ولى في ذبحه سر، ولا بد أن تزين به قدر، وتضرم تحته النيران، ويشيع من لحمه الضيقان. اما تزونه قرة العين والقلوب، سبيكة الجبن وتمثل .

ومن شيعتي مهما تزين منزلي لضيفي ان أقر به أحسن ما عندي
لو ان دمي خمرا لارويته به ولو صلحت كبدي شويت له كبدي
بذلك أوصاني ابي مذ عقلته وقد كان أوصاه بنذا قبله جدي

فقال الديك: لا اكذب، الحق طريق مستبين. واتباعه مروءة ودين. اما انه على خلق عظيم كريم ابن كريم. غير أنه لؤم في امرى. وأفرط وغلط ماشاء أن يغلط. اما علم ان هرمات الديوك ليست من مطاعم الملوك. وأنها بالادوية أشبه منها بالاغذية. واقسم لو اتخذ برمة من فؤاد مهجور ووضعتني من مثله على تنور، لا قضي به حاجة، ولا عدم مني فقرا ومجاجة. فزكى قوله من حوله، ولم يألوه تعظيما، واتخذوه من ذلك اليوم حكيمًا. وصرف البدوي من الطائفه، أحسن منه قرى أضيافه، وختم توبة بره بالرغبة في بسط عنده. وسمعنا منه ورحلنا سحرا عنه. م. الى ان قال .
فأصنيت فإذا انا بصوت ناقوس في دير قسيس. وقرية كلها حانة دار البطاريق . وملعب الكأس والابريق . سائمتها خنازير. وحياضها المعاصير. ومياهها الابنذة والجور . وشكلها مثلت مسطوح هندسته حوارى نباتها غصون من قدود تهتز في أوراق من برود . وتشر رمانا من نهود . وتفاحا من خدود . وعقارب من أصداغ . وأفاعى من أسورة وعقود . وفيها مدام من رضاب . وشفاه من كواعب أتراب، وغيد تهوى بقرط، وارتجاج لكثيب في سرط ، وجولان النطاق ، وعض الخللخال في ساق ، وخنث في أفاظ ، ومواعيد بالحاظ ، وقلوب تكلف وتشفغ ، ونفوس تنشأ ، وأخرى تتلف . فلما كثر تحدثنا بحضرة الفقيه من هذا التشبيه قطبنا له وجوه الاستكراه، وعضضنا له الشفاه . فبينما نحن كذلك تكثر لفظا ، وزى الحلول بالمستحسن غلطا ، اذ نظرنا الى أطراد صفوف من أعطاف حسنة ، وخصور هيفة ، وشمس واقار، على أفلاك جيوب وأزرار، لاسيوف الامن مقل ولا درق الامن عجل . ولا طارض الا من خلوق ، وأقسم بنعمة قد ودهن ألا جزتم المنة ، وثنيم الاعنة ، امرىجاً علينا اليانا وتحكما في المال والولد لدينا. فكرمت الشفاعة، وقلنا للسمع والطاعة

١ كما في رسالة لابن الحداد :

لما كان الكتاب أعزك الله جلاء الاقضاء، وصقال الاصداء. وعقال الادواء. وسمتنى منه بوسام . ولفتحنى منه بسموم. وأسررت حسوا في ارتفاء وأدجت ذما في ثناء ، والحري بأنف من الضيم . ويشمئز من الذم . ولا يقتصر على الاجزاء . بشير الجزاء . ولوترك القظا ليلا لنام . وفي العتاب حياة بين أقوام . فاصطبر لشرب صبره . وانتدب لتسوغ مره . فمن الحكم العدل . والقضاء

الوزن وقواعد العروض^١. ومن السجع الجميل والاساليب الممزوجة بالحقيقة والخيال أسلوب ابن بسّام في الذخيرة وترجمته الادباء والشعراء^٢ وتجدد مع هذه الرقة اللفظية والذوق الأدبي الفنى^٣، أنواعا من الرسائل الطويلة المسجوعة سجعاً متكافئاً مملأ، مملوءة بالعمل، كثيرة الصناعة، قليلة المعانى^٤. وامام هذه الصناعة لسان الدين بن الخطيب. والفتح بن خاقان طريقته معروفة في كتبه. حتى أصبح السجع طابعاً من طوابع الأدب العربي في الأندلس وتسلل الفقهاء مناصب الخطابة والكتابة. فنفضوا الأدب بنفحة جافة جف من أجلها عوده، حتى كسر أو كاد يكسر. وبلغ هذا منتهاه في أيام ابن تاشفين وعلى الرغم من رقى النثر في الأندلس فإنه لم يخرج عن صبغته العامة، وهي الاعتماد على الخيال والصناعة اللفظية. غير أن الكتاب حاولوا كما قلنا طرق

الفصل. ان الذعك بما لذعتنى. وأجرعك ما جرعتنى. غير آفك في حال، ولا مباحة بمجال. والتبويه ليس من خلق الكاذب اللبىه. والحر على ما أساء يصر. وكل مجر في الخلاء يسر. والفضل لمن حواه. لا لمن زخرف دعواه. وتحقيق البرهان. غير تنميق البيان. والسؤدد في محاسن الخلال والفعال، لا في اماكن الزمان. واقبال السلطان. وقيمة كل امرىء ما يحسن. امثال أضر بها عليك. واضحة المناهج. ومقدمات أنشأتها معك، صادقة النتائج. وجل تشتمل على تفصيل حالينا. ونبد تشير الى ما فيه جريتنا. وقد قابلني عتابك. واجلابك. بريح تعصف ورعد يقصف. واستقبلني خطابك. وأطنابك. بوبل يخسف. وسيل ينسف. بلغ الزبي وزاد. ونمر الربى والوهاد. الخ

١ كما في رقعة شفاعة كتبها ابو المغيرة عبد الوهاب بن حزم: اذا شرب روض الشكر من حوض البر. وأطلع من الزهر ما ينجل مسك الغرر وتنسم عن نسيم، يشنى حرارة القلوب الهيم ولم يزل يجرى خلف الطلب، بيد الادب. ويسرى في ظلام الامور، بسراج المنظوم والنثور. . . الخ الذخيرة جزء ١

٢ كقولہ في ترجمة ابن شهيد: كان أبو عامر شيخ قرطبة وفتاها، ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاها، ينبوع آياتها، ومادة حياتها وأساتها. ومعنى أسمائها ومسمياتها نادرة الفلك الدوار. وأعجوبة الليل والنهار. ان هزل فسجع الحمام. وان جد فزثير الاسد الضرغام. نظم كما انشق الدر، على النحور، ونز كما خلط المسك والكافور. الخ.

٣ راجع كتاب لسان الدين بن الخطيب عن لسان سلطانه. نفع الطيب طبع أوروبا جزءا

ص ١١٤

الموضوعات العامة، كالقصص والحكايات الخيالية،^١ والمناظرات وغيرها، وابتكروا هذه الأساليب في النثر كما ابتكروا أساليب الموشحات في الشعر .

أما طول الكلام والاطناب فيه، فيكاد يكون عامافى جميع كتاباتهم . وبعض هذا الطول يعد من الأمور الفنية البحتة ، والافتنان فى التصور والخيال ، وبعضه عمل سقيم ، يدل على تمكن الصناعة لاغير فى نفوس الكتاب والعناية بالألفاظ والسجع ، بل يدل على انحطاط ملكة البلاغة ، كما فى كثير من كتابات لسان الدين بن الخطيب والفتح بن خاقان وغيرهم من الكتاب .

وجملة القول أنه يمكن معرفة حالة النثر بالأندلس ، ودخوله هذه البلاد بخطبة طارق بن زياد ، التى قلنا انها أول صوت سمع هناك من بلاغة العرب وأول غرس من غراسها . فهذا كان نموذج النثر والخطابة فى تلك الأيام الى أواسط دولة بنى أمية . لأن الوافدين جاؤا من المشرق الى المغرب ، والدولة عربية فى بيت بنى أمية ، وروح البلاغة العربية البدوية كانت تجول فى نفس كل خطيب وكاتب وشاعر . فالذين هاجروا الى بلاد الأندلس فى الأزمنة الأولى كانوا لا يزالون أعرابا فى أفكارهم وأخيلتهم وأساليبهم . ولذلك نجد النثر فى تلك المدة يشبه كثيرا نثر الأمويين فى المشرق ، وخطاباتهم فى الأندلس أشبه بخطاباتهم فى الشام وبلاد العرب . ولما كثر الوافدون على الأندلس من المشرق نقلوا إليها طريقة النثر المسجوع ، والصناعة اللفظية ، والتنميق فى الكتابة . وسرى هذا فى كل أغراض الكتابة ، حتى فى الكتب الفنية والعلمية ، من تاريخية وغيرها ومن تراجم العلماء والأدباء ، ومن كتب جدية وهزلية . ومن أشهر ذلك كتب الفتح بن خاقان ، كفلاند المقيان والمطمح وغيرها ، وتاريخ الاحاطة فى أخبار غرناطة لسان الدين بن الخطيب . حتى أصبح من غير المستطاع أن يجد الانسان من يكتب نثراً غير مسجوع

١ كما فى رسالة لابن شهيد على لسان الأوزة . راجع الذخيرة جزء أول

الشعر في الأندلس

البلاغة من نظم ونثر لها غرضان غرض فني ، وهو ما بها من الجمال الذي يدعو الانسان الى السرور والاعجاب ، وارتياح النفس الى المعاني الجزلة ، والألفاظ المختارة ، وتناسق العبارات ، وحسن الأساليب ، وتأنق الترابيب ، وغير ذلك مما ذكره العرب وتقادهم ، من أنواع المعاني والبيان البديع . ويدخل في هذا النوع قدرة الكاتب أو الشاعر على الافتنان في الصناعة ، ومقدار ماله من التصرف في الكلام ، وما يدركه من أسرار هذا الفن ، مما يدل على عبقريته . وهذا الجزء الفني من البلاغة هو أحد أركانها ، وأكبر دعائمها ، اذ بدون ذلك لاتعد البلاغة من فنون الجمال في شيء

والغرض الثاني هو الحقيقة المنطوية في غضون ذلك الكلام ، التي يكشف بها الفني عن كثير من المعاني الخفية في النفوس ، وأسرار الكون ، وحقائق الموجودات ، والآراء الاجتماعية والفلسفية ، وصور الانسان والانسانية . فغرض الكاتب أو الشاعر البليغ أن يتسرب في النفوس ، ويستولى عليها بجمال الافتنان ، وينعشها ويوقظها بأسلوبه وبيانه ، ويهذبها بمعانيه وما فيها ، ليرشدها الى حقيقة من الحقائق الانسانية . ولقد يدرك الفني مالا يدركه غيره ، لأنه دقيق الادراك ، قوى الملاحظة ، سريع الخاطر ، تخترق نفسه الحجب فيرى بالايراه غيره . لذلك يمكن أن يكون مساويا للفلاسفة أو الحكماء في الافاضة على الانسان من أسرار الكون وحقائقه .

والعرب يميلون الى جمال القول ويقصدون الى حسن العبارة والاستيلاء على النفوس بسحر الكلام . فكان الشعر فنا عريباً جميلاً ، وكان العربي شاعراً بطبيعته ، ونصيبه من أنواع الجمال قول الشعر الجميل . وكانت الفصاحة والبلاغة

مظهر الحياة النفسية العربية ودليلاً على جهود العقول وآثارها . وكما نزل العربي
بمكان بذرة الشرف فيه وتمهدها بالنمو ، فلما نزل أرض الأندلس غرسها
هناك ، فنمت في تلك الأرض الخصبية . فكانت كالزهرة الطيبة العرف
لقت بأصل آخر نضير الطلعة ، فظهر فيها أريج الطيب ونضارة اللون .
ذلك مثل الشعر العربي في بلاد الأندلس .

جاء الشعر بلاد الأندلس بصيغته الأولى البدوية ، وما لبث ان أخذ صبغة
جديدة بانساع التصور ، واختلاف المناظر ، والاطلاع على كثير من العلوم
، الآراء ، والميل الى مزج الحركة العقلية بالحركة الاجتماعية . فشمل كل مظاهر
الافكار ومرافق الحياة . ولكن كثيراً ما كان الشعراء يرجعون في أساليبهم
وأفكارهم الى الأساليب والافكار البدوية ، لأن العرب من أشد الأمم
عصبية وحنيناً الى وطنهم وعيشتهم الأولى . اذ رغم ما كان في نفوسهم من
الأثر الذي اكتسبوه من تلك البلاد ، وما حصل لهم من الحياة التي لم يكن
لهم بها عهد في بلادهم ، كانوا لا يزالون يميلون الى أخيلتهم الأولى ، ولم يكن
لهم ان يهجروا عاداتهم ، لأن العجب والخيلاء ، اللذين كانا لها السلطان على
عقولهم ، جعلاهم — حتى في تلك البلاد البعيدة ، وحتى بعد عدة قرون من
انتجاعهم اياها — يتغنون بذكر بلادهم ، ويتخذون الشعر القديم نموذجاً لهم في
الصناعة والخيال .

والذي يقرأ الشعر الأندلسي يجده أخاللشعر في بغداد ، بل وفي بلاد العرب
نفسها من حيث الصفات العامة ، والموضوعات التي كانت عند القدماء^١

على أن شعر الأندلس يمتاز في جملة عن الشعر العربي بما فيه من المعاني
المبتكرة الجميلة ، التي كان يعالجها الشعراء هناك من الوصف البديع ، والكلام
الرشيق ، والذوق النقي ، والافتنان في أساليب الخيال ، ولأنه يدل على حياتين

١ راجع قصيدة ابن الحداد في مدح المتصم في ابن خلكان جزء ٢

ويرسم صورتين من أحوال العربي : فبينما ترى الشاعر يصبو الى ذكر بلاده الأولى من حياته البدوية ، تجده يذكر الرياض والبساتين والأزهار والأنهار ، والمياه الجارية وظلال الأشجار والنسيم العليل والآراء العامة والخاصة وأحوال الاجتماع والعادات

هذا العقل المزدوج من البدو والحضر ظهر فيه جمال الفطرة ونضارة الحضارة ، وظهر هذا كله في الشعر . لأن الشعر كان مسرح العقول من جد وهزل وعلم وفلسفة . ولبث منتشراً زُهاء ثمانية قرون بين الخاصة والعامة من العرب وسكان البلاد الأصليين كلقوط وغيرهم . وقال الشعر كثير من الأمراء . وسابق النساء الرجال في ذلك ، فكان أحياناً يسبقنهم ، وعن الناس هناك بالشعر عناية عظيمة ، فكانوا ينقشونه على جدران المساكن وأبنية الحكومة . واتصل بالحوادث العامة الاجتماعية . وكان من وسائل الرقي ، ومن دواعي السلم والحرب ، وفك أسر المسجونين ، والعتو عن المجرمين .

ولم تكدهم رسالة ثرية من الشعر ، حتى سرت عدوى الوزن والقافية الى النثر . وانتشرت طريقة السجع في جميع المكاتبات ، وهي محلاة بأبيات من الشعر ، حتى في الكتب العلمية ، ومكاتبات الحكومة ، واجازات السفر . وكانت صناعة الشعر لازمة ، وروايته واجبة ، لمن يريد أن يندمج في حواشي الملوك . فقد كان الأدباء يجتمعون في حضرتهم للانشاد والمسابقة في ذلك ، كما كانت الحال في حضرة عبد الرحمن الأول ومن جرى على سنته ممن جاء بعده من الملوك والأمراء ، الذين كانوا يجرون المراتب والجوائز على الشعراء^١

وقد كان لنشاط العرب العقلي وصفاء قرائحهم في قول الشعر ما كان لهم من العلوم والفنون ، بل زاد ذلك في الشعر لما لهم من ميلهم الفطري اليه والافتنان فيه . فقد وسع كل شيء من أحوالهم الاجتماعية والنفسية . فكانوا يصفون الكبراء

١ راجع الكلام على الشعر في الاندلس في كتاب
Von Schack . Poesie und Kunst der Araber

والعلماء ، ويمدحونهم بعبارات جميلة رقيقة ، أكثرها خال من المبالغات .
 ويثونه شكواهم وآلامهم ،^١ ولهم قصائد في التقرب الى الله ومدح الرسول عليه
 السلام ، والزهد والتصوف والثناء ،^٢ ولهم أشعار رقيقة في المزح والتهكم
 والمجون^٣

١ كما في قصيدة ابن الرندي الشهيرة ورتاء ابن عبدون لبني الافطس وشكوى المعتمد بن
 عباد مما اصابه في آخر حياته

٢ وراجع الجزء الاول من كتاب الذخيرة لابن بسام

٣ كما في قصيدة قاضي الجماعة بفرناطه ابي عبد الله بن علي بن الازرق. نذكر منها شيئا

على سبيل الفكاهة قال:

عم بأفصال الزمن أومن عجوز تحتطي مها تيدي خده فالصنع تستوجه	ولا تبالي بمن والظهر منها منحنى يبدولك الورد الجنى نعم وثقب الذقن واضرب الكف أمام طقطق طق طقطق طق فحقح قح فحقح قح بنفسه يسمدنى	وأفدى صديقا كانلى وتارة ألمنه أستغفر الله قه أضحكت والله بذال ياليتنى لم أره وبعت فيه عيشتى ومنها
وهو يواسى بالرضا أومن مليح مسعد وان تمسه نظرى وبعد هذا أشتفى ذلك الوجه الدنى اصغ بسمع الاذن الضحك يغلينى فتارة أنصحه وربما أصفعه ياليت هذا كاه دهر تولى وانقضى دنست فيه جانى كاننى ولست أد د شاعر بهين شرق بطون السفن حينئذ أخلع فى واللحم مع شحم ومع وجلدة الفروج مشو الى قد شوقنى غوص الاكول المحسن وللارز الفضل اذ ق من هيام أنانى	وربما يصحبنى فيما مضى لم يكن عنى كطيف الوسن وملبسى بالدرن رى الآن بأ كأننى وربما يصفنى يا ككثير السمن تطبخه بالسمن	هل أمتطى يوما الى فى المنزل المؤمن مدوس والسمنتى زيت اللذيد الدهن هل للثريد عودة تفوس فيه أملى ق دائم يطربنى والرقا

وقد نظموا التاريخ وحوادثه^١ . وبرعوا في وصف الأبنية الفخمة وما فيها من الصور والأشكال والزينة ، ووصف القصور والحدائق ومجالس الشرب والسمّر والغناء والرقص . كقول الشاعر :

يأربُّ لَيْلٍ قد هتكتُ حجابَه بزُجاجةٍ وقادةٍ كالكوكبِ
يَسعِي بها ساقُ أغنٍ كأنها من خده ورُضابٍ فيه الأشنبِ
بدران بدرٍ قد أمنت غروبه يسعى بيدرٍ جانحٍ للمغربِ
فاذا نعتَ برشف بدرٍ طالع قأنم بيدرٍ آخرٍ لم يغربِ
حتى ترى زهر النجوم كأنها حول المجرّة ربربٍ في مشربِ
والليل منحصر يطير غرابه والصبحُ يطردُه بيازٍ أشهبِ

ووصفوا التنزه بالليل في ضوء القمر ، والأشجار وخصونها ، والرياح وهي تعبت بها وظلها الظليل ، وأشعة القمر على الجداول ، وصفاء الجو ، والفاكهة والأثاث والمسكن ، والقصور والصور . كقول الشاعر :

قصرٌ بمدرجة النسيم تحدثت فيه الرياضُ بسرّها المستورِ

ومنها ومات ذكر الكسكو فهو شريف وسنى
لاسيما ان كان مصعب نوعا بقتل حسن
ومنها وصدني عن ذلك قلة الوفا بالثمن
يه خليلي هذه مطاعم لكنني أعجب من ريقك اذ يسيل فوق الذقن
هل نلت منها شبعاً فذكرها أشبعني وان تكن جوعان يا صاح فكل بالاذن
فليس عند شاعر سوى كلام الألسن يصور الأشياء وهى أبدا لم تكن
فقوله يريك ما ليس يرى في الممكن فاسمع وسامح واقتنع واطو حشاك واسكن
راجع القصيدة في نفع الطيب طبع أوروبا جزء ثاني صحيفة ٢٠٢ . وراجع الكلام عن ابن الأثرق في نفع الطيب طبع أوروبا جزء أول صحيفة ٩٤٠

١ راجع الأرجوزة المذكورة لابي طالب عبد الجبار في آخر الجزء الاول من كتاب الدخيرة

خفض الخورنق والسدير سُمُوهُ وثني قصور الروم ذات قصورِ
 لاث النمام عمامة مسكية وأقلم في روض من الكافورِ
 غنى الربيع به محاسن وصفه فافتد عن نور يروق ونور
 فالذروح يسحب حلة من سندس تزهي بلؤلؤ طلبها المنثورِ
 والنخل كالغيد الحسان تقرطت بسبائك المنظوم والمنثورِ
 والرمل في حُبك النسيم كأنما أيدى غضون سؤالف المدعورِ
 والبحر يردد متنه فكأنه درع تُشن بمظفني مقورِ
 وكأننا والقصر يجمع شملنا في الأفق بين كواكب وبدورِ
 ووصفوا التنايل، برك المياه وآواني الأزهار. كما قال بعضهم في دائرتين من
 وردو ياسمين:

يا حسنَهَا دَائِرَةٌ من ياسمين كالحلي
 فالورد قد قابلها في حلة من خجل
 كما شق ورجبه تفاضرا بالمقل
 فاحمر ذا من خجل واصفر ذا من وجل

ووصفوا الحمامات الرخامية والسباحة والنوافير والحدائق والمياه
 وتكلموا عن الفلمان والخدم ومجالس الخلفاء والاجتماعات العامة ومجالس
 اللهو والشرب والرقص. كما قال ابن شهيد

هاك شيخاً قاده السكر لكا قام في رقصته مُستهلكاً
 لم يطلق يرقصها مستثبتاً فاثني يرقصها مستمسكاً
 عاقه عن هزها منفرداً نقرس أخنى عليه فاتكاً
 من وزيرٍ فيهم رقاصة قام للسكر يتاغى ملكاً

١ راجع وصف ابن حمد يس في نفع الطبيب طبع أروبا ج ١ ص ٣٢١

أنا لو كنتُ كما تعرفني قمتُ اجلالاً على رأسي لكأ
قهقهه الابريق مني ضاحكا ورأى رَعشة رجلِي فبكي

وتكلموا عن آلات الطرب وكل أنواع السرور والفرح، ووصفوا ميادين الحروب
واهوال القتال والنضال؛ والشجاعة والجليل والاقدام، والنصر والخذلان.
ووصفوا النفوس ومايجول بها من الميول والأهواء وما يحدث فيها من لذة وألم
والعشق وأثره في النفس . كما قال الشاعر :

مُقبلة كانت على دَهش أذهبت ما بي من العطش
ولها في القلب منزلةً لوعدها النفس لم تطش
طرقتي والدجى لبست خلعاً من جلدة الحبش
وكأن النجوم حين بدت درهم في كف مرتعش¹

وبرعوا في هذا النوع براعة لا تحارى حتى أتو بالغرائب من المعاني الجزلة التي
تثير النفوس وتحملها على التمشق كما قال الشاعر :

١ وكقول بعضهم:

حتى بدا الليل في ثوب سحولى
زنجية هربت أمام رومى

بتنا كأن حداد الليل شملتنا
كأن ليلتنا والصبح يتبعها

وكقول الشاعر

كما سل زنجى حسام من التبر

ولما تجلى الليل والبرق لامع

وكقوله في وصف زنجى يسقيهم

وقد زفت لنا بنت الكروم
فقلت الليل اقبل بالنجوم

وزنجى اتى بقضيب نور
فقال فتى من الفتيان صفه

وكقولهم في ملاقة الاحبة وأوقات الوصل

بزورتها شمساً وبدردجى يسرى
وطورا كما مر النسيم على النهر
بمقدمها والعرف يشعر بالزهر
كما يتقمى قارىء أحرف السطر

وواعدتها والشمس تبحج للندى
بجاءت كما عشى سنى الصبح في الدجا
فطرت الافاق حولي فأشعرت
فتابمت بالتقبيل آثار سعيها

غصبا الصباح فقسموه خُدوداً واستنهبوا قُضب الأراك قدوداً
ورأوا حصى الياقوت دون نحورهم فاستبدلوا منه النجوم عقوداً
واستودعوا حدق المهّي أجفانهم فسبوا بهن ضراغما وأسوداً
لم يكفهم حمل الأسنّة والظُّبا حتى استعاروا أعينا ونهوداً
وتضافروا بصفائر أبدوا لنا ضوء النهار بليها معقوداً
صاغوا الثفور من الأقالح بينها ماء الحياة لو اغتدي موروداً

ولم خيالات مبتكرة وعبارات طليّة خصوصاً في الوصف ، كقول ابن شهيد :
فكأن النجوم بالليل جيش دخلت للسكمون في جوف غاب
وكأن الصباح قانص طير قبضت كفه برجل غراب
ومن أبدع كلامهم في الوصف الجميل والشعر الذي لا يجارى في طريق الخيال
والابتكار، وورقة العبارة وحسن الأسلوب، وجزالة المعنى، قول أبي الفضل بن شرف
القيرواني^١ :

مطلّ الليلُ بوعد الفلقِ وتشكي النجم طول الأرقِ
ضربت ريح الصّبامسك الدجى فاستفاض الروض طيب العبقِ
وألاح الفجر خدّاً خنجلاً جال من رشح الندى في عرقِ
جاوز الليل الى أنجمه فنساقطن سقوط الورقِ
واستفاض الصبح فيها فيضة أيقن النجم لها بالغرقِ
فأنجلي ذاك السنا عن حلك وأنمحي ذاك الدجى عن شفقِ
بأبي بمد الكرى طيف سري طارقاً عن سكن لم يطرقِ
زارني والليل ناع سدّقه وهو مطلوب بياق الرمقِ

١ راجع القصيدة في الجزء الثاني من نفع الطيب طبع أروبا صفحة ٢٦٧

ودموع الطلّ تمرّ بها الصبّا وجفون الروض غرقى الحدقِ
فتأني في أزار ثابت وتثنى في وشاح قلقِ
وتجلى وجهه عن شعره فتجلى فلق عن غسقِ
نهب الصبحُ دجى ليلته فجا الخدّ ببعض الشفقِ
سلبت عيناه حدّئى سيفه وتحلى خده بالرونقِ
ووصفوا الكنائس والأديرة والقسس . كما قالوا عن ابن شهيد «انه بات ليلة
باحدى كنائس قرطبة وقد فرشت بأضغاث آس ، وعرشت بسرور واستيناس
وقرع النواقيس يبهج سمعه ، ووبرق الحيا يسرج لمعه ، والقس قد برز فى عبدة
المسيح ، متوشحاً بالزناير أبدع توشيح ، قد هجروا الأفراح وطرحوا النعم
كل اطراح

لا يعمدون الى ماء بآنية الا اغترافا من الغدران بالراح
وأقام منهم يعملها حيا، كما نما يرشف من كاسها شفة لميا، وهي تنفخ له بأطيب
عرّف، كما رشفها أعذب رشف، ثم ارتجّل بعد ما ارتجّل :

ولرب حان قد شممت بديره خر الصبا مزجت بصرف عصيره
فى فتية جعلوا السرور شعارهم متصاغرين تخشعاً لكبيره
والقس مما شاء طول مقامنا يدعو بعود حولنا بزبوره
يهدى لنا بالراح كل مُحفّرٍ كالخشفِ خفره التماح خفيره
يتناول الظرفاء فيه وشربهم لسلافه والأكل من خنزيره»

أما الأزجال والموشحات وغيرها من الأوزان التي ابتكروها فى الشعر
العربى، والمقطوعات الشعرية جدية أو هزلية أو اجتماعية، فحدث عن البحر ولا
حرج . فقد أظهروا من البراعة فى ذلك ما لا يقدر عليه الا نفوس خلقت شعرية
بطبيعتها وشاعرة بفطرتها . وقد سرت هذه الأنواع الى المشرق فأحدثت حركة
جديدة فى الشعر العربى، مما سند كره فى موضعه

أبو عامر بن شهيد

هو أبو عامر أحمد بن أبي مروان بن شهيد حفيد ذى الوزارتين أحمد بن عبد الملك بن شهيد وزير الناصر. وُلد أبو عامر سنة ٣٨٢ هـ ومات سنة ٤٢٦ هـ فهاش في أزهى عصور اللغة والأدب في الأندلس ، وفي عصر كان للمجون فيه سلطان عظيم على النفوس ، وكان الأدباء أكرم الناس وأكثرهم اقبالاً على ذلك ، يجرون وراء أغراض الناس وأهوائهم ، فانصبفت عقولهم بصبغة اللهو ، وانصرفوا الى وصف هذه المجتمعات والمخافل ، وأخذ الشعر والنثر تلك الصبغة الهزلية التي جعلته خفيف الروح، عذب المذاق ، سهلاً رشيقاً ، جميل البزّة والأسلوب ، مشتملاً على كثير من أحوال الاجتماع وعادات الناس .

وكان أبو عامر من أعلم الناس متفنناً في علوم الأدب ، بارعاً في صناعات النظم

١ هو أحمد بن عبد الملك بن شهيد الاشجعي الاندلسي القرطبي وزير عبد الرحمن الناصر وهو أول من تسمى بذي الوزارتين ، وكانت له دالة على عبد الرحمن الثالث ومنزلة رفيعة لديه . فتصرف في الوزارة كيفما شاء ، واشتهر شهرة عظيمة في سياسة الملك ، كما طار صيته وعلا ذكره بين الادباء ، فكان من اكتب الكتاب وأشعر الشعراء . وقد كان هو وحفيده ابو عامر من أنبغ كتاب الاندلس وأظهرهم ميزة في الكتابة والشعر ولا سيما في الاساليب القصصية من جدية وهزلية كما أشرنا الى ذلك . وهو صاحب الهدية المشهورة التي أهداها للناصر (راجع صفحة ١٩) وقد عاش في كنف عبد الرحمن الناصر فكانت بينهما صداقة وصلة ودية وكان يدل أحدهما على الآخر .

ويحيل الى من يطلع على حياة ابن شهيد هذا انه كان يصرف كل أوقاته في اللهو واللعب على الرغم مما اشتهر به من الكياسة في سياسة الدولة . فقد كانت بينه وبين الناصر مداعبات تدل على ذلك (راجع اخباره مع الناصر واهدائه الغلام في نفع الطيب طبع أوروبا جزء أول صفحة ٢٢٢) وله أخبار وأشعار كثيرة في نفع الطيب

والنثر . فكانت له منزلة رفيعة وابتكارات بديعة ، وأساليب راقية في فنّي المنظوم والمنثور ، حتى فاق جده في ذلك .

وبرع في أسلوب الرسائل القصصية النادرة المنال في الكتابة العربية ، وربما انفرد في نوعها ، مما يدل على ميله الى الأسلوب القصصيّ وابتكاره الفنى . ولقد تحسب هذه الرسائل فذة في اللغة العربية على الرغم مما في بعضها من المشابهة برسالة الفران لأبي العلاء ، من حيث الأسلوب والموضوع . كما في رسالة « التوايح والزوايح » . وقد ذكره ابن بسام صاحب الذخيرة نقلاً عن ابن حيّان بأنه « كان في تسميقي الهزل والنادرة ... أقدر منه على سائر ذلك وشعرة حسن عند أهل النقد ، تصرف فيه تصرف المطبوعين ... وله رسائل كثيرة في فنون الفكاهة وأنواع التعريض والأهزال ... وكان في سرعة البديهة ، وحضور الجواب وحدته مع رقة حواشي كلامه وسهولة ألفاظه ... آية من آيت خالقه ... وكان له انهماك في شرب وبطاله »¹ . وقد اتصل بالمؤمن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر وكتب له رسائل طويلة بها قصائد جميلة يمدحه فيها ويتملقه كثيراً . نذكر منها أبيات من قصيدة بدأها بنوع من الوصف البديع لروضة من الرياض ، وما بها من لهو ونعيم وجوار وخدم ، وتخلص من ذلك الى الدخول على مدح المؤمن فدحه بما لا يكون الا على لسان مثله .

ولقد يرى القارئ في قصيدة ابن شهيد هذه روحاً شعرية جديدة يلحح من خلالها نفس الشاعر وما له من القدرة على امتلاك المعاني ، والتصرف فيها ، وكأنا يقول ذلك بلا روية ولا تكلف ، أو كما أنه يعارض أبا نؤيس في أسلوبه . قال بعد أبيات:

١ في النسخة المخطوطة خطأ كثير في بعض الجمل والالفاظ حذفها ما لم يمكننا فهمه ووضعنا محله نقطاً وأصلحنا ما ظهر انه محرف . وقد تبدل النقط على حذف عدة جمل للاختصار . وفعلنا مثل ذلك فيما اخترناه من شعر ابن شهيدور بما أهملنا وضع النقط في حذف بعض الايات

وردُّ كما خَجَلتْ خدو
وشقيقُ نَمانِ شَكْتِ
ونغصونُ أشجارَ حَكَّتِ
بَكَرَ الحِسانُ يَرِذَنها
وضِحِكُن عَجَبًا فَالْتَقَتِ
ضُكْحَتُ وَأزَعَجَ بارِقُ
وتكاوست فيها الأبا
وكأنها أظب رَعَفنَ فَبِرِ
وعلاً بنا سُكْرَ أبا
نرَبى قلائسنا لهُ
وترنمت فيها القيا
قُننا نَصْفَقُ بالأُكفِ
وأعدنَ من سَدَنِ الملو
يشكو الرعاةَ نَنعُماً
لا تَسْتَحِيهِ الراشفا
يُحْنِنِيهِ ثَمَرَ النحو
متجاهلاتِ أَنهُ
لازمت باب محله
حتى إذا وقفت بنا
أَلْقَيْتِ مِنْ أُخْذِي لَهُ
وأقدته بشكائِي

دُ العَيْنِ مِنْ لَحَطَاتِ هائِمِ
صفحاته من لطم لا طِمِ
رَقصَ الماتِمِ للماتِمِ
من كل واضحة الملاغمِ
فيها المباسِمُ بالمباسِمِ
فظللت للبرقين شائمِ
رِقُ وهى فاهِقَةُ الحلاقِمِ
نَ داميةَ الخياشِمِ
الا الانابةَ للمحارِمِ
ونجُرُّ من عَذَبِ العائمِ
نُ لنا ورجعت البواغمِ
لها ونرقصُ بالجامِجِ
ك سليل أقيال خضارِمِ
ويضحُّ من حمل التائمِ
تُ ولا تباليه اللوائِمِ
رِ ويمتزين به المحارِمِ
يهوي وهن به عوالمِ
والنَجْحُ من قنص الملازمِ
عُجْزُ الحواضن والحوادِمِ
وتلوت من سور العزائمِ
فانقاد من تلك الشكائِمِ

فوردت جناتِ المنى وكومتُ عن لوم الملائم
 وأغرَّ قد لبس الدجى بُرداً فراقك وهو فاحم
 يحكي لغرته هلا ل الفطر لاح لعين صام
 وكأنما خاض الصبا ح نجاء مبيض القوائم
 ويسير في ييس الكرى وكأه في الصبح عائم
 حتى إذا علم الصبا ح أنار من تلك المعالم
 وتميلت أيدي الثريا وهى مذهبة الخواتم
 ودمت ذكاه بناظر رمد من الأقداء سالم

فاذا وصف وجدته يقظا قوى الملاحظة ، لا يصف الأوصاف العامة
 كأكثر الشعراء ، ولكنه يصف ما يراه وصفاً دقيقاً ، كالمصور يصور ما هو
 أمامه . وتلك صفة من صفات الرجال الفنيين

ولقد يقرأ الانسان شعره فكأنه في هرج ومرج . وكأنما الكؤوس
 تدور ، والنفوس تشور ، والعزائم تخور ، والمقول ، ثملة والحياة كلها جنة ونعيم
 كما قال:

أذنَ الديكُ فُتِبَ أو ثوبٍ وانضح القلبَ بماء العنبِ
 وتأمل آيةً معجزةً ما قرأنا مثلها في الكتبِ
 ركم الابريق من طاعتهِ وبكي فابتل ثوبُ الأ كؤبِ
 ولؤلؤ الميزهر ينفي كربي وتطربت فأعبي طربي
 وريب قام فينا ساقياً كلرشا أرضع بين الرزبِ
 ظبيةً دون الظباء قُصِّتْ فأتت غيداء في شكل صبي
 فتح الوردُ على صفحتها وحاه صدغها بالعقربِ

فشت نحوى وقد ملكتها مشيه العصفور نحو الثلب
وغام باكرتنا غيمه ترع الأفق بدمع صيب
مثل بحر جاءنا من فوقنا جرمة من لؤلؤ لم ينقب
وإذا هو ينتقل الى المدح، كما ينتقل الانسان من ظل الأشجار الى خرير المياه
والأنهار:

فسألناه وقد أعجبنا حشوه العين برأى معجب
أنت ماذا؟ قال مزن علمت كفه النفحة كنا درب
رامنى بالشوق أن أسقيكم رحمة منه بأقصى المغرب
فسألناه ابن ذلك لنا قال هل يخفى ضياء الكوكب
ملك ناصب من خالفكم عامرى المنتهى والمنصب
الى ان قال:

أنجبه للمعالى أسرة نزلوا للمجد أعلى الرتب
بنفوس من سناء غضة فى جسوم غضة من حسب
ووجوه مشرقات أومضت ضاحكات فى وجوه الكرب
لهم أيام حرب كثرت فى عدهم داعيات الحرب
هذا أسلوبه فى الشعر، ولولا خوف الملل من الاطالة لذكرنا كثيراً من
شعره.¹

أما نثره فأعجب من شعره من حيث أسلوبه الخيالى القصصى والميل الى
ذلك. وان كان شعره أبلغ من نثره من حيث الديباجة والعدوبة
وقد كتب رسالة هى أشبه برسالة الفران، من حيث أسلوبها الأدبى

1 أخباره مبسوطه مع شعره ونثره فى الجزء الاول من كتاب النخبة لابن بسام وفى
نفع الطيب ومطبخ الانفس

وسماها «التوايع والزوايع» ولعل ابن شهيد كان يقلد أبا العلاء في ذلك ، لانه أدرك عصره ولان شهرة أبي العلاء كانت ذائعة في المشرق والمغرب . وكان أهل الاندلس يقلدون أهل المشرق في كل شيء .^١

كتب أبو عامر بن شهيد هذه الرسالة الى صديقه ابن حزم . فقد عاش في عصر أبي بكر بن حزم هذا فتصادقا وتحابا . وكان لسكل منهما دالة على صاحبه . وكل منهما أديب وعالم ، لا تمر بأحدهما لحظة من لحظات الحياة الا كانت له فيها جولة فكر ونظر . وكانت بينهما رسائل ومكاتبات يعرضون فيها آراءهم وما يجول بنفوسهم^٢ . فكانت عقولهم في حركة مستمرة من الجدل الى الهزل ، ومن اللهو والمزح الى مسائل الأدب والدين . ولذلك تجد أحدهم يؤلف في علوم الدين ، وتجده يكتب في الهزل والمجون ، وتجده عالما وفيلسوفاً وشاعراً وفتياً وعاشقاً . فكانوا يأخذون من كل فن بطرف . وكانت تربيتهم العقلية تربية علمية وفنية مما مبنية على حب الاستطلاع والبحث ، وعلى الرغبة في سرور النفس وارتياحها بأثر الفنون الرائعة . فكانت أختلتهم مهذبة مصقولة ، وآراؤهم بديعة وأساليبهم رشيقة ، وابتكاراتهم عجيبة

والظاهر أنه كان للفلسفة اليونانية وقراءتها وأساليبها أثر عظيم في نفوسهم . ولعل أسلوب المحادثة والمناقشة الذي نجده في بعض الرسائل هناك كان مقتبساً من مثل أسلوب أفلاطون في بعض كتبه ، لأنه أسلوب جديد من الأساليب التي حدثت في اللغة العربية

١ ادرك ابن شهيد عصر أبي العلاء فقد عاش من سنة ٣٨٢ الى سنة ٤٢٦ وعاش ابو العلاء المرى من سنة ٣٦٣ الى سنة ٤٤٩

٢ قال ابن خلكان وكان بينه وبين ابن حزم الظاهري مكاتبات ومداهبات وله التصانيف الغريبة . منها كتاب كشف الدك وأيضاح الشك ومنها التوايع والزوايع . ومنها حانوت عطار وغير ذلك أدرك ابن شهيد... الخ

أما الأسلوب الذي كتبت به رسالة ابن شهيد فهو أسلوب خيالي تهكمي ويسميه الأدباء أسلوباً هزلياً. كما ذكر ابن بسام أثناء كلامه عن ابن شهيد: «فصول من رسالة سماها بالتوايع والزوايع صدرت عنه مصدر هزل تشتمل على بدائع وروائع»

وهذه الرسالة عبارة عن عرض صورة عامة للأدب والأدباء ونقد شعرهم نقداً بيانياً مبنيًا على ما يعطيه اللفظ والديباجة من الجمال، وما توحيه معاني هذه الألفاظ من الروعة والاعجاب، على حسب ما هو معروف من أساليب النقد عند أدباء العرب.

وله فيها شعر رقيق وأسلوب جميل، بشكلٍ محادثات بينه وبين الشعراء المعروفين. فهي أشبه بقصة أدبية مملوءة بصور الأدباء والشعراء

قال في صدرها: «كنت...أحن إلى الآداب، وأصبو إلى تأليف الكلام، فاتبعت الدواوين، وجلست إلى الأساتيد، فنبض في عرق الفهم، ودرّ لي شريان العلم...، وقليل الاتّحاح من النظر يؤيدني، ويسير المطالعة من الكتب يفيدني، إذ صادف شئ العلم مني طبقة، ولم أكن كالثلج تقبّس منه ناراً، ولا كالخمار يحمل أسفاراً، فطعنت ثغرة العلم دراكا،^٢ وأعلقت أرجل طيره اشراكا، فانثالت^٣ إلى العجائب، وانهاالت الرغائب. وكان لي أوائل صبوتي هوى اشتد له كفي، ثم لحقني بفض ملل في أثناء ذلك الميل. فاتفق أن مات من كنت أهواه مدة ذلك الللال، فجزعت وأخذت في رثائه،... فقلت

تولى الحمام بظبي الحدور وفاز الردى بالفرزال الغرير^٤

إلى أن انتهيت إلى الاعتذار من الملل الذي كان قفلت:

وكنت مللتك لا عن قلى^٥ ولا عن فساد ثوى في الضمير

١ النظر الخفيف ٢ من المداركة وهي المتابعة ٣ تابعت وكثرت ٤ الحمام الموت الغرير المهدوع ٥ القلى البفض

فأرتج على القول . فاذا أنا بفارس بباب المجلس ، على فرس أدم كأنما بقل^٢
وجبه ، قد انكأ على ربحه ، وصاح بي : أعجزا يافتي الانس؟ فقلت لا وأبيك ،
للكلام أحيان ، وهذا شأن الانسان . فقال قل بعده

كنيل ملال الفتى للنعيم اذا دام فيه وحال السرور
فأثبت اجازته^٣ . وقلت بأبي من أنت؟ قال زهير بن نمير من أشجع الجن ،
نصورت لك رغبة في اصطفاك . قلت أهلا بك أيها الوجه الواضح ، صادفت
قلبا اليك مقلوباً . وهوى نحوك محبوباً ، ونهادنا وتذاكرت معه أخبار الخطباء
والشعراء ومن كان يألفهم من التوايع والزواج^٤ . وقلت له هل حيلة في لقاء من
اتفق منهم؟ قال حتى أستأذن شيخنا . وطار عنى . ثم انصرف وقد أذن له . فقال
جل على متن الأدم . فسرنا عليه ، وسار بنا كالطير يجتاب الجو فالجو ، ويقطع
الدو فالدو ، حتى لمحت أرضا لا كأرضنا ، وشارفت جواً لا كجونا ، متفرع
الشجر ، عطر الزهر . فقال حللت أرض الجن أبا عامر ، فبمن تريد أن تبدأ؟ قلت
الخطباء أولى بالتقديم . لكنى الى الشعراء أشوق . قال فمن تريد منهم؟ قلت
صاحب امرئ القيس . فأمال العنان الى ، واذا واذى دوح أتتكسر أشجاره ، وتترنم
أطيابه . فصاح يا عيينة بن نوفل ، بسقط اللوى وبجومل ويوم دارة جلجل الا
ما عرضت لنا ، وسمعت من الإنسى وعرفتنا كيف اجازتك له . فظهر لنا
فارس على فرس شقراء كأنها تلتهب . فقال حياك الله يازهير وحيا صاحبك .
أهذا هو؟ قال هو هذا وأبى جرة يا عيينة . قال أنشد . قلت السيد أولى
بالأنشاد . فتطامح طرفه ، واهتز عطفه ، وقبض عنان الشقراء وضربها بالسوط ...
وجعل ينشد:

سهالك شوق بعد ما كان أقصرا

١ أدم أسود ٢ نبت عذاره ٣ أنفذت رأيه ٤ الروبة الشيطان أو رئيس الجن
• الدو الفلاة ٦ الشجر العظيم

حتى أكلها ثم قال لي أنشد . فهمت بالحیصة^١ . ثم اشتدت قوى نفسى .
وأنشدت :

شجته مفانٍ من سُلیمی وأدور

حتى انتهيت الى قولى :

ومن قنّة لا يدرك الطرف رأسها تزل بها ریح الصبا فتحدر
تكنفتها والليل قد جاش بحمره وقد جعلت أمواجه تتكسر
ومن تحت حصن أبيض ذو شقائق وفى الكف من عسالة^٢ الخط أسمر
هما صاحباى من لدن كنت يافعا مقيلان من جد القتي حين يعثر»
الى آخر ما قال

وهكذا أخذ فى عرض أحوال الشعراء بطريقة خيالية لذيذة . ولكنها تكاد
تكون خالية من كل نقد أو رأى له . وليس فيها الاجمال العبارة ، وسهولة
الاسلوب ، ووضعها هذا الوضع القصصى الذى يدل على سعة خياله ، وبلوغه منزلة
رفيعة فى هذا الأسلوب الأدبى الصرف . على أنه يميل الى مدح نفسه وعرض
شعره ، ويتخذ ذلك وسيلة من وسائل الإعجاب بكلامه . وقد برع فى وصف
أحوال الشعراء الذين ذكروهم ووصف حياتهم وميولهم النفسية ، وكأن لكلامه
ألوانا ترسم أحوالهم المختلفة ، وتميز بعضها من بعض ، أو كأنما استعرض أمامه هذه
البيئات والمناظر وأخذ يرسمها بقلمه . كما قال عن أبى نواس :

« ثم قال لى زهير: من تريد بعده؟ قلت صاحب أبى نواس. قال هو يدبر حنة ،
قد غلب عليه الخمر . فركضنا ساعة وجزنا فى محرنا بقصر قد أمّه . فقلت لمن هذا
القصر يا زهير؟ قال لطلوق بن مالك أبى الطبع صاحب البحتري ، فهل لك فى أن
تراه؟ قلت أجل . انه من أساتيدى . وقد كنت أنسيتّه . فصاح يا أبى الطبع . فخرج الينا

١ بالهرب ٢ قة الجبل ٣ السيف

قضى على فرس أشعل^١ بيده قناة ، فقال له زهير انك موفق ، قال لا ، صاحبك أشمخ
 مارنا من ذلك لولا تنقصه . قلت يا أبا الطبع ان الرجال لا تكال بالقرآن ، أنشدنا .
 من شعرك فأنشد : ما على الركب من وقوف الركب
 حتى أكملها ثم قال : هات ان كنت شيئاً فأنشده .
 هذه دار زينب والرباب

حتى انتهيت فيها الى قولى :

فكأن النجوم بالليل جيش دخلت للكمون فى جوف غاب
 وكان الصباح قانص طير قبضت كفه برجل غراب
 ... فكأنما غشى وجه أبى الطبع قطعة من الليل ، وكر راجعاً الى ما وراءه
 دون أن يسلم . فصاح به زهير أجزته ؟ قال أجزته لا بورك فيك من زائر
 ... وسرنا حتى انتهينا الى أصل دير حنة ، فضرب زهير الأدم . فسار بنا فى قنته
 ففتق سمى قرع النواقيس . فقلت فصحت^٢ من منزل أبى نواس ورب الكعبة ...
 وسرنا نجتاب أدياراً وكنائس ، وحانات الى دير عظيم تعبق روائحه ، وتصوك
 نوافحه . فوقف زهير ببابه : وصاح سلام على أهل دير حنة . فقلت أوسرنا بذات
 الأكرائح قال نعم . وأرقلت نحونا الرهايين ، مشدودة الزناير ، قد قبضت على
 العكا كير مبيضة الحواجب واللقى ، مكثرين للتسبيح ، عليهم هدى
 المسيح . فقالوا أهلا بك يا زهير من زائر ، وصاحب أبى عامر ما بنيتك ؟ قال حسن^٣
 الدنان . قالوا انه لى شرك الخثرة ، منذ أيام عشرة . وما نرا كما منتفعين به ، فقال وعلى^٤
 ذلك . ونزلنا وقاد بنا الى بيت قد اصطفت دنانه ، وعكفت غزالاه ، وفى دير حنة
 شيخ طويل الوجه والسبلة^٥ ، قد افترش أضغاث زهر ، واتكأ على زق خمر ، وبيده
 طرجهارة^٦ ، وحواليه صبية كالظباء تمطو الى عرارة . فصاح به زهير ، حياك الله أبا
 الاحسان . فجواب جوابا لا يعقل لغلبة الخمر عليه . فقال لى زهير اقرب اذنيه

١ فى ذنبه يياض ٢ يريد أن مابه يفصح ويدل على منزل أبى نواس ٣ الشارب ٤ شبه كأس
 يشرب فيه وفى النسخة الخطية طرجهارة وللمها محرفة ه لعلها عرارة وهى لعبة للصبيان . وظي
 يعطو اذا رفع يديه ليتناول الشجر . فهو يشبه الصبية بالظباء التى تلعب

بأحدى خمرياتك، فانه ربما تنبه لبعض ذلك . فصحت أنشد من كلام أبي طويله:
 ولرب حان قد ادرت بديره خر الصبا مزجت بصفو خموره
 في فتية جعلوا الزقاق تكاهم متصاغرين تخشما لكبيره
 وإلى على بطرفه وبكفه فأمال من رأسى لعب كبيره
 وترنم الناقوس عند صلاحهم ففتحت من عيني لرجع هديره
 فصاح من حباتل نشوته : أشجى ؟ قلت أنا ذاك . فاستدعى ماء قراحا
 فشرب منه وغسل وجهه، فأفاق واعتذر الى من حاله، فأدركتني مهايته، وأخذت
 في اجلاله لمكانه من العلم والشعر . فقال انشد حتى أنشدك . فقلت ان ذلك
 أشد لتأيدسى على أنه ما بعدك لمحسن احسان فأنشد :

يادر حنة من ذات الأ كبراح^٢ من يصح عنك فاني لست بالصاح
 يعتاده كل محفو مفارقه^٢ من الدهان عليها سحق امساح^٤
 لا يدلفون الى ماء بساية^٥ الا اغترافاً من الغدران بالراح
 ثم قال لى انشد . فقلت وهل تركت للانشاد موضعاً قال لا بدك ... فأنشدت

أصبح شيم أم برق بدا أم سنا المحبوب أوري زندا
 هب من رقدته منكسراً مسبلا لكم مرخ للردا
 يمسح النعسة من عيني رشا صائد في كل يوم أسدا
 قلت هب لى يا حبيبي قبلة تشفى من غم تبريح الصدا
 فأننى يهتز من منكبه قائلا : لا، ثم أعطانى اليدا
 كلما كلمنى قبلته فهو اما قال قولاً رردا
 كاد أن يرجع من لشمى له وار تشافى الشغر منه أدردا^٦
 قال لى يلعب: خذ لى طائراً فترانى الدهر أجرى بالكدا
 واذا استنجزت يوما وعده قال لى يعطل: ذكرنى غدا

١ جمع زق وهو وعاء الخمر ٢ هي بيوت صفار تسكنها الرهبان بالقرب منها ديران يقال
 لاحدهما دير عبد وللآخر دير حنة وهو موضع بظاهر الكوفة كثير البساتين والرياض
 ٣ خالصة من الشعر ٤ الثوب البالي ٥ الدلو العظيم ٦ بدون أسنان

شربت أعطافه خمر الصبا وسقاه الحسن حتى عربدا»
ولقد بلغ في هذا من دقة التعبير وبلوغ المعنى الذي قصد مبلغاً تشعر به النفوس
وكأنما ترى بعينك المعنى أو تلمسه بيدك ، أو كأنك واقف معه ترى
ما يراه هو ويند كره في شعره ، أو كأنك تنظر الى صورة واضحة تبين لك أجزاؤها
بألوانها المختلفة كل دقيق وعظيم .

وله رسالة في الخلواء غير معهودة المثال في الكتابة العربية جرى فيها مجرى
المجون والهزل والفكاهة . ذكرها ابن بسام في الجزء الأول من الذخيرة .

وكان ابن شهيد مع هذا من كبار رجال الأدب وأهل النقد . وله آراء تدل
على فكره الثاقب وعلمه الواسع في طرق النقد الأدبي . وكأنها آراء مبنية على
نظر عميق أودراسة فنية أو علمية . وفي رأينا ان آراءه في النقد أكبر ميزة من
شعره ونثره ، لأنها تدل على سعة اطلاعه وإبتكاره الخالص من كل تقليد ،
فقد انفرد بين نقاد الأدب العربي في ذلك . قال أبو عامر :

« إقامة البيان لا يقوم بها حفظ كثير الغريب واستيفاء مسائل النحو ، بل
بالطبع مع وزنه من هذين . ومقدار طبع الانسان انما يكون على مقدار تركيب نفسه
مع جسمه . فمن كانت نفسه من أصل تركيبه مستوية على جسمه ، كان مطبوعاً
روحانياً يطلع صور الكلام والمعاني في أجمل هيأتها ومن كان جسمه
مستولياً على نفسه من أصل تركيبه والغالب عليه جسمه ، كان ما يطلع في تلك
الصور ناقصاً عن الدرجة الأولى في التمام والكمال وحسن الرونق . فمن كانت
نفسه المستوية على جسمه ، فقد تآنى منه في حسن النظام صور رائقة من الكلام
تملاً القلوب وتشغف النفوس . فاذا فتشت لحسنها أصلاً لم تجده ، ولجمال تركيبها
وجها لم تعرفه ، وهذا هو الغريب : أن يتركب الحسن من غير الحسن . كقول
امريء القيس :

تنورتها من أذرعَات وأهلها يثرب أدنى دارها نظر عال

فهذه الديباجة اذا تطلبت لها أصلاً من غريب معنى لم تجده . ولكن لها من
التعلق بالنفس والاستيلاء على القلب ما ترى »

هذا شيء طريف في النقد الأدبي عند العرب ، وكأنه يشير الى مذهب
النقاد الذين يأخذون صور الكُتُاب من كتاباتهم ، ويقولون ان البلاغة من
نثر ونظم تدل على نفوس البلغاء . وفي هذا الكلام اشارة الى مذهب علمي
في النقد: وهو الأعضاء « ووظائفها » واتصالها بالادراك . وذلك ان كان ليس
مبنياً على تجارب علمية أو على دراسة فنية فهي أفكار جالت في نفسه تدل على
قوة الفكر لديه . وهو يميل الى أن الافتنان في الكلام ، أو البراعة في النظم
والنثر ، أو ما يسمونه بالبلاغة ، نوع من الالهام ، أو شيء من الغيبيات أو سر من
أسرار النفوس . وهذه الآراء هي أصول مذاهب النقد الادبي ، وأصول معرفة
الكلام البليغ وشرحه كما قال :

« وقال الجاحظ انا اذا اكثرينا من يعلم صبياننا النحو والغريب قنع منا
بشرين درهماً في الشهر . ولو أكثرينا من يعلمهم البيان لما قنع منا بألف درهم .
ولم يقل هذا الا وقد ألف كتاب «البيان» . ولو كشف فيه عن وجه التعليم وصور
كيفية التدريج ، لأرى كيف وضع الكلام وتنزيل البيان ، وكيف التوصل الى
حسن الابتداء ، وتوصيل اللفظ بعد الانتهاء ، وأبدى لهم عن تدبير المقاطع والمطالع
بأنها معاني الصنعة ، ومواضع مفاتيح الطريقة »

فذهبه في النقد وسط ، لأنه يرى أن البلاغة شيء روحاني كما قال « فمن كانت
نفسه من أصل تركيبه مستولية على جسمه كان مطبوعاً روحانياً يطالع صور الكلام
والمعاني في أجل هيئاتها . الخ » ويرى ان لهذا السر الروحي عدداً وأهبة . قال :
« جلس الى يوم ما يوسف الاسرائيلي وكان أفهم تلميذ مرني وأنا وصي رجلاً عزيزاً
على من أهل قرطبة ، وأقول له : ان الحروف أنساباً وقرابات تبدو في الكلام . فاذا جاور

النسيب النسيب ، ومازج القريب القريب ، طابت الألفة وخسنت الصعبة وإذا
ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر وطابت المخاير . أفهمت ؟ قال لي
أى والله . قلت ، وللعريية إذا طلبت وللصاحبة إذا التمسست قواهن من الكلام
من طلب بها أدرك ، ومن تنكب عنها قصر ، أفهمت ؟ قال نعم . قلت وكما تختار
مليح اللفظ ورشيق الكلام ، فكذلك يجب أن تختار مليح النحو وفصيح
الغريب وتهرب عن قبيحه . قال أجل . قلت أتفهم شيئاً من عيون كلام القائل :
لعمرك أنى يوم بانوا فلم أمت خفاناً على آثارهم لصبور
غداة التقينا إذ رميت بنظرة ونحن على متن الطريق نسير
ففاضت دموع العين حتى كأنها لناظرها غصن يراح مطير
فقال لي أى والله وقعت خفاناً موقعاً لذيذا ، ووضعت رميت و متن الطريق موضعا
مليحا ، وسرى غصن يراح مطير مسرى لطيفاً» الى آخر ما قال .

وكان يميل الى القول بان الأذواق تتفاوت وتختلف . وهذه قاعدة عامة فى كل
الفنون ، بل هذا أساس الفنون جميعا . قال : وربما لا ذنبا المستطم باسم الشعر ممن يخبط
العامة والخاصة بسؤاله ، فتصادف منه حالة لا تتسع له فى كبير مبرة فنشاركه ونعتذر له ،
وربما أفدناه بأبيات يتعمد بها البقالين ومشايخ القصابين ، فإذا قارعت أسباعهم وما زجت
أفهامهم وأنحلت عقدهم ، جل شخص ذلك البائس فى عيونهم . فما شئت اذ ذاك من
خبز وميرة يحشى بها كفه ، ورقبة سمينة تدفن فى مخلاته ، ومن كوز فُقاع يصب فى فيه ،
وتينة رطبة يسد بها حلقومه ... فلا يكاد البائس يتم ذلك حتى يأتينا ، فيكب على أيدينا
يقبلها وأطرافنا يمسحها ، راغباً فى أن تكشف له السر الذى حركت العامة فبدلت ما عندها
له ، وبادرت برفدها اليه . وتعليمه ذلك النحو من أنحاء الشحذ لا نستطيعه . لان
هذا الذى يريد منا هو تعليمه البيان ، وبين فكره وبينه حجاب . ولكل
ضرب من الناس ضرب من الكلام ووجه من البيان « الخ

وكان يرى أن للكتابة أطواراً تتناوبها، وأحوالاً تعديها . اذ قال :

« وكما أن للدنيا دولا فكذلك للكلام نقل وتناير في العادة . ولكل طائفة من الأمم المتعاقبة نوع من الخطابة لا يوافقها غيره ولا تهش لسواه . ألا ترى لما دار حال بمض الرسم الأول في هذا الفن الى طريق عبد الحميد وابن المقفع وسهل وأصحابهم . فالصنعة معهم أفسح باعاً وأشد ذراعاً وأنور شعاعاً ، لرجحان تلك العقول واتساع تلك القرائح في العلوم . ثم دار الزمان دورانا فكانت احالة أخرى الى طريقة ابراهيم بن العباس ومحمد بن الزيات ونظرائهم ، فرقت الطباع . ثم دار الزمان فاعتري أهله للطائف صلف وبرقة الكلام كلف ، فكانت حال أخرى الى طريقة البديع ... وكذلك الشعراء انتقلوا عن العادة في الصنعة بانتقال الزمان ، وطلب كل ذى عصر ما يجوز فيه ، وتمهياً له قلوب أهليه . فكان من صريع الغواني وبشار وأبي نواس وأصحابهم في البديع ما كان من استعمال أفانيه ، والزيادة في تفريع فنونه . ثم جاء أبو تمام فأسرف في التجنيس وخرج عن العادة ، وطاب ذلك منه وامثله الناس . والتوسط في الأمر أعدل . ولذلك فضل أهل البصرة صريع الغواني عليه ، لانه لبس ديباجة المحدثين على لامة العرب فتركب له من الحسن بينهما ما تركب »

هذه نظرة عامة في النقد الأدبي أو في أطوار البلاغة العربية . يتبين منها أن ملكة النقد كانت لديه كملكة الشعر والنثر . وقد قسم الاقنتان في البلاغة الى ثلاثة أقسام . وعرف أحوال الكتاب وما يلاقونه أثناء أداء هذا الفن . قال :

« وأهل صناعة الكلام متباينون في المنزلة ، فمنهم الذي ينظم الأوصاف ويمحز جيد اللفظ ، إلا أنه يصعب عليه الكلام ، ويكد قريحة التأليف حتى أنه ربما قصر في الوصف . وأساء الوضع . وهذا في الأبيات القلائل نافذ ، وفي القرية المأخذ سائر ، وفي طريقة الجمهور ذاهب . حتى اذا ازدحت عليه ، وأنحشده اليه ، وطالبته ببناء البهجة

وشرف المنزلة، وقف وأثقل وتلاشى واضمحل ، ومنهم الكارخ في بحر الغرارة والقادح بشعاع البراعة ، الذي مرَّمرَّ السيل في اندفاعه، والشؤبوب في انصبا به لا يشكو الفشل ، ولا يكمل عن طول العمل . إذا ازدحمت في الكلام عليه المطالب ، وعلقت بجواشي فكره المآرب ، وحشدت عليه الصعائب والفرائب ، استهل بها كاهله واضطلع بثقلها غاربه ، وأغارها من نظره لحته ، ومن فكره قدحة . ثم رمى بها عن جانبيه ، وقد رويت بمأها . ولبست شعاع بهاؤها..... ومنهم من يتجافى الكلام ويروغ عن المقال ، فإذا منى به أخذ بأطراف المحاسن وشارك في انحاء من الصنعة ، وجل ما عنده تليفق وحيلة . وبذلك يجارى الأيام ويصاحب أبناء الزمان ، ما كان له عقل يقضي على نقصائه ، وسياسة يسود بها فحول زمانه . ومن خرج من هذه الطبقات الثلاث لم يستحق اسم البيان ولا يدخل في أهل صناعة الكلام»

وقد اتفق ابن شهيد باللائمة على مذهب أهل البديع . كأن هذه الطريقة اللفظية كانت ممقوتة . أو أن ملكة النقد كانت على وشك النضج ، أو أنها كانت آخذة في الانتقال الى طريق صحيح . قال أبو عامر .

« وقوم من المعلمين بقرطبتنا ممن أتى على أجزاء من النحو ، وحفظ كلمات من اللغة ينحتون عن قلوب غليظة وقلوب كقلوب البمران ، والى فطن حمتة وأذهان صدئة لا منفذ لها في شعاع الرقة ، ولا مدب لها في نور البيان ، سقطت اليهم كتب في البديع والنقد فهموا منها ما يفهم القرد اليابس في الرقص على الاتماع والزمر على الألحان ، فهم يصرفون غرائبها تصريف من لم يرزق آلة الفهم ، ومن لم تمكن له آلة الصناعة مما هي مخصوصة بها، ولا تقوم تلك الصناعة الا بتلك الآلات . فهو كالخار التي لا يمكنه أن يتعلم صناعة ضرب العود والطنبور لتدوير رُسغه ، واستدارة حافره . ولا له بنان يجبس بها ولو جاز أن يكون حمار يفتى .

مابال أنجم هذا الليل حائرة أضلت القصد أم ليست على فلك
وشبهه من الرجال ان له حنكا ولسانا وقصبة ورثة ، لماجاز أن يوقع بالضراب
على الأوتار، ويتم بحبس الأنامل، ويرخي الوتر في مجرى السبابة والبنصر، فيبلبل
بشيدته، ويؤكول في ضربه على بسيطه . فهذه حالة العصابة من المعلمين : يدركون
بالطبيعة ويقصرون بالآلة . وتقصيرهم بالآلة هو من طريق العلل الداخلة ، من
فساد الآلة القابلة الروحانية والحادمة لآلات الفهم ، الباعثة لرقيق الدم في
الشرائيات الى القلب، وزيادة غلظ أعصاب الدماغ ونقصانها عن القدار الطبيعي .
وما يعين على ذلك بالحس وطريق الفراسة فساد الآلات الظاهرة، كفرطحة الرأس
وتسفيطه ، والتواء الشدق ، وخزر العين ، وغلظ الأنف ، وانزواء
الأربية»

أليس في هذا دليل على اطلاع أبي عامر بن شهيد على كتب العلم والفلسفة،
على الرغم مما فيه من الغموض؟ وهل نجد بين أدباء العرب. في النقد الأدبي من سلك هذا الطريق
العلمي؟ ان هذه لآراء ممتازة في النقد الأدبي العربي . وطريقة عامية تشبه ما حدث في
الأدب عند أهل أوروبا في القرن التاسع عشر . وكان هذا يكون نموذجا للنقد
الصحيح وطرقه العلمية التي تصل أفكار الكاتب وآراءه بتكوينه العصبي وتركيبه
الاجسمى . ولكن واحدا من الادباء الذين تكلموا عن أبي عامر بن شهيد لم يذكر
له غير «شعره الرقيق ، وأسلوبه الرشيق، ومجونه الكثير وأدبه الوافر ...» الخ
ان ابن شهيد من أفذاذ الادباء المفكرين الذين أنجبتهم حركة العقول والادراك
في الأندلس.

الوزير ابن زيدون^(١)

اقتربت الوزارة في الاندلس بالأدب . فكان الوزير كاتباً وشاعراً . وكان أشهر الكتاب والشعراء وزراء . وكانت الشهرة بالكتابة والشعر وفنون الأدب وفروع العلوم من وسائل الوصول الى امتلاك الوزارة . فكان للوزراء أثر عظيم في سير البلاغة والأدب . وأصبحت منزلة الادب كمنزلة الوزراء أنفسهم في الدولة . وظهر في الاندلس طائفة من الرجال الذين تربعوا في مناصب الملك وتقلبوا في مراكز الدولة . وتغلبوا على شئوننا . وهم جميعاً من الأدياء والعلماء والكتاب والشعراء وأهل الشورى وأعلام الحياة العقلية

ومن أشهر هؤلاء الوزراء الأدياء والشعراء المجيدين، أبو الوليد احمد بن عبد الله بن احمد بن غالب بن زيدون المخزومي الاندلسي القرطبي ، أشهر من عرف في حلبة الأدياء ، وأظهرهم ميزة في فنون الكلام وأساليب الشعر والبيان، لأنه صورة من صور الأدب في الأندلس وصحيفة من صحف البلاغة هناك ، وثمرة من ثمار غرس العرب في بلاد المغرب

١ ليس لدينا عن ابن زيدون ما يدلنا على شيء من حياته المنزلية أو تربيته الاولى، أو ما يتبع لنا الحكم على نفسه وأصل تربيته العقلية أو حياته الفكرية ولم يزد ابن خلكان عن بضعة أسطر نقلها عن كتاب الذخيرة لابن بسام . حتى أنهم لم يذكروا عن أبيه أبي بكر بن زيدون شيئاً سوى أنه كان من وجوه الفقهاء قرطبية . وقال ابن خلكان عن ابن بشكوال في كتابه (الصلة) انه أثنى عليه وكان يكنى ابا بكر وتوفي سنة ٤٠٥ هـ ودفن في قرطبة . وكل ما ذكر من صفاته أنه كان يخضب بالسواد . وفي بعض كلام الشعراء الذين رثوه ما يدل على أنه كان من أهل الفضل .

ولد ابن زيدون بمدينة قرطبة في سنة ٣٩٤ هـ وتوفي بأشبيلية سنة ٤٦٣ هـ وهو ثالث ثلاثة تسموا بابن زيدون : أحدهم أبو بكر عبد الله بن احمد بن غالب والده ، والثاني ابو بكر ابنه وكان وزيراً للمعتمد بن عباد ومات مقتولاً في آخر أيامه . وهم من أصل عربي كما أشرنا الى ذلك في كلامنا على القبائل التي نزلت الاندلس من العرب

كان أبوه قاضياً مشهوراً بين قضاة قرطبة ، وعالمًا وأديباً . مات سنة ٤٠٥ هـ فكان عمر ابنه اذ ذلك احدى عشرة سنة . وكان أبو الوليد منذ حداثة ميالا الى العلم والتعليم ، فاندفع يطلب لنفسه الكمال العقلي وكانت نشأته في قرطبة ساحة العلوم والآداب ، فانكب على الدرس والبحث ، وأخذ الأدب عن رجاله المعروفين . وكان له ميل شديد لعلوم العرب وفنون اللغة فحفظ منها شيئاً كثيراً ، كلوعى كثيراً من أخبار الأديباء والشعراء وأمثال العرب وحوادثها ومسائل اللغة ، حتى أصبح في مقدمة الشعراء والأديباء . واندمج في مجالس الأدب ، فصار علماً من أعلامها ودعامتها . وكانت قرطبة لاتزال في أوج عزها على الرغم من أفول شمس بنى أمية بها ، وأهلها في رخاء من العيش ، أكثرهم يميل الى العلم والأدب ومجالسة الأديباء . فامتلات المحافل والمجامع بضروب اللهو والطرب ، وكان لابن زيدون خفة روح ودعابة وميل الى المجون ، فساعده ذلك على أن يسبق غيره وأن ينال شهرة واسعة بين أترابه .

وكان للنساء أثر عظيم في هذه المجالس . فأتجه الناس الى الاندماج فيها واستعدبوا هذا المورد ، وانصرفت هم الأديباء الى التفوق في هذا الميدان فكان لذلك أثر عظيم في أخلاق الأديباء وصورة البلاغة من نظم ونثر . وكأنتما ضاعت كل صبغة جدية في المجامع الأدبية فجزؤ الوزراء على المجاهرة بالمجون . وكان ابن زيدون أحد أبطال هؤلاء فنجذب اليه الانظار .

وكان لولادة بنت المستكفي الخليفة الاموي شهرة عظيمة في قرطبة لجمالها وعلمها وأدبها. فوقع ابن زيدون في شركها ووقعت في شركه واشتمل كل منهما على صاحبه، حتى حسد عليها وحسدها الناس عليه. وكان من هؤلاء الحساد الوزير أبو عامر بن عبدوس وهو كبير الحول والطول، فتقرب الى ولادة حتى آمأها اليه، واغتصبها من صديقها، وكانت ولادة ملت صداقة ابن زيدون وانهمته بعدم الاخلاص لها، كما اتهمها بذلك أيضاً، فهبت عاصفة من الجفاء بينهما شتتت من شملهما وحالت بين قلوبهما. لذلك غلب ابن عبدوس ابن زيدون على أمره واستولى على قلب ولادة. ثم حدث ان رجعت الى ابن زيدون فكتب عن لسانها لابن عبدوس رسالته الشهيرة الهزلية. ثم استأثر بها ثانياً ابن عبدوس فكانت هذه الحال سبب اضطراب في حياة ابن زيدون العقلية والسياسية وهكذا كانت حال الوزراء وأرباب الدولة وعقول الادباء وأصحاب الاقلام والمفكرين. وهذه الحادثة من أكبر الحوادث في حياة ابن زيدون.

عاش ابن زيدون في بيئة كالمها اضطراب ودسائس، وتربى ودرج في ذلك وتقلد الوزارة فيها، لأنه اشترك في حوادث الاضطراب التي كانت على أثر زوال دولة بني أمية، فكان من اشيع ابن جهور أحد ملوك الطوائف الذي ادعى لنفسه الملك في قرطبة بعد انحلال الدولة الأموية سنة ٤٢٣م وعملت منزلة ابن زيدون هناك فاتخذ ابن جهور وزيراً له فملك أزمه الامور، وكان أقرب الناس الى سيده الذي استعان به كثيراً في المسائل السياسية وتأمين الصلة بينه وبين الأمراء الآخرين لذلك كانه ودهائه، فكانوا يحسدون ابن جهور على الاختصاص به. وحدثت حوادث أغرت عليه ضدور كثير من منافسيه وحاسديه على فضله ومنزله، فحملوا عليه عند ابن جهور حتى أمر بسجنه فسجنه طويلاً. فاستغفر واستعطف بما يلين من أجله

الحديد ، فلم يفلح في ارضاء الامير فعرزم على اعمال الخيلة والهرب من السجن .
واختفى بقرطبة الى ان استشفع بابي الوليد بن جهور عند أبيه أبي الحزم
حتى شفغ له . وجعله أبو الوليد بعد موت أبيه من المقدمين في دولته . ولكن
ابن زيدون لم يأمن على نفسه من بقاءه في قرطبة . فهاجر الى اشبيلية سنة ٤٤١
ودخل في حاشية المعتضد بن عباد وصار وزيراً لابنه المعتضد وبقى هناك الى آخر عمره .
هذه حياته وأخلاقه وقد ذكرها في شعره ونثره ومنها يرى ان حركات
عقله كانت تقفو ذلك خطوة بخطوة . فكانت حياته العقلية نتيجة هذه
الحياة . لذلك يمكن أن تقسم آثاره الأدبية الى أقسام ثلاثة : عشقه لولاده وأثر
ذلك في نفسه وما كتبه في هذا . ثم مدحه لابن جهور وابن عباد . ثم أثر السجن
في حياته العقلية .

شعر ابن زيدون

كان لاختلاق ابن زيدون والبيئة التي عاش فيها وميول الناس الى اللهاؤثر عظيم في شعره . فقد كان للمجون مسحة خاصة في النظم والنثر ، فبرع ابن زيدون في الغزل ، وكثير من شعره في ذلك كان منبعثاً عن ثوران في نفسه وغليان في ميوله واهوائه ، أذكي ذلك كله حبه لولادة . فان عشقه هذا فتح له باباً واسعاً من الخيال قال فيه ماشاء وشاءت عواطفه أن توحى اليه . كذلك كانت آلامه وما لاقاه في السجن باعثاً من بواعث استنهاض ملكة الشعر فيه والهاماً من الهاماته الفنية .

وشي به أعداؤه وحاسدوه الى ابن جهور ، وكاد له منافسوه في حب ولادة حتى نالوا منه ، وشفوا غلتهم بحمل ابن جهور على سجنه بعد ان أحله منزلة الوزير يدبر ملكه ، وبعد ان ائتمنه وعرف له رأيه السيد وبراعته في ادارة الأمور وسلمه زمام الدولة . ولم يكن لابن جهور أن يخطئ في نظره لما اشتهر به نفسه من سداد الرأي وصحته ، فاذا نال ابن زيدون مكانة في نفس ابن جهور فقد كان ذلك عن جدارة واستحقاق . ولكن أعداءه تمكنوا من ابن جهور فنضب عليه وأمر بسجنه ، فأثار هذا السجن من نفس ابن زيدون عاصفة فنية جديدة رقت من خياله الشعري أثارتها آلامه فأخذ يئن أيننا جميلاً ويفتن في آلامه ووصفها والتعبير عنهما مرة شعراً ومرة نثراً ... والفني يمزج فنه دائماً بكل ما يرى ويسمع ويشعر . ولقد كانت نفس ابن زيدون من النفوس الدقيقة الادراك ، التي اذا أنت تئن أين الموسيقى ، واذا شككت تشكو شكاة القلوب المملوءة شعوراً

الواسعة التصور والادراك الدقيق الجميل، الذي يجعل الشكوى جميلة والكلام فيها جميلا .

كتب ابن زيدون من السجن الى صديقه ابي حفص . ان برد يشكو وين من بلواه ، وهو ينهضه الأمل مرة ويقعده اليأس أخرى . ولا يترك شاردة تمر بخاطره الا أهدأ بها نفسه وتسلى بها عن آلامه . يستسلم أحيانا الى القضاء فيشعر في نفسه براحة واطمئنان ، ويقلب أمامه صفحات الايام فلا يعجب من الحوادث التي أمت به . ويرجع الى صديقه فيسليه هو بنفسه ، ويسأله ألا يكف عن مجونه وتسليته ، لان السعادة خلصة . ثم يعود فيذكر اعداءه وييلهم منه ويبين ان ذلك ليس بالعجب لانه

ان قسا الدهر فالمناء من الصخر ابجاس

وبرى انه حسد لمكاته ، ويمزج ذلك بالعبير والحكم والسخرية والتهمك من أحوال العالم وحوادث الحياة ، ويرجع أئينه وألمه وحقده على الناس ولا سيما حاسديه ، ويضرب المثل كي يسكن من نفسه ، وهو في ذلك كعادته في الشكوى : يهبط مرة الى الدرك الأسفل من اليأس ، ويرتفع أخرى الى ذروة الرجاء ، وكأنه في شجار مستمر بينه وبين نفسه وشعوره . كل هذه المعاني في أبيات قليلة بأسلوب جميل رقيق ، يكاد يلمح الانسان فيها خاطره المضطرب المتماوج . حيث يقول :

ما على ظنيّ باسُ . يجرحُ الدهرُ . ويأسوا^١
ربما أشرفَ بالمرءِ . على الآمالِ ياسُ
ولقد ينجيك اغفا^٢ ل^٣ ويرُدِّيك^٣ احتراسُ
والمحاذيرُ سهامُ^٢ والمقاديرُ قياسُ^٢
ولكم^٣ أجدي قعودُ^٣ ولكم^٣ أكدى التماسُ^٣
وكذا الحكم اذا ما عز ناس ذل ناس

١ . بداوى من آسى الجرح داواه ٢ قياس هنا جمع قوس ٣ اكدى بخل أو قل خيره

وبنسو الأيام أخيا	ف اسرارة ^٢ وحساس ^٣
فلبس الدنيا ولكن	مُتعة ذلك اللباس ^٤
يا أبا حفص وما سا	واك في فهم ايلس ^٥
من سنا رأيك لي في	غسق الخطب اقتباس ^٦
وودادى لك نص	لم يخالفه القياس ^٧
أنا حيران وللأم	ر وضوح والتباس ^٨
لا يكن عهدك ورداً	ان عهدى لك آس ^٩
وأدر ذكرى كأسا	ما امتطت كفك كأس ^{١٠}
ففسى أن يسمح الدهر	ر وقد طال الشمس ^{١١}
واغتم صفو الليالى	انما العيش اختلاس ^{١٢}
ما ترى في معشر حا	لوا عن العهد وخاسوا ^{١٣}
أذوب هامت بلحمى	فانتهاب وانتهاس ^{١٤}
كلهم يسأل عن حا	لى ولذئب اعتناس ^{١٥}
ان قسا الدهر فلما	ء من الصخر انبجاس ^{١٦}
ولئن أمسيت محبوسا	فلغيث احتباس ^{١٧}
ويفت المسك في التـر	ب فيوطى ويداس ^{١٨}

هذه نفحات القلوب ، وهذا هو الشعر الذى يستولى على النفس ويلهمها الحكمة والعبرة ، وهذا هو جمال القول . ليس ذلك لأنه مطرب مرقص بوزنه وقافيته . بل لأنه ساحر بمعانيه وجماله . كل معنى فيه تحتاج اليه النفس

١ مختلفون ٢ أشراف ٣ أدنياء ٤ العصيان ٥ غدروا ٦ مثل الانتهاش وهو الاكل بمقدم الاسنان ٧ تجسس

في مثل هذه المواقف . ولقد كانت هذه المعاني سائفة للنفس لأن الشاعر صادق في قوله ،
 معبر عن شعوره يرسم صورة من نفسه الحزينة المتألّمة . لهذا كان الشعر جميلاً .
 وقد بدأ قصيدة من قصائده في هذا بالفخر بنفسه ، وأمعن في ذلك ، وكأنا كان
 يبكي حظه ويندبه بهذا الاسلوب الفخرى . أو كأنما كل معنى من هذه المعاني كانت ،
 تهذا خاطره وتريح نفسه . فلما مدح ابن جهور مدحه في قالب استعطاف ،
 وتوسط بين المدح الخالص والعتب الجدى . وقد ظهر بنفسه كبيرة وأنف أشم
 حتى أنه مدح نفسه أكثر من ابن جهور ، فكان عاتياً أشد منه مادحاً ، لانه
 كثيراً ما كان في مثل هذا الموقف لا ينسى الفخر بنفسه ، ولا يريد أن يعل
 عليها ولو همساً انه في موقف مندلة . وكأنه كان يتسلى بهذا ، لانه يرى ان أعداؤه
 لم ينالوا منه الا لأنه فاقهم بعلمه وفضله . حتى انه قال متهاكماً .

ولو أنى أسطيع كي أرضى العدا شريت ببعض العلم حظاً من الجهل

قَالَ:

و يطلب ثأرى البرق منصلت النصل	ألم يأن أن يبك الغمام على مشلى
لتندب في الآفاق ماضع من نبلى	وهلا أقامت أنجم الليل مائماً
لألتقت بأيدي الذل لما رأت ذلى	فلو أنصفتنى وهى أشكال همتى
لقد قرطست بالنبل في مقتل النبل ^١	لعمرو الليلالى ان يكس طال عمرها
لسارحة في عرض امنية عطل ^٢	تحلت بآدابى وان مآربى
يبيت لدى الفهم الزمان على ذحل ^٣	اخص لفهمى بالقلى وكأنا
مفصلة السططين بالمنطق الفصل	وأجنى على نظى لكل قلادة

١ النبل بفتح النون السهم وبضمها الشرف ٢ لا فائدة فيها من عطلت المرأة اذا خلا
 حيدها من القلائد ٣ الذحل الحقد

ولو أنى أستطيع كي أرضى العدا شريت ببعض العلم حظاً من الجهل
وان رجأتى فى الأمام ابن جهور لمستحكم الاسباب مستحصد الفتل
كريم عريق فى الكرام وقلما يرى الفرع الاستمداداً من الأصل
يرف على التأميل لألاً بشره كما رف لألاً الحسام على الصقل
ويغنى عن المدح اكتفاء بسروه^١ غنى المقلة الحكلاء عن زينة الكحل
أبا الحزم أنى فى عتابك مائل الى جانب تأوى اليه الملا سهل
حامم شكوى صبحتك هوادلا تناديك من أفنان آدابى الهدل

وكل قصائده التي أرسلها يستعطف بها ابن جهوره أثر ذلك الشقاء الذى لقيه
فى سجنه ، وصوره من صور البؤس الذى حرك شعوره وفتق من لسانه ، وأثار
فى نفسه عواطفه الشعرية المظلمة المملوءة همماً وغماً .

ولكن أسلوبه فى الشكوى والاستعطاف واحد فى نظمه ونثره . وما أشبه قصائده
فى ذلك وما فيها من المعانى برسائله الجديدة . وكأنما كان فكره سجيناً مثله من شدة
تألمه فى السجن ، فانه لم يخرج عن عادته فى ضرب الأمثال والفخر بنفسه ، وانه
أفضل انسان وأكرم من دب على وجه الارض .

غير أن كلامه مع ذلك عذب المذاق ، رقيق الحاشية ، جذاب خلاب ، تظهر
عليه سيما الابتكار والصدق فى التعبير ، فانه ليس من الخيالات الشعرية الصرفة
بل به كثير من الحقائق التي كان يملها عليه شعوره كما قال :

ماجال بعدك لحظى فى سنا القمر الا ذكرتك ذكر العين بالأثر
ولا استطلت ذمأ^٢ الليل من أسف الا على ليلة سرت مع القصر
الى أن قال :

١ رفته وعلو شأه ٢ الذمأ بقية الروح يريد مابقى من الليل

فهمت معنى الهوى من وحى طرفك لى
 لم يسأل الناس عن حال يشاهدها
 محض العيان الذى يغنى عن الخبر
 لم تطو يرد شبابه كسبرة وأرى
 برق المشيب اعنتى فى عارض الشعر
 وللشيبية غصن غير مهتصر
 والرزايا لقد شافته منهلها
 غمراً^٢ فما اشرب المكروه بالغمير^٣
 أى معنى الأمانى ضايح الخطر
 لا يهني الشامت المرتاح خاطره
 أم الكسوف لغير الشمس والقمر
 هل الرياح بنجم الأرض عاصفة
 ان طال فى السجن المداعى فلا عجب
 قد يودع الجفن حد الصارم الذكور^٤
 وان يثبط أبا الحزم الرضى قدر
 عن كشف ضرى فلا عتب على القدر
 من لم أزل من تأليه على ثقة
 ولم أبت من تجنبه على حذر

وكتب الى أحد أصدقائه وهو مخنف بقرطبة بعد قراره من السجن فقال
 «... وبلغنى أنك أحد اللائمين لى، ومن أمثالهم: ويل للشجى من الخلي^٥
 وهان على الأملس ملاقى الدبر^٦. وعلمت ان العاجز من لا يستبد، فالمرء يعجز
 لا محالة. ولم أستجز أن أكون ثالث الأذلين، العير والوتد، وتذكرت أن
 الفرار من الظلم والهرب مما لا يطاق من سنن المرسلين، وقد قال تعالى على لسان
 موسى: ففرت منكم لما خفتكم. فنظرت فى مفارقة الوطن، فقد يما ضاع الفاضل
 فى وطنه، وكسد العلق^٧ فى معدنه. كما قال:

أضيع فى معشري وكم بلد يكون عود الكيباء^٨ من حطبه
 فاستخرت الله فى انفاذ العزم. وأنا الآن حيث أمنت بمض الأمن، الا ان

١ قريب ٢ الغمر الكثير ٣ الغمر قدح صغير يريد انه كثير البلوى؛ سيف ذكر
 حاد ٥ الشجى المشغول ٦ مثل يضرب فى سوء اهتمام الرجل بشأن أخيه والدبر الذى فى
 ظهره قرحة والأملس صحيح الظهر ٧ العلق النفيس ٨ الكيباء العود المتبخرة

الغنى لم يرتفع، ومادة البنى لم تنقطع .

شحطنا وما بالدار نأى ولا شحط
أحبابنا ألوت بجادث عهدنا
لعمركم ان الزمان الذى قضى
وأما الكرى منم أزرکم فهاجر
وشط بمن نهوى المزار وما شطوا
حوادث لا عهد عليها ولا شرط
بشت جميع الشمل منا لمشتط
زيارته غب والمامه فرط
الى ان قال :

هرمت وما للشيب وخط بمفرق
وطاول سوء الحال نفسى فاذ كرت
وإني لراج أن تعود كبدئها
وحلم امرى، تعفى الذنوب لعفوه
فمالك لا تختصني بشفاعه
ولكن لشيب الهم فى كبدى وخط
من الروضة الغناء طاولها القحط
لى الشيمة الزهراء وانطلق السبب^١
وتمحى الخطايا مثل ما محى الخط
يلوح على دهرى ليمسها علط^٢

الى آخر ما قال فى هذه القصيدة التى هى من أبداع قصائد الشكوى وأجمعها لذكر
الماضى والحاضر والاستغفار والاستعطاف ، والسرور بذكر ما اتقضى والبكاء
على الحاضر ، وهى أيضاً أظهر فى لهجتها الجديدة من كثير من شعره . ولذلك
كانت أجف فى أسلوبها ومعانيها ، ليس بها تلك الرقة المعهودة فى كلامه .
كل ذلك هاجه السجن وما تذوقه من الآلام ، فرسمه فى شعره . لأنه رجل
فنى عرف كيف يصور ما يشعر به ويعبر عما يجول بخاطره .

ولقد يلاحظ الانسان أن آراء ابن زيدون آراء عامة ليست ناشئة عن تفكير

١ يريد الخلق الكريم يقال رجل سبط اليدين كرمهما وسبط الجسم حسن القدر فهى من
صفات المدح ٢ الميسم أثر الحسن واللطط سواد يزين به الوجه

طويل أو علم واسع . واتما هو خيالياً أكثر منه مفكراً ، وشاعراً أكثر منه عالماً .
وهذه كل حال شعره ونثره .

أما مدحه ورثؤه فهما في الدرجة الاخيرة من شعره ، لانه على جمال أسلوبه
في ذلك ، وحسن تصرفه في المعاني ، لا يكاد يعثر الانسان فيه على ممي جديد ولا رأى
خاص ، بل يكاد يكون كل ما جاء من المعاني من قبيل معارضة غيره من الشعراء
والاخذ بما يهيمهم ممزوجاً ذلك بما له من البراعة والصناعة والافتنان .

ومن أجمل قصائده في ذلك كلامه في المعتضد بن عباد وابنه المعتمد^١
ومن أرق كلامه في الشكوى ، وأقرب عباراته وصولاً الى القلوب بكأوه
على الماضي ، والتلذذ بذكره وما كان فيه من النعيم كقوله :

الهوى في طلوع تلك النجوم والمنى في هبوب ذلك النسيم
سراً عيشنا الرقيق الحواشي لو يدوم السرور للستديم
وطراً ما تقضى الى أن تقضى زمن ما زمامه بالذميم
أيها المؤذنى بظلم الليالى ليس يومى بواحد من ظلوم
ولقد كان ينظر الى أيامه الماضية فيحن اليها حنيناً مؤلماً ، فاذا قرأت
شعره في ذلك رأيت نفسك كأنك واقف على أطلال سعادته البالية ، فبكي
وبكيت معه . كما قال :

ألا هل الى الزهراء أوبة نازح تقضت مباينها مدايمه نزحاً
مقاصير ملك أشرفت جنباتها نخلنا العشاء الجون^٣ أثناءها صباحاً
يمثل قرطبيها لى الوهم جهرة فقبتها فالكوكب الرحب فالسطحاً

١ راجع قصيدته التي يرثي بها المعتضد ويمدح المعتمد ابنه في نفع الطيب طبع أوروبا
ج ٢ صفحة ٦١٤ ٣ الجون يطلق على الأبيض والأسود والفرس منه الأسود

محل ارتياح يُذكر الخلدَ طيبُهُ
هناك الحمام الورق^١ تندى خفافها
نعوضت من شدة القيان^٢ خلاها
ومن حملى الكأس المندى مديرها
إذا عزت أن يمسى الفتى فيه أو يضحى
ظلال عهدت الدهر فيها قى سمحا
صدى فلوات قد أطار الكرى صباحا
تقحم أهوال حملت لها الرمحا

١ التى فى لونها يابض ممزوج بسواد ٢ الجوارى

الغزل في شعر ابن زيدون

يتبين من أحوال الاجتماع في الأندلس، وميول النفوس واختلاط النساء بالرجال، واندماج كثير من الأديبات في مجالس اللهو والطرب، ان المرأة شغلت جزءاً عظيماً من أوقات الرجال المفكرين، وملاّت رؤوسهم كما أن مجالس الشرب كان لها سلطان عظيم على نفوسهم. فكانت المرأة تحرك العواطف والشعور، والخر تدير العقول وتعملى عليها القول، وتفتح أمامها طرق التصور والخيال. والمعقول ثَمَلَةٌ بنشوة الغرام، والرؤوس مُثَقَلَةٌ بحرارة المدام، والناس لا يفوتهم الطرب، ولا يريدون أن يتواروا عنه لمَلَقته بنفوسهم، حتى في أشدّ المِحْن. فقد رأينا ان ابن زيدون كتب وهو في سجنه لصديقه أبي حفص بن برد يقول:

وأدر ذكركى كأساً ما امتطت كفك كأسُ

واغتم صفو الليالى أنما العيش اختلاس

وقع ابن زيدون في شرك ولادة بنت المستكفي بالله، وكانت خليعة ماجنة بارعة في الجلال أدبية شاعرة، ذات مكانة رفيعة بين الأديباء «تناضل الشعراء وتساجل الأديباء، وتفوق البرعاء... خرجت على نهاية في الأدب والظرف حضور شاهده، وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر. وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر، يعيش أهل الأدب الى ضوء غرتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها وسهولة حجابها وكثرة منتابها، تخلط ذلك بملو نصاب وكرم أنساب، وطهارة أبواب، على أنها أوجدت للقول فيها السبيل بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها...» وقالوا «إنها

كانت بالمغرب كلية بالمشرق ، الا أن هذه تزيد بمزية الحسن الفائق . وأما الأدب والشعر والنادرة وخفة الروح فلم تكن تقصر عنها . وكان لها صنعة في الغناء . وكان لها مجلس يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها، فيمرّ فيه من النادر وانشاد الشعر كثير لما اقتضاه عصرها وكانت من الأدب والظرف، وتمتيع السمع والظرف، بحيث تختلس القلوب والألباب ، وتعيد الشيب الى أخلاق الشباب « فنال ابن زيدون رضاها، ووقع من نفسها كما وقعت هي من نفسه ، حتى كتبت اليه تضرب له موعداً فقالت :

ترقب اذا جن الظلام زيارتي فاني رأيت الليل أكرم للسر
 وبني منك ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر
 قال أبو الوليد : « فلما طوى النهار نوره ، ونشر الليل نيره أقبلت بقدر
 كالقضيبي ، وردف كالكتيب ، وقد أطبقت نرجس المقل ، على ورد الخجل .
 فلنا الى روض مديح ، وظل سجسج ، قد قامت رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل
 أنهاره ، ودر الطل منشور ، ورحيق الراح مزورور . فلما شبنا نارها ، وأدركت
 منا ثأرها ، صرح كل منا بحبه وشكا ما بقلبه . . . وأنشدتها :

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك
 يقرع السن على أن لم يكن زاد في تلك الخطى اذ شيعك
 يأخا البدر سناء وسنا حفظ الله زمانا أظلمك
 ان يطل بعدك ليلي فلکم بت أشكو قصر الليل معك
 وكتبت اليه بعد ذلك تقول :
 الاهل لنا من بعد هذا التفرق سبيل فيشكو كل صب بما لقي
 الى ان قالت .

تمر الليالي لا أرى البين ينقضى ولا الصبر من ريق التشوق معتقى
 سقى الله أرضا قد غدت لك منزلا بكل سكب هاطل الوبل معتقى

لا تريد الآن أن نتكلم في العشق وأثره في النفس وما يوحيه من روائع القول وجمال الفكر حتى. عند عامة الناس ، فان تاريخ الانسانية حافل بجمادته . ولكننا نقول ان العشق في كلام العرب أو شعر الغزل كما يسمونه ، ليس من المسائل الهزلية . لأن الشعر الذي هو وحى النفوس وجمال الادراك الانساني ، أكثر ما يكون ظهوراً في التعبير عن الحب ، ووصف هذا الضعف الانساني الذي نسميه عشقاً ، . فان العشق ادراك أكبر مظاهر الجمال في الحياة . ومن لم يفتح قلبه يوماً ما ، لم يدرك أسرار الحياة ، ولم يرغب ظواهرها ولم يتسرب الى نفسه بصيص ضوء من جمال الكون . ان جمال مظاهر الحياة وأسرار النفوس في التآلف ، وكثير من آمال الناس في تلك الصلة النفسية . والعشق وما فيه من سعادة وجمال سر كامن في الشعر ، لأنه مصدر الشعر الخيالي الجميل . لذلك كان أجمل الشعر ما يكشف عن سر من أسرار النفوس ، ويفتح القلوب . ويظهر مكنونات الانسان وأخلاقه وآلامه وآماله .

ان النساء منبع من منابع الشعر . والشعراء مدينون لمن بأفضل الصفات لديهم وهي وصف شعور الناس . والشاعر الذي يشعر بالحب لا يتكلم عن نفسه فحسب ، وإنما يجمع آلام العشاق وأينهم فيتألم ويئن معهم . وليس أعذب من هذه الآلام ولا أحب للنفس من سماع هذا الأنين. ان الشاعر يصوغ بكلماته اهتزازات القلوب ورنات ما يجول بها من المعاني ويدفعها الى النفوس فتصبو اليها ، وينديها بين العشاق فيرى كل قلبه وكأنه ينظر في مرآة يرى فيها صورته . وذلك لا يكون الا في الشعر .

فاذا اخطأ العرب في امعائهم في هذا النوع والاكثر منه، فقد أخطأوا من جهة واحدة: وهي تكرار المعاني وتقليد بعضهم بعضاً في ذلك ، وظنهم أن كل

قلب يجب بشكل واحد، وان صلة الحب بمظاهر الجسم قوية متينة ، وان المعاني محصورة في ذلك .

ولكن ابن زيدون ليس من هؤلاء المقلدين ، بل من الذين كانوا يجولون جولات واسعة في الخيال ، فكان فنياً مبدعاً . رأيت شعراء الغرب كيف يطنبون في وصف الأمكنة التي اجتمعوا فيها مع صديقاتهم ، وهم يتخذون ذلك وسيلة لأمرين : الأول احياء ذكرى تلك الأيام والأمكنة وما فيها ، اذ كل شيء هناك كان يشهد حبهم ويعطف على عشقهم ، وتلك الأمكنة جميلة لانها احتوت عليهم ، والأضواء التي كانت تسطع عليهم والأشجار التي كانت تظلمهم ، والكواكب التي كانت تتجسس أخبارهم ، جديرة بأن لا تنسى ، لأنها أثر من آثار العشق .

الثاني ان الشاعر الفنى يفر من التكرار، ويعرف ان معاني العشق والحب سرعان ما تنفذ، فهو يتحايل على بث شيء من المعاني الأخرى التي لها صلة بذلك ، كي يتسنى له أن يجول في ميدان أوسع ليصل الى التعبير عن مراده ، أو يمنع العقول من أن يدركها الملل . فهو يستعين بذلك كما يستعين المصور الماهر بالألوان لاظهار الصورة التي يريد أن يبرزها . كذلك كان ابن زيدون من هؤلاء الفنيين أو قريباً منهم . فقد التجأ الى مدينة الزهراء الجميلة في أيام الربيع ، يريد أن يسلي نفسه ويخفف عنها من أثر حبه ولآدة ، فذكر في شعر أرسله اليها كل ما كان يحيط به اذ ذلك ، وأبدع أيما ابداع ، وافتن افئنانا عظيماً في ذلك . فقال :

انى ذكرك بالزهراء مشتاقا	والأفق طلق ووجه الأرض قدراقا
وللنسيم اعتلال في أصائله	كأنما رقى لي فاعتل إشفاقا
والروض عن مائه الفضى مبتسم	كما حلت عن اللبات أطواقا
يوم كأيام لذات لنا انصرفت	بننا لها حين تام الدهر سراقا
نلهوا بما يستميل العين من زهر	جال الندى فيه حتى مال أعناقا

كأن أعينه اذ عاينت أرقى بكت لما بي فجال الدمع رقرأقا
 ورد تألق في ضاحي منابيه فازداد منه الضحى في العين اشراقا
 سرى ينافحه نيلوفره عبق وسانن نبه منه الصبح أحداقا
 كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا اليك لم يعد عنها الصدر ان ضاقا
 لو كان وفي المنى في جمعنا بكم لكان من أكرم الأيام أخلاقا
 لا أسكن الله قلبا عن ذكركم فلم يطرح بجناح الشوق خفاقا
 لو شاء حلمي نسيم الريح حين هفا وأفاكم بفتى أضناه ملاقا
 كان التجازى بمحض الود من زمن ميدان أنس جرينا فيه اطلاقا
 فالآن أحمد ما كنا لعهدكم سلوتمو وبقينا نحن عشاقا

واذا كان لابن زيدون ميزة في شعره الغزلي فليس ذلك في ابتكار المعاني
 التي لم يسبق إليها؛ وإنما هي في طريقة تصويرها بعبارات تملك النفوس وتستولى
 على القلوب. وكان الانسان لم يقرأ مثلها ولم يسمع بما يشبهها لجودة الافتنان
 في التعبير و الأسلوب. كما في قوله :

اليك من الأنام غدا ارتياحي وأنت من الزمان مدى اقتراحي
 وما اعترضت هموم النفس الا ومن ذكراك رينحائي وراحي
 فديتك ان صبرى عنك صبرى لدى عطش عن الماء القراح
 ولي أمل لو الواشون كفوا لأطلع غرسه ثمر النجاح
 وأعجب كيف يغلبني عدو رضاك عليه من أمضى سلاحي
 ولما أن جلتك لي اختلاسا أكف الدهر للحين المتاح
 رأيت الشمس تطلع في نقاب وغصن البان يرفل في وشاح
 فلو أسطع طرت اليك شوقا وكيف يطير مقصوص الجناح

وحسبى أن تطالمك الأمانى بأفئك فى مساء أو صباح
 فتؤادى من أسى بك غير خال وقلبي من هوى لك غير صاح
 وان تهدي السلام الى شوقا ولو فى بمض أنفاس الرياح
 ولقد يسمع الانسان أئينه فى شعره ، ويرى نفسه الحزينة من خلال كلامه ،
 وكأته يرى تلك الحيرة وذلك القلق النفسى للذين يملآن نفوس المشاق ويمنعان
 عنهم راحة الحياة ولذاتها على أنه يلتذ لذكر محبوبته وتدوق الآلام فى سبيلها .
 فيقول :

متى أنبيك ماى يراحتى وعذابى
 متى ينوب لسانى فى شرحه عن كتابى
 الله يعلم أنى أصبحت فيك لماى
 فلا يلد منامى ولا يسوغ شرابى
 يافتنسة المتعزى وحجة المتصابى
 الشمس أنت توارت عن ناظرى بالحجاب
 ما البدر شف سناه على رقيق السحاب
 الا كوجهك لما أضاء تحت النقاب

ولقد بلغ درجة من التعبير يحمل بها القارئ على الاعتقاد بأنه مخلص كل
 الاخلاص فى حبه ، وأن حبه هذا هو كل أمنيته . وأنه يرى فى سبيل العشق ما
 لا يراه غيره ، ويهون عليه كل شيء فى سبيل ارضاء حبيبه حتى حياته . وهو
 يقول بهذا كما قال :

أنى تضيع عهدك أم كيف تخلف وعداك
 وقد رأنتك الامانى رضى فلم تتعدك

يأليت شعري وعندي ما ليس في الحب عندك
هل طال لي لك بعدى كطول ليلى بعدك
سكنى حياتى أهبها فلست أملك ردك
الدهر عبدى لما أصبحت في الحب عبدك

على أننا لابن زبدون من التصنع أحيانا فيما يقول لأنه كان كثيره
من الشعراء يعبر عن غير شعور، فان تمكنه من الصناعة كان يفتق لسانه بقول
الشعر . كما قالوا ان السلطان أمره ان يعارض قطعاً كان يغنى بها ، واستحسن
أحسانها ، فانشأ أبياتا كأنها صادرة من عاشق متميم، وضمنها مدح السلطان . فقال :

يقصّر قربك ليلى الطويلا ويشقى وصالك قلبى العليلا
وان عصفت منك ريح الصدود فقدت نسيم الحياة البليلا
كما أننى ان أطلت العثار ولم يبد عندى وجهاً جميلا
وجدت أبا القاسم الظافر الـ مؤيد بالله مولى مقيلا
لاقلامه فعل أسيافه يظل الصرير يبارى الصليلا

وفى بعض كلامه ، ما يدل على أنه كان يتصيد الالفاظ والمعانى التى قبلت فى
العشق ، فينظمها ويلبسها ثوبا جديداً وكأنها له ، وقد برع براعة عظيمة فى ذلك
كما قال :

ياغزالا أصارنى موثقا فى يد المحن
إبنى مذ هجرتنى لم أذق لذة الوسن
ليت حظى اشارة منك أو لحظة تعين
شافعى يامعندى فى الهوى وجهك الحسن
كنت خلوا من الهوى وأنا اليوم مرتين
كان سرى مكتما وهو الآن قد علن

ليس لى عنك مذهب فكأشئت لى فكن
وهو فى كل كلامه مبدع مجيد متفوق على غيره ، خفيف الروح عذب
الالفاظ سهل الأسلوب .
أما نوبته التى أرسل بها الى ولادة وبها كثيراً من شعوره وآرائه المختلفة .
فهى على شهرتها وجمالها ككل شعره ولذلك لم نذكرها

نثر ابن زيدون

اشتهر ابن زيدون برساليته الجديدة والهزلية . أما الأولى فهي التي كتبها في سجنه يستعطف بها ابن جهور ، وأما الرسالة الهزلية فكتبها على لسان ولادة يتهم على ابن عبدوس وينال منه لمشاركته في غرامه .

اشتهر ابن زيدون بهاتين الرسالتين لجودة أسلوبهما النادر المثال، ولاحتوائهما على كثير من الاسماء التاريخية والأمثال العربية، واقتباس أبيات من الشعر معروفة وقعت في صوغ الكلام وكأنها عملت من أجله، أو قيست على سمته . وليس من السهل معرفة الاقتباس وأمكنته ، ولا من الهين أن يخوض الانسان غمار الأدب الواسع ويسهل عليه الاختيار منه ، ويحفظ نفسه من الضلال في نواحيه ويميز بين الجيد وغيره، ويختار ما يناسب المقام ، ويكون ذلك مقبولاً لدى النفس ثم يصوغ ذلك كله في قالب واحد ويضم بعض أجزائه الى بعضها ويمخضه كما يمخض الزبد فلا يتنافر منه جزء مع آخر .

ان الكلام على هذا النحو لأصعب من الابتكار في التأليف المبتدأ ، وكما قرب الى القارئ الاسلوب وصعب عليه معرفة تأليفه ، شعر بسعة اطلاع الكاتب ، وأعجب به وكبرت في نفسه منزلته . وكما فاجأه اسم لم يكن يخاطر له ببال ، أو رأى كان بعيداً عن ذهنه ، أو تلميح الى قصة لا يظن أن تذكر في مثل هذا الكلام ، أو عبارة تحرك من نفسه حب الاستطلاع ، أو مثل "تمظ به ، أو ذكر رجل شهير يمجده ، أو نكتة تسر بها نفسه ، أو مسألة فنية يرتاح لها ويلتذ بذكرها ، زاد أعجابه بالكاتب وما كتب ، ورأى أن كل انسان

غير قادر على ذلك ، وان هذه صفة يمتاز بها الكاتب عن سواه . كل ذلك في نثر ابن زيدون رهو من دواعي الإعجاب بأسلوبه في رسائله . فقد عرف كيف يأتي في كتاباته بالتناسق في المعاني والألفاظ ، بل عرف أن يأتي بهذا التناسق في التأليف والجمع وكيف يتصيد كلام غيره ويرصفه رصفا جميلا ، كما أمكنه أن يرسم لنفسه منهجاً جمع فيه كل معلوماته ، واختار منها ما يناسب حاجته وموضوعه ، فكانت رسائله أنيقة جميلة ، وكان كالمهندس الماهر الذي يعرف كيف يجمع بين الحجر والحجر ، والمصور الفنان الذي يؤلف بين اللون واللون .

ولقد حاول ابن زيدون في رسالتيه الوصول الى غرضه ، فلم يدع وسيلة ما يجسم بها المعنى في نفس القارئ لتنهال عليه المعاني ويكون غرضه أوضح ، ورأيه أظهر ، الافعلها . فكل ما ذكره من الأمثلة المقتبسة والمعاني المختارة قصد به توضيح ما يريد .

ففي رسالته الجدبية أراد أن يستعطف ابن جهور ، ويبرئ نفسه مما اتهم به وينكل بأعدائه . فبدأ رسالته بالاستعطاف وهو يستدل نفسه تارة ، ويمدح ابن جهور ويظهر اخلاصه له ويتعلق اليه أخرى . ويعتذر عنه فيما وقع منه في حقه ، ثم يبين له شدة ألمه من شماتة أعدائه فقال :

« يامولاي وسيدى الذى ودادى له ، واعتمادى عليه ، واعتدادى به ، وامتدادى منه ، ومن أبقاه الله ماضى حد العزم ، وارى زند الأمل ، ثابت عهد النعمة . ان سلبتنى أعزك الله لباس نعمائك ، وعطلتنى من حلى ايناسك ، وأظلماتنى الى برود اسعافك ، ونفضت بى كف حياطتك ، وغضضت عنى طرف حمايتك ، بعد أن نظر الأعمى الى تأميلي لك ، وسمع الأصم ثنائى عليك ، وأحس الجمد باستحمادى اليك ، فلا غرو قد يَفْص الماء شاربهُ ، ويقتل الدواء المستشفى به ، ويؤتى الحذر من آمنه ، وتكون منية المتمنى فى أمنيته ، والحين قد يسبق جهد الحريص .

كل المصائب قد تمر على الفتى وتهون غير شماتة الاعداء
وأنى لأتجدد ، وأرى للشامتين أنى لريب الدهر لا أتضعض . فأقول: هل أنا
الأيدي أدمها سوارها ، وجبين عضّ به اكليله ، ومشرّفى ألقه بالارض
صاقله، وسمهريّ عرضه على النار منقفه ، وعبد ذهب به سيده مذهب الذى يقول
ققسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم»

ثم أخذ يتعلل بالأمال ، ويضرب فى ذلك الأمثال ، ليسلى نفسه ويهدئ
منها بعبارات شعرية يريد أن يؤثر بها فى نفس المرجو ، ويحمده على كل شيء ،
كما يحمده الله على السراء والضراء . فقال:

«هذا العتب محمود عواقبه، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلي ، وهذه النكبة سحابة
صيف عن قليل تتشع . ولن يريني من سيدي أن أبطأ سيّبه ، أو تأخر غير
ضنين غناؤه، فابطأ الدلاء فيضا أملؤها وأثقل السحائب مشيا أحفلها، وأنفع الحيا
ما صادف جدبا ، وأذ الشراب ما أصاب غليلا، ومع اليوم غد، ولكل أجل كتاب.
له الحمد على اهتباله، ولا عتب عليه فى اغتفاله

فإن يكن الفعل الذى ساء واحدا فأفعاله اللاتى سررن أوف»

ثم وقف موقف المدلة وكانما يسمع الانسان بكاءه فى كلامه ، واستصغر ذنبه
فى ساحة عفو سيده ، وفى جوار ما ارتكبه غيره من الذنوب الكبيرة ، فقال:

«وأعود فأقول: ما هذا الذنب الذى لم يسمه عفوك؟ والجهل الذى لم يأت من
ورائه حاكم؟ والتطاول الذى لم يستغرقه تطولك؟ والتحامل الذى لم يف به
احتمالك . ولا أخلو أن أكون بريئا فأين العدل؟ أو مسيئا فأين الفضل؟
الا يكن ذنب فعد لك واسع أو كان لي ذنب ففضلك أوسع

فهبني مسيئاً كالذي قلتَ طالباً قصاصاً فأين الأخذ يا عزم بالفضل
حنائيك . قد بلغ السيل الزبى، ونالني ما حسبي به وكفى، وما أراى الا لو أمرت
بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت، وقال لى نوح اركب معنا، فقلت ساوى الى
جبل يعصنى من الماء، وأمرتُ بيناء صرح لعلى اطلع الى إله موسى، وعكفت على
العجل ، واعتديت فى السبت ، وتعاطيت فعمرت ، وشربت من النهر الذى
ابتلى به جيوش طالوت»

والمعجب فى ذلك من حضور ذهنه وحدثه مما يدل على تيقظه
الشديد . ثم أخذ بعد ذلك يبرى نفسه ، ويعجب من سيده الذى يصنى
الى أعدائه ، على ما كان له من المنزلة التى لم تدفع عنه ذلك ، وأخذ يلوم ابن
جهور لوما لا يظهر الا من خلال عباراته ، لشدة تمكنه من تصرف
الكلام واحتراسه فيما يقول :

«فكيف ولا ذنب الأنيمة أهداها كاشحٌ ، ونبأ جاء به فاسق، وهم الهمّازون
المشاءون بنميم ، والواشون الذين لا يلبثون أن يصدعوا العصا ، والغواة الذين
لا يتركون أديهما صحيحا»

والله ما غششتك بعد النصيحة ، ولا انحرفت عنك بعد الصاغية اليك ، ولا
ناصبت لك بعد التشيع فيك، ولا أزمعت ياسا منك، مع ضمان تكفلت به الثقة
عنك ، وعهد أخذه حسن الظن عليك . ففيم عبث الجفاء بأذمتى، وعاث العقوق
فى موائى وتمسكن الضياع من وسائلى؟ ولم ضاقت مذاهبى وأكسدت مطالبى؟ وعلام
رضيت من المركب بالتعليق بل من الغنيمة بالاياب؟ وأنى غلبنى المغلب ونجرت على
العاجز الضعيف ، ولطمتنى غير ذات سوار؟ ومالك لم تمنع منى قبل ان افترس

وتدركنى ولما أمزق، أم كيف لا تتضرم جوامح الاكفاء حسدالى على الخصوص
بك ، وتتقطع أنفاس النظراء منافسة فى الكرامة عليك ؟ »

ثم ذكره باخلاصه له ، ومدحه اياه ، وأخذ يرجع الى استعطافه ويملقه
فقال :

« وقد زاننى رسم خدمتك ، وزهانى اسم نعمتك ، وأبليت البلاء الجليل فى
سماطك ، وقمت المقام المحمود فى بساطك

ألستُ الموالى فىكُ غرقصائد هي الأنجم اقتادت مع الليل أنجما
ثناء يُفطنُ الزوض منه منورا ضحى ويخال الوشى فيه مُمنمنا
وهل لبس الصباح الا بُرداً طرزته بفضائك؟ وتقلدت الجوزاء الا عقداً فصلته
بما ترك؟ واستملى الربيع الا ثناء ملائته فى محاسنك؟ وبث المسك الاحديثاً أذعته
فى محامدك؟ ما يوم حليلة بسر. وان كنت لم أ كسك سليبا، ولا حليتك عطلاً،
ولا وسعتك عُفلاً. بل وجدت أجراً وجصاً فبنيت، ومكان القول ذا سعة فقلت .
حاشالك أن أعد من العاملة الناصبة ، وأكون كالدبالة المنصوبة تضىء للناس
وهى تحترق ، فلك المثل الأعلى وهو بى وبك أولى . »

ثم جاءته عزة نفسه فانتقل نقلة أخرى ، فبين له أن مثله لا يصبر على الهوان
وأنه يستطيع فراقه وهجر بلده الى مكان آخر ، ويخاطر فى هجرته هذه بما عسى
أن يلاقى من الآلام مستأنساً بأدبه وفضله . فقال :

« ولمعرك ماجهلت أن صريح الرأى أن أتحول اذا بلغتنى الشمس ونبأى
المنزل، وأصفح عن المطامع التى تُقَطِّعُ أعناق الرجال، فلا استوطىء العجز، ولا أطمئن

الى الفرور . ومن الامثال المضروبة خامرى أمّ عامر . واني مع المعرفة بأن الجلا
سيّاً ، والنقطة مثلة

ومن ينترب عن قومه لم يزل يرى مصارع مظلوم مجرّاً ومسحبا
وتدفن منه الصالحات وان يسيء يكن مأساء النار من رأس ككبكبا

عارف أن الأدب الوطن لا يخشى فراقه ، والخليط لا يتوقع زيباله ، والنسيب
لا يخفى ، والجمال لا يخفى . ثم ما قران السعد للكواكب أبهى أثرا ، ولا أسنى خطرا
من اقتران غنى النفس به ، وانتظامها نسقا معه ، فان الخائز لها ، الضارب بسهم فيهما ،
وقليل ما هم ، أينا توجه ورد منهل بر ، وحط في جانب قبول ، وضوحك قبل انزال
رحله ، وأعطى حكم الصبي على أهله
وقيل له أهلا وسهلا ومرحبا فهذا مبيت صالح ومقبل

وكأنه شعر بأن هذا يدعو ابن جهور الى أن ينسى استعطافه لما يظن في
هذا الكلام من عجب ابن زيدون بنفسه . فأخذ يلفظ من حديثه ، ويسكن من
هياجه ، ويظهر تمسكه بجوار سيده لأنه أفضل شيء لديه في الحياة . فقال :
غير أن الوطن محبوب ، والمنشأ مألوف ، واللبيب يحن الى وطنه ، حنين
النجيب الى عطنه ، والكريم لا يجفو أرضا فيها قوابله ، ولا ينسى بلدة فيها مرضعه ،
قال الاول :

أحب بلاد الله ما بين منيع الى وسلي أن يصوب سحابها
بلادها حل الشباب تمانى وأول أرض مس جلدي تراها
هنا الى مغالتي بمقد جوارك ، ومنافستي بلحظة من قربك ، واعتقادي
أن الطمع في غيرك طبع ، والغنى ممن سواك عنا ، والبذل منك أعور ، والمعوض
لقاء ، وكل الصيد في جوف الفرا

وإذا نظرت الى أميرى زادنى ضنا به نظرى الى الامراء »

ثم أخذ يقوى أمله في اجابة طلبه، ويضرب الامثال في ذلك، ويمدح في جوار سيده بقوله :

« أعينك ونفسى من أن أشيم خُلْبًا وأستمطر جَهامًا، وأكرم غير مكرم، وأشكو شكوى الجريح الى العقبان والرخم، فما أبَسَسْتُ لك الالندر، وحركت لك الحوار الالئحن ، ونهبتك الا لأنام ، وسريت لك الا لأحمد الشرى لديك ، وانك ان سنيت عقد أمرى تيسر ، ومتى أعذرت في فك أسرى لم يتعذر، وعلمك محيط بأن المعروف ثمره النعمة ، والشفاعة زكاء المروءة ، وفضل الجاه يعود صدقة وإذا امرؤ أهدى اليك صنعة من جاهه فكأنها من ماله »

هذا أكثر ما في هذه الرسالة الجديدة . وأعظم ما فيها تأليفها الذى يرى من خلاله تلك النفس الحائرة المضطربة ، التى تهيج مرة وتسكن أخرى ، وتجد أحيانا ثم ترجع وتلين ، وكأنما الكاتب فى نزاع مستمر بين نفسه وأهوائه ، أو كأنه هو ونفسه قرنان : يشتد كل منهما عند ما يخاف قوة صاحبه

هذه صورة نفس ابن زيدون يراها القارىء اذا وقف على كئيب ونظر الى حركات نفسه وهو يكتب أو يفكر فى هذه الرسالة . يرى نفسه الأبية وهو يفخر بها ويظن أنه من أهل الفضل ، ويرى نفسه المتهكئة ، وهو يحسب ويعد الذنوب الكبيرة التى تستحق مثل عقوبته ، لا يريد أن يقول هذا ظلم ، ولكن يريد أن يقول هذا حق وخرق فى رأى . ويرى نفسه الكئيبة التى أخذتها الأكار فذلت وأخذت تستعطف وتستشفع وتملق . يرى الانسان كل ذلك فى هذه الرسالة . ومن هنا جمالها وابداعها . لا ما بها من الاسلوب البليغ أو العبارات المختارة لا غير ،

أما رسالته الثانية التي كتبها لابن عبدوس عن لسان ولادة . فقد دل فيها على اطلاع واسع بالأمثال والأخبار ، وعلى باع أوسع في الهجاء . لأنه أقذع في ذم ابن عبدوس اقتداعا ، وتهكم به تهكما لامثيل له ، حتى انه ليخيل الى الانسان أنه جمع كل ما يمكن أن يقال في الذم والتهكم وأفرغه على ابن عبدوس واستعمل أسلوبا جميلا خلافا يدل على تمكنه من التصرف في الكلام ومعرفة امتلاكه عقول القراء ، لان هذه الرسالة على طولها وكثرة الاقتباس فيها ، الذي يستغرق أربعة أخماسها أو أكثر ، وعلى ما فيها من الأمثال المعروفة والايات المشهورة ، والاطناب في ذكر الاسماء التي يكفي منها القليل ، ليس فيها ما يدعو الى الملل ، ولا ما يشعر بالاستهجان والابتذال . على أن بها شيئا كثيرا من تلك العيوب ، فقد ذكر أكثر من خمسين اسما لمشهورى الرجال ، سردها سردا ، وكان يكفي عشرها ، وأكثر أيضا من صفات الذم مما كاد يكون ثرثرة ولغوا . ولكنه ستر كل ذلك ببراعته في الصناعة . وليس أدل على جفاء الطبع وغلظه من هذه الرسالة . فقد ابتدأها بسفاهة نادرة ولكنها سفاهة أدبية فنية فقال :

«أما بعد أيها المصاب بعقله . المورط بجهله . البين سقطه . الفاحش غلظه العائر في ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره . الساقط سقوط الدباب على الشراب . المتهافت تهافت الفراش على الشهاب . فان العجب أ كذب . ومعرفة المرء نفسه أصوب . وانك راسلتني مستهديا من صلتى ماصقرت منه أيدي أمثالك . متصديا من خلقتي لما قرعت دونه أنوف أشكالك . مرسلا خليلتك مرتادة ، مستعملا عشيقتك قوادة . كاذبا نفسك انك ستنزله عنها الى . وتخلف بعدها على»

ولست بأول ذى همة دعته لما ليس بالنائل
ولاشك أنها قلتك اذا لم تضن بك . وملتلك اذا لم تعز عليك . فانها أعذرت

في السفارة لك . وما قصرت في النياحة عنك . زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه .
والانسانية اسم أنت جسمه وهيولاه . حتى خيلت أن يوسف عليه السلام
حاسنك ففضضت منه . وأن امرأة العزيز رأتك فسلت عنه . وأن قارون أصاب
بعض ما كنزت . وكسرى حمل غاشيتك ، وقيصر رعى ماشيتك...»

وسار على هذا النحو وأكثر من ذكر هذه الاسماء . ثم أقذع في الدم وأفحش
في صفاته فقال :

« وهبالم تلاحظك بعين كليله عن عيوبك ملؤها حبيبها حسن فيها من تود .
وكانت انما حلتك بحلاك ، ووسمتك بسيمك . ولم تعرك شهادة... ولم تكن كاذبة فيما
أثنت به عليك ، فالعبدى تسمع به خير من أن تراه . هجين القَدال ، أرعن السَّبَال .
طويل العنق والعلاوة . مفرط اللحم والغباوة . جافى الطبع . سىء الجابة والسمع .
بغيبض الهيئة . سخييف الذهب والجيفة . ظاهر الوسواس . منتن الأنفاس .
كثير المعايب . مشهور المثالب . كلامك نممة . وحديثك غمغمة . وبيانك فقهية .
وضحكك قهقهة . ومشيك هرولة ، وغناك مسألة . ودينك زندقة . وعلمك مخرقة
مساو لو قسمن على الغوانى لما أمهرن الا بالطلاق »

واستمر على هذا النحو الى آخر الرسالة يضرب الأمثال للاستهزاء
والتهكم . ولقد كشف ابن زيدون في هذه الرسالة عن نفس حقودة محبة للانتقام
وانه شديد الحفيظة ، ودل على غلظة في طبعه ، وخشونة في أخلاقه . مع ذلك
فهي رسالة تمتاز بأسلوبها . وتناسق عباراتها . ولعل ابن زيدون أخذ هذا
الاسلوب عن الجاحظ في بعض رسائله ، كما في رسالة الترييع والتدوير

احمد ابن عبد ربه^(١)

عاش ابن عبد ربه في أيام نضارة دولة بني أمية في الأندلس ، زمن عبد الرحمن الناصر ، وكان أكرم الناس لديه ولدى وليّ عهده الحكم ، واشتهر ذكره بما كان له من العلم والفضل . تعلم في قرطبة قاعدة العلوم اذ ذلك . ودرس جميع الفنون العربية ، ولا سيما علوم الأدب ، حتى أصبح اماما فيها ، وكان محبا للاطلاع فصار أعلم أهل زمانه ، وأكثرهم معرفة بأداب العرب ولا سيما التاريخ والنوادر والملح . وكان في أول أمره ككل الادباء والظرفاء الذين يميلون الى اللهو فكان كثير من شعره في صباه شعراً رقيقاً غزلياً^٢ وقد رجع عن لهوه في شيخوخته وتاب عما فعله في أيامه الماضية . وقالوا انه عمل على أعاريض شعره الذي قاله في صباه أشعارا في الزهد وسماها المحصنات

١ هو احمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب كان جده من موالى هشام بن عبد الرحمن الداخل ثاني خلفاء بني أمية بالأندلس . ولد في سنة ٢٤٦ هـ وتوفي سنة ٣٢٨ هـ ودفن بقرطبة بعد أن عاش ٨٢ سنة . ذكره ابن خلكان في الجزء الاول . وياقوت الحموي في كتابه معجم الادباء في الجزء الثاني ، والضي في كتابه بنية المنتس صفحة ١٣٧ . وذكر في عدة مواضع من نفع الطيب ولا سيما في الجزء الثاني ، وفي الجزء الاول من يتيمة الدهر طائفة من شعره^٢ شهدته المتلبي بهذا . رووا في ذلك وذكره صاحب نفع الطيب في الجزء الثاني وياقوت في كتابه معجم الادباء جزء ثاني انه اجتمع مع أبي الطيب في مسجد عمرو بن العاص أحد الادباء ففاوضه قليلاً ثم قال له أنشدني للمليح الأندلس يعني ابن عبد ربه فأنشده :

ياؤواؤا يسبي العقول أنيقا ورشا بتعذيب القلوب رقيقا
مأان رأيت ولا سمعت بمشله دارا يعود من الحياء عقيقا
وإذا نظرت الى محاسن وجهه أبصرت وجهك في سناه غريقا
يا من تقطع خصره من رقعة ما بال قلبك لا يكون رقيقا
فلما أكل انشادها استمادها ثم صفق يديه وقال: يا ابن عبد ربه لقد تأتيتك العراق حيويا .

وقال عنه صاحب اليتيمة: «أحد محاسن الأندلس علماً وأدباً ونبلاً . وشعره في غاية الجزالة والحلاوة ، وعليه رونق البلاغة والطلاوة » وأورد له طائفة من شعره .
والحق ان مقطوعاته الشعرية في الغزل والوصف من أرق الشعر المعروف في ذلك وأحسنه . وأجمل شعره في هذا النوع ، وكل هذا من قبيل الصناعة وحب الكلام الجميل لأنه كان من الذين يميلون الى قول الشعر ونظم الكلام ، لا ممن خلقوا شعراء ، بل هو أديبا أكثر منه شاعراً . وإنما جاءه الشعر من كثرة حفظه واطلاعه وأمثالته بأقوال الشعراء . وكان بطبيعته ميالا الى الرقة ، فأنحدر الى قول الشعر الرقيق ، وأغرب بعض الاغراب فيه ككثير ممن يسميهم الأديباء شعراء . فهو رقيق الذوق حسن الديباجة

وكثير من كلامه أبيات قليلة تدل على انه كان شغوفاً بقول الشعر ولكنه شغف فني . حتى لقد يقول البيتين أو الثلاثة فيعرف كيف يختار الالفاظ والمعاني المرقصة ، وكأنما يشرب الانسان خمرأ لا يقرأ شعراً . أو كأنما انفتح أمامك منظر جميل ، أو لحظة من لحظات الحياة اللذيذة . أو كأن الكأس وما فيه والحبيب وجماله كل شيء في الحياة . كما قال :

اشرب على المنظر الأنيق وامزج بريق الحبيب ريق
واحلل وشاح الكمام رفقاً خوفاً على خصرها الرقيق
وقل لمن لام في التصابي خل قليلاً عن الطريق
وقد أجاد في هذا النوع من الغزل ، كقوله :

بزمام الهوى أمت اليه وبمحكم المقار أقضى عليه
بابي من زهي على بوجه كان يدمي لما نظرت اليه
كلما علني من الراح صرفاً علني بالرضاب من شفثيه

ناول الكأس واستمال بلحظ فسقتني عيناه قبل يديه
كذلك كان رقيقاً في شعره وميلاً الى الرقة في كل شيء ، والى الابتكار
في المعاني والأساليب . فقد قالوا عنه ، ورواه ابن بسام في « الذخيرة » وابن
خلدون « في مقدمته » : انه أول من سبق الى اختراع الموشحات .
ولقد كان يصف مواقف العشاق ومحادثتهم ويصور ذلك بشكل ساحر
خلاب وعبارات جذابة . كقوله :

ودعتني بزورة واعتناق ثم نادت متى يكون التلاق
وبدت لي فأشرق الصبح منها بين تلك الجيوب والاطواق
ياسقيم الجفون من غير سقم بين عينيك مصرع العشاق
ان يوم الفراق أفضح يوم ليتنى مت قبل يوم الفراق
وله قصائد طويلة في العقد الفريد .

وأفضل ما جاء به ابن عبد ربه، وعد من أجله أكبر أدباء الأندلس، كتابه
الشهير «العقد الفريد» الذي هو من أمهات كتب الأدب العربية، وهو كتاب
فد بين هذه الكتب جرى في تأليفه على أسلوب لم يسبق اليه . وهو تقسيمه
الى عقود وجواهر ، خص كلا منها بكلام في موضوع خاص واستوعب هذه
الموضوعات بقدر ما سمحت له مباحثه، فجاء كتابا وافيالمن يريد أن يطلع على ما قيل
في الأدب العربي : من أخبار وقصص ورسائل وكل أنواع النثر والشعر : من
كلام الأعراب والمستعربين . ومن رسائل أدبية وفنية ، وكلام في السياسة
والملك والوعظ والفكاهات والحكم والنوادر . ونقل شيئا عن بعض الامم
الأخرى مما كان معروفا في كتب الجاحظ وغيرها . وأودعه كثيراً من
كلامه . وهو مع هذا كتاب سهل خفيف الروح جم الفائدة ، أسهل تناولا من

غيره وأدل في جلته على أدب صاحبه ورقة ذوقه في الاختيار. وفي هذا الكتاب من مسائل التاريخ ما ليس في غيره ، ويكفي الاطلاع عليه للوقوف على شيء عظيم من الأدب العربي وعقول العرب ونفسياتهم. ومعظم الكتاب ، أوكله من مختار كلام الناس ، وقد ذكر المؤلف ذلك فقال :

«وقد ألفت هذا الكتاب وتخيرت جواهره من متخير جواهر الآداب ومحصول جوامع البيان، فكان جوهر الجواهر ولب اللباب. وإنما لي فيه الاختيار وحسن الاختصار . وفرش لدور كل كتاب وما سواه فما أخوذ من أفواه العلماء ، ومأثور عن الحكماء والأدباء . واختيار الكلام أصعب من تأليفه ... وقد نظرت في بعض الكتب الموضوعة فوجدتها غير متفرقة في فنون الأخبار، ولا جامعة لجل الآثار ، فجملت هذا الكتاب كافيًا جامعًا لأكثر المعاني التي تجري على أفواه العامة وتدور على السنين والملوك والسوقة، وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار في معانيها وتوافقها في مذاهبها . وقرنت بها غرائب من شعري ... »

وقد أخذوا على المؤلف انه لم يذكر شيئًا في كتابه عن أحوال بلاده ولا اقتبس فيه من أهل بلده . وقالوا ان الصاحب بن عباد سمع بكتاب العقد فلما حصل عليه وتأمله قال هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ظننت ان هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم وإنما هو يشتمل على أخبار بلادنا، لا حاجة لنا فيه ورده . وعابه في ذلك أبو علي الحسن محمد التميمي القيرواني صاحب الرسالة التي كتبها إلى أبي المغيرة بن حزم .

ابن دراج القسطلي^(١)

هو ابو عمر احمد بن ذرّاج القسطلّي . آدب أهل زمانه ، وأشهر من عرف في عصره بطلاقة اللسان وبلاغة الشعر . قال عنه الثعالبي في يتيمة الدهر: « بلغني أن القسطلّي كان عندهم بصقع الأندلس كالمتنبّي بصقع الشام »

ولد ابن درّاج سنة ٣٤٧ هـ وتوفي سنة ٤٢١ هـ وأدرك عز الدولة الأمويّة ، لانه ولد في آخر أيام عبد الرحمن الثالث وعاش في عصر الحكم ابنه ، ذلك العصر الذي بلغت فيه حضارة العرب منتهاها ، وفي عصر المنصور بن أبي عامر ، وكان كاتبه وشاعره وأكبر شعراء دولة بني عامر كما يقولون ، بل قالوا انه كان آخر شعراء هذا العصر المجتهدين . واشتهر ذكره في الشام والعراق^٢

كان ابن دراج يعيش بشعره ، فكانت صناعته قول الشعر ومدح الملوك . وناهيك بمن تكون هذه صناعته ، يفد على من يعرف ومن لا يعرف ، ويمدح كل الناس ويقول غير ما يعتقد . ولعل تهافته على المدح وتسايقه في هذا الميدان ووقوفه بين أيدي الملوك والأمراء هو الذي أكسبه هذه الشهرة . على أن عصره كان عصر الشعراء المداحين ، لأنّه مبدأ الاضطراب بخروج الأمر من يد بني أمية وتآلب الناس على دولة بني عامر ، والاشتغال بالدسائس . ذكر مؤرخ الأندلس

١ راجع ابن خلكان ج ١ والذخيرة ج ١ وفهرس الجزء الثاني من نفع الطيب طبع أوروبا وبقية المتنس ص ١٤٧

٢ ويقول فيه ابن بسام انه كان في وقته لسان الجزيرة شاعرا وآخر حامل لواء شعرائها ومدحه كثيرا وقال عنه ابن خلكان انه من جملة الشعراء المجيدين والعلماء المتقدمين وكان يجيد ما ينظم ويقول . وقال ان له ديوانا في جزئين

الشهير أبو حيان ابن دَرَّاج بقوله: « أبو عمر القَسْطَلِيّ سابق حلبة الشعراء العامرين ،
وخاتمة محاسن أهل الأندلس أجمعين ، كان ممن طوحت بهم تلك الفتنة الشنعاء
واضطرتة الى النجمة فاستقرأ ملوكها أجمعين ... يهز كلا بمدحه ، ويستعينه على
نكبته ، وليس منهم من يصنى له ، ولا يحفظ ما أضيع من حقه ، وأرخص من عقله
وهو يخبطهم بمقوله ، فيصون عنه . الى أن أناخ بساحة مندر بن
يحيى أمير سرقسطة فألقى عصا سيره عند ما بوأه ، ورحب به وأوسع قراه ولم
يزل عنده وعند ابنه بعده . »

أما شعره فهو في جلته شعر من يتردد على موائد الأدب ليتذوق من كل
لون طعماً ، ويجمع هذه الطعوم ليجعل له مائدة خاصة به يدعو اليها الآكلين
وكأنما يأكلون من مائدته . حتى ان بعض الباحثين استدل بقصيدته التي مدح
بها المنصور بن أبي عامر على تقليده الشعر القديم . ويقولون انه عارض بها قصيدة
أخرى في المدح على انه أجاد اجادة عظيمة في هذه القصيدة التي دلت على براعته
في التقليد . ولعله أراد أن يبين للمنصور انه أفضل ممن مدحه ذلك الشاعر ، وان
مادحه خير من مادح ذلك . والقصيدة في غاية السبك وحسن البيان ، وهي من
أجمل قصائده . تشبه الشعر القديم بما فيها من الروح البدوية التي تدل على أخلاق
العرب من الشهامة وصدق العزيمة ، وعزة النفس والجلد والصبر على الآلام ،
ومخاطبة النساء ووصف الوداع . حتى لقد يظهر من عباراتها انها من كلام أهل
البدو لثانة أسلوبها ونزعتها العربية الخالصة ، وكأنها صادرة من عربي يجوب القفار
وتقطع الضحارى أعناق مطايه . ويلفحه الهجير فيحرق وجهه . وتهب عليه
النكباء فيستنشقها وكأنه يستنشق الموت . ويتلظى حرارة الرمضاء بقدميه وكأنما
يطأ حطائر الجحيم . يقطع المفاوز طولاً وعرضاً . وكأنه في بحر يزخر . مياهه
الرمال وأمواجه السراب

يكاد يلمح الانسان من كلامه صورة متقنة الصنع لتلك الصحارى التى يسمع
 بذكراها، ويظن انه أمام منظر من تلك المناظر البعيدة الرهيبة. فإذا امتلأت نفسه
 من هيبة هذه القفار وهول الاسفار وهبوب الرياح ، سمع فى كلامه ما هناك
 من زفير الاسود وأصوات الحيوانات المفترسة وكأنه يرى الشاعر يعانى الخلاص
 من تلك الأهوال ويحاول الفرار ، من مخالب الموت الزوأم . ولم ينس وهو
 يخوض غمار هذه الأخطار وصف الكواكب فى هذا الليل البهيم والقصيدة هى :

ألم تعلمى أن الشواء هو التوى وأن بيوت العاجزين قبور
 تخوفنى طول السفار وانه لتقبيل كف العامرى سفير
 ذرىنى أرد ماء المفاوز آجنا الى حيث ماء المكرمات نيمر
 فان خطيرات المهالك ضمن لراكبها ان الجزاء خطير

ومنها فى وصف وداعه لزوجته وابنه الصغير

ولما تدانت للوداع وقد هفا بصبرى منه أنه زفير
 تناشدنى عهد المودة والهوى وفى المهدي مبعوم النداء صغير
 عيى بمرجوع الجواب ولفظه بموقع اهواء النفوس خبير
 تبوأ ممنوع القلوب ومهدت له أذرع محفوفة ونحور
 فكل مفدات الترائب مرضع وكل محياة المحاسن ظير
 عصيت شفيع النفس فيه وقادنى رواح لتداب السرى وبكور
 وطارجناح البين بي وهفت بها جوائح من دعر الفراق تطير
 لئن ودعت منى غيورا فاننى على عزمى فى شجوها لغيور
 ولو شاهدتنى والهواجر تلتظى على ورقراق السراب يمور

اسلط حر الهاجرات إذا سطا	على حروجهى والأصيل هجير
واستنشق النكباء وهى لوافح	واستوطى الرمضاء وهى تفور
وللموت فى عين الجبان تلون	والذعر فى سمع الجرىء صفير
لبان لها أنى من البين جازع	وأنى على مض الخطوب صبور
ولو بضربى والسرى جل عزمى	وجرسى لجنان الفلاة سمير
واعتسف الموماة فى عسق الدجى	وللاسد من غيل الضباب زئير
وقد حومت زهر النجوم كأنها	كواكب فى خضر الحدائق حور
ودارت نجوم القطب حتى كأنها	كؤوس مهى وآلى بهن مدير
وقد خيلت طرق الحجره انها	على مفرق الليل البهيم قدير
وقد أيقنت ان المنى طوع همى	وانى بعطف العامرى جدير

هذا فى جلته أسلوب عربى صميم، من أمثلة الشعر العربى الخالص من شوائب التكلف . ولكنه يدل على أن ابن درّاج لم يكن شاعراً فطرياً يقول الشعر عن شعور صحيح أو دافع نفسى، وإنما هو مقلد بارع، حتى فى المعانى التى لم تشعر بها نفسه، وفى وصف الامكنة التى لم يرها الا فى كلام الشعراء . فهو من الذين اتخذوا الشعر صناعة لفظية، وآلة من آلات الكلام ليمدح من يريد

ومما قاله فى قصيدة مدح يذكر فيها حضور صاعد اللغوى من بغداد الى

الأندلس قوله :

وأهدت لنا بغداد ديوان علمها	هدية من والى وتحفة من حيا
فكانت كمن حيا الرياض بزهرة	وأهدى الى صنعا من نسجها وشيا
ويبكي ملوك الأرض من كان مفخرا	إذا امثلوا من بعض أفعاله شيا
وحسب رواة العلم أن يتدارسوا	مآثره حفظا وآثاره وعيا

اذا لمعت زرق الأسننة حوله كاضرام بيران المهوم جواليا
 وقد لاذ أبطال الجلاذ بمطفه كما لاذ أطفال الجلاذ بمطفيا
 وما قصرت عنه رماح عداته كما قصرت عنهم رياش جناحيا
 فيالك من ذكرى سناء ورفعة اذا وضعوا في الترب أيمن شقيا
 وناحت ليالى الدهر منى ميتا بأخر أيام دفنت بها حيا
 وكان ضياعى حسرة وتندما اذا لم يفد شيئا ولم يفنى شيا
 وأصبحت فى دارالغنى عن ذوى الغنى وعورضت فاستقبلت أسعدبوميا
 فياعبرنى سحى لعلى مبلل بجريك ما انزفت من ماء خديا
 الى آخر ما قال

وقد أجاد فى أساليب المدح اجادة لا يقدر عليها الا من انقطع لها .
 فلقد تجده يمدح مدحا يحرك الاطماع ويدفع الممدوح الى الغرور، ويجعله يعتقد
 فى نفسه ما ليس أهلا له . وهو يتظاهر له بالتواضع والحمد والشكر ، ويجعله فوق كل
 انسان ، حتى كأنه ليس فى خلق الله من يدانيه أو يجاريه فى صفات الكمال .
 قال من كلام يمدح منذر بن يحيى :

فلئن تركت الليل فوقى داجيا فلقد لقيت الصبح بعدك زاهرا
 وحلت أرضا بدلت حصباؤها ذهبا يرف لناظرى وجورها
 ولتعلم الاملاك انى بعدها ألفيت كل الصيد فى جوف الفرا
 ورمى على رداه من دونهم ملك تخير للعلا فتجيرا
 ضربوا قبابهم على فعاذنى من كان بالقده الملى أنجدرا
 وكأنما تابعت تبع رافعا أعلامه ملكا يدين له الورى
 وحططت رحلى بين نادى حاتم أيام يقرى موسرا أو معسرا
 ولقيت زيد الخليل تحت عجاوجة يكسو غلائلها الجياد الضمرا

وأتميت بجدل وهو يرفع منبرا للدين والدنيا ويخفض منبرا
تلك البدور تتابعت وخلفتها سعيا فكنت الجوهر المتخيرا

كل هذا من الكلام السهل الجميل الذى تتسابق الى الاسماع رنته وحسن
سبكه . ولقد جعل ابن دراج كل أغراضه الشعرية المدح ، ولكنه ذكر فيه
كل خواطره وأفكاره ؛ وكأنه اتخذها وسيلة للتعبير عن آرائه التى لانخرج عن
الشكوى والحقد على الأيام وبعض الآراء المعروفة ، ولقد كان يتأثر بالحوادث ،
ونفسه توحى عليه بأخيلة مظلمة فيقول :

ومن دوننا آنسات الديار نهاب الحى موحشات الطول
مغانى السرور لبسن الحداد على لابسات ثياب الدهول
خطيبات خطب النهى والمهوز مهارى عليها رجال الرحيل
فمن حرة حلقت بالجلال وعنداء نصت بنص الزميل
ولا حلّى الا جمان الدموع تسيل على كل خد أسيل
فيبدلن من طول خفض النعيم بشق الحزون ووعث السهول
ومن قر الليل تحت الحجال بهول السرى تحت ليل طويل

وفد جرى فى وصفه على الطريقة الخيالية المعروفة عند شعراء العرب . كما وصف
أسطول المنصور بن أبى عامر . فقد كان يستطيع أن يتكلم عن عز الدولة ، وان
ذلك من آثار تقدمها، ومن وسائل حمايتها، ومن المسائل الحيوية لصيانتها، أو يذكر
شيئاً من الآراء الجديدة، أو الاجتماعية أو السياسية . ولكنه لم يقل شيئاً من
ذلك ولم يفكر فى هذا، وإنما كان يفكر فى مدح الأمير لا غير . ولو انه كان
مدفوعاً بشعور صحيح وأراد أن يمدح عمل الأسطول وهو يعتبره من آلات
الدفاع عن وطنه لكان له غير هذا الخيال . ولكنه قال :

تحمل منه البحر بجرا من القنا	يروع بها أمواجه ويهول
بكل معالات الشراع كأنها	وقد حملت أسد الحقائق غيل
إذا سابت شأو الرياح تخيلت	خيولا مدى فرسانهن خيول
محنائب تزجها الرياح فان وفت	أنافت بأجساد النعام فيول
ظباء سهام ما هنت مفاحص	وزرق حمام مما هن هديل
سوا كن في أوطانهن كأن سما	بها الموج حيث الراسيات تزول
كما رفع الآل الهوادج بالضحى	غداة استقلت بالخليط حمول
أراقم تفرى ناقع السم مالها	بما حملت دون الغداة مقيل

هذه نظرة تدل على أن ابن درّاج وإن لم يكن من الشعراء المبتكرين ، أو من أصحاب الصفات الشعرية الممتازة ، فهو بارع في صناعته متين ، في أسلوبه ، مادمح يجيد الاختيار في اللفظ والمعنى . وله قصائد كثيرة وبعض رسائل نثرية ، ذكرها صاحب الذخيرة في الجزء الأول . وكلها من باب الخيال ونقل معاني غيره في نظمه ونثره . ومع ذلك يحسبه الأديب من أكبر الشعراء .

المعتمد بن عباد^(١)

نشأ المعتمد في عز أبيه ، وترعرع في أبهة الملك ، وورث كثيراً من صفات والده . فقد كان أبوه نبيل الطبع شريف النفس ، شجاعاً ماهياً داهية في السياسة انسح الملك على يده ، وصارت دولته أكبر دولة اذ ذلك ، وكان مع هذا أديباً فاضلاً ، كريم الاخلاق فألقب الدهن حاضر الخاطر ، شاعراً رقيق النوق حسن

١ هو أبو القاسم محمد المتتمد على الله بن المعتض بالله بن عباد صاحب قرطبة وأشبيلية وأشهر ملوك الطوائف

ولد المعتمد سنة ٣٤١ هـ بمدينة باجة وتوفي في السجن بانغمات من بلاد البربر سنة ٤٨٨ هـ ويحل خبره في ذلك أنه تولى الامر والحال في اضطراب وشقاق ، والدولة في ضعف : فقد كان تابعاً للملك الافرنج يدفع اليه اتاوة سنوية : حتى طمع ذلك الملك في أخذ بلاد المعتمد وأبى قبول ضريبتها . وأرسل الى المعتمد رسولا ، فضرب المتتمد الرسول وقتل من معه ، فتاهب ملك الافرنج للاغارة على قرطبة . فلما علم كبار الناس اجتماعوا الى أحد القضاة هناك وتشاوروا فيما بينهم لينتقدوا بلادهم من شر العدو . واتفقوا على أن يستجدوا بملك مراكنس يوسف بن تاشفين ، وأخبروا المعتمد بذلك وبينوا له خطورة الحال فوافق على رأيهم وطلب من ذلك القاضي أن يذهب بنفسه لقضاء ذلك . فتوجه وقابل ابن تاشفين وأخبره بخبر المسلمين هناك ، فأرسل جيشاً الى الأندلس ، وتقابل هذا الجيش بجيش المعتمد بن عباد ثم تقابل جيش المسلمين بجيش الافرنج ، فانهزم الافرنج وفرملسكهم هاربا ، وقوى أمر المسلمين . وقد أبلى المعتمد في هذه الموقعة بلاء حسنا . وقاوم مقاومة الأبطال ، ولم يبال الموت حتى أنه أصيب بكثير من الجروح وهو ثابت ثبات الوائق بالظفر .

ولقد كان هذا لانتصار العظيم الذي سر به المعتمد بن عباد أعظم سرور في حياته من أكبر الأسباب لشقائه : لان يوسف بن تاشفين ذلك البربري طمع في بلاد الأندلس ولا سيما عند ما اطلع على ما هناك من الأموال والذخائر والبساتين وأصناف الاموال وأسباب الترف التي لم يرها في بلاده . وزاده طمعا في ذلك تزين حاشيته تلك البلاد وما فيها حتى كان يسيل لعابه عند ذكرها . واشتد به الطمع والحقد على المعتمد لما رأى من قوته هو وضعف ذلك واتهزت بطائفة هذه الفرصة فأوغر واصرده على

الاختيار طلى العبارة ، جميل الصورة بهيج الطلعة ، جذابا بهيئته وشكله، جواداً
كريمًا :

عاش المعتمد بن عباد فى هذه البيئة فأكتسب منها شيئاً كثيراً، ومال بطبعه
الى الأدب والمجون . فكان كأبيه فى كل صفاته . ولكنه كان أشمر منه
وأرق ذوقاً وأخف ظلاً ، وأحب للأدب من أبيه ، حتى قالوا انه لم يجتمع الأدياء
والشعراء عند أحد كما اجتمعوا عنده ، وناهيك بأمير شاعر من أفضل الشعراء
ديباجة ، وأرقهم ذوقاً ، وأحبهم الى مجالس الأدب . ألا يكون ذلك من
الأسباب التى تساعد على نمو الأدب ورقة الشعور والاهتمام بالأدياء ؟^١

وقد كان المعتمد يعيش عيشة ترّف وترف^٢ مبالاً لأن يصرف وقته فى
اللهو الأدبى ومجون الشعر ومجاراتة الشعراء فى قولهم . وكان يعجبه كثيراً
أن يكون شاعراً وأديباً بين هؤلاء الأدياء والشعراء ، ويجتهد فى أن يقول

المعتمد حتى عزم على الانتقام منه ، فحاصره وهو بأشيلية . ولما علم المعتمد بذلك أخذ يدافع
عن نفسه وبلده وجالد مجالدة لا تعرف . وأظهر من البسالة والشجاعة ما اشتهر به . ولكن
ماذا يعمل انسان رقيق أمام هؤلاء الاجلاف ؟ على أنه ألقى بنفسه الى الموت وهو
ثابت الجأش . والناس فى رعب وفزع يترامون فى الانهار من شرفات الاسوار ، الى أن
نزل القضاء بهذا البلد ودخلها البربر سالبين ناهبين آخذين كل شئ رأوه ووجدوه . وقبضوا
على المعتمد وأهله بعد أن نالوا من أسرته وحاصروا ولديه الأمون والراضى وقتلوهما وأرسل
المعتمد مقيداً مع أهله الى بلاد مراکش بعد أن شيعه أهل بلده ومحبه بالبكاء والنحيب
وأرسله ابن تاشفين الى مدينة الغمات وبقي فيها الى ان مات سنة ٤٨٨ هـ

١ راجع سؤاله عن كلمة مسهب فى نفع الطيب طبع أوربا جزء ثانى صفحة ٤٧٣
٢ قالوا انه أمر بصياغة غزال وهلال من ذهب فكان وزنها سبعمائة مثقال وأهداها
الى فتاتين . وحضر أبو العرب الصقلى عند المعتمد وقد حمل اليه حاملة وافرمة من قراريط الفضة
فأمر له بكيس منها وكان بين يديه تماثيل عنبر من جلتها جل مرصع بالذهب واللاكى فقال له
أبو العرب معرضاً ما يحمل هذين الكيسين الا جل فتبسم المعتمد وأمر له به فارتجبل شعراً فى
ذلك وقالوا ان هذا الجمل بيع بخمسمائة مثقال

الشعر فكان حبه لقول الشعر وميله الى ذلك من الأسباب التي جعلت شعره رقيقاً .

وكان صافي الذهن نقي الذوق ، شريف الطبع عليه مسحة من الجلال ، عذب الحديث اذا تكلم ، حسن الاختيار في نظم الألفاظ والمعاني ، فكان شعره في جلته رقيق الحاشية صادقا في معناه ، خاليا من التكلف ، أكثره مأخوذ من حوادث حياته :

فهو صورة من حياته وصفحة من صحفه اليومية . كانت تملئ عليه الحوادث فيقول ، وتدفعه ميوله أو توخزه آلامه فيفتق لسانه بقول الشعر الجميل الخالي من كل تصنع ، أو معنى ليس له أثر في نفسه، أو خيال لم ينشأ من شعور صحيح . فكان شعره أياماً من حياته يشمل أوقات سروره ولذاته وساعات محنته وبؤسه . وأجاد في كل ذلك اجادة تدعو الى الاعجاب بركة شعره ورقي خياله .

أما مجونه فلم يخرج فيه عن الوصف الجميل والأدب اللائق بمثله . يشعر الانسان عند تلاوته بحفة روحه وحسن ذوقه ، وبراعته في سهولة الكلام والتعبير عما يريد ، بدون تكلف وحسن في الصناعة وافتنان في التعبير . وهو كل جمال شعره وقد اكتسب أسلوبه من أساليب زمانه المعروفة عند أكثر الشعراء في حسن الوصف ودقته .

فقد كان حلوا الفكاهة في جميع أوقاته تشمله الخمر أحيانا فتزيد من رقة أدبه . ولقد كانت تنزل به عواطفه النفسية من عظمة جلاله فتحمله على مدح جواريه ، وبدبهته تملئ عليه جميل القول . فقد جاءت اليه جارية نسقيه وكان كلنا بها ، اذ لمع البرق فارتاعت فقال :

يزوعها البرق وفي كفها برق من القهوة لماع

كل ذلك كان له أثر عظيم في شعره . وإذا لم يكن المعتمد من كبار الشعراء الذين كانت صناعتهم الشعر وكل ميولهم في الحياة قول الشعر ، ولا من المكثرين ، فهو وجه من وجوه الأدباء ، وصورة من صور الشعراء الظرفاء عشاق الشعر والأدب . ودليل على ما وصلت إليه حال الأدب في تلك البلاد ، وعلى تأثير الحضارة في النفوس وتهذيبها الاخيلة والتصور، ورقة الشعور وجمال القول .

كما كتب الى أبي محمد المصرى يدعوه الى مجلسه :

أيها الصاحبُ الذي فارقتُ عيـ نى ونفسى منه السنا والسناء
نحن في المجلس الذي يهَبُّ الرا حة والسمع والغنى والغناء
تعاطى التي تُسَى من اللـ نة والرقّة الهوى والهواء
فأته تلف راححة ومجيا قد أعدا لك الحيا والحياء
وقال في ساق و ذكر ذلك صاحب قلائد العقيان بقوله :

انه دخل عليه في دار المزينة والزهر يحسد اشراق مجلسه ، والدر يحكي
انساق تأنسه ، وقد رددت الطير شدوها ، وجددت طربها وشجوها ، والفصون
قد التحفت بسندسها ، والأزهار تحي بطيب تنفسها ، والنسيم يلم بها فتضعه
بين أوجانها ، وتودعه أحاديث آذارها ونسيانها ، وبين يديه فتى من فتياته ، يقثنى
تثنى القضب ، ويحمل الكأس في راحة أبهى من الكف الخصيب ، وقد توشح
وكأن الثريا وشاحه ، وأنار فكان الصبح من محياه كان اتضاحه ، فكلمها فاوله
الكأس خامره سوره ، وتخيّل ان الشمس تهديه نوره ، فقال المعتمد :

لله ساق مهفّف غنّج قام ليسقى فجاء بالعجب
أهدى لنا من لطيف حكته في جامد الماء ذائب الذهب

وأما يؤسه وما ألم به في آخر حياته فقد وصفه وقد نالت منه الآلام وأذابت
مهجته، حتى لم يبق في نفسه بقية من الصبر، واستولى عليه الجزع، وكأنما ينظر إلى
عزه الماضي، وملكه الزائل فيمالكه اليأس، ويكاد يقضى على كل مافي نفسه من
شجاعة وبأس، وقد نحلته الضعف وملكه البكاء، وذابت نفسه حسرة على ما هو عليه
وما أصاب أهله وبنيه من الذل، حتى أصبحوا خدما لخدماهم، وقد كانت تذلل
لهم الجبابة، وتخدمهم خاصة الناس .

يصف ابن عباد ذلك في شعره ، وكأنك تراه في أشد ما يكون الرجل من
البؤس واليأس ، فلا يرجو الخلاص الا الى الموت . فقد بلغ من أمره ان أكرم
بناته دعاها الخال الى أن تطلب غزلا من الناس تسد بأجرته بعض مالها . فأدخل
عليها فيما أدخل غزل لبنت شُرطة أبيها . واتفق ان السيدة الكبرى أم بنيه
اعتلت وكان الوزير أبو العلاء زُهر بمرأ كش قد استدعاه ابن تاشفين لعلاجه ،
فطلب اليه المعتمد راغباً في علاج زوجته، فكتب اليه الوزير رسالة باجابة طلبه ،
ودعاه فيها بطول البقاء . فقال المعتمد في ذلك :

دَعَا لِي بِالْبَقَاءِ وَكَيْفَ يَهْوَى	أَسِيرٌ أَنْ يَطُولَ بِهِ الْبَقَاءُ
أَلَيْسَ الْمَوْتُ أَرْوَحَ مِنْ حَيَاةٍ	يَطُولُ عَلَى الشَّقِيِّ بِهَا الشَّقَاءُ
فَمَنْ يَكُ مِنْ هَوَاهُ لِقَاءِ حَبِيبٍ	فَإِنْ هَوَى مِنْ حَتْفِي اللَّقَاءُ
أُرْغَبُ أَنْ أَعِيشَ أَرَى بِنَاتِي	عَوَارِي قَدْ أَضْرَّتْ بِهَا الْحَفَاءُ
خَوَادِمَ بِنْتٍ مَنْ قَدْ كَانَ أَعْلَى	مَرَاتِبِهِ إِذَا يَبْدُو النَّدَاءُ
وَطَرْدِ النَّاسِ بَيْنَ يَدَيَّ مَمْرَى	وَكَفْهِمْ إِذَا غَصَّ الْفَنَاءُ
وَرَكْضٍ عَنْ يَمِينٍ أَوْ شِمَالٍ	لِنِظْمِ الْجَيْشِ أَنْ رَفَعَ اللَّوَاءُ
وَلَكِنْ الدَّعَاءُ إِذَا دَعَاهُ	ضَمِيرٌ خَالِصٌ نَفَعَ الدَّعَاءُ

جزيت أبا العلاء جزاء بر نوى يرا وصاحبك العلاء
سيسلى النفس عن ما فات على بأن الكل يدركه الفناء

ودخل عليه في سجنه بناته يوم عيد في أطمار بالية وحالة يؤس ، وكن يغزلن
للناس بالاجرة في اغمات . فلما رآهن المتمد في اطمار رثة شعر كأنما تمزقت
أحشاؤه وانصدع قلبه . فقال :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا فساءك العيد في اغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائمة يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
أفطرت في العيد لاعادت إساءته فكان فطرك للأ كباد تظفيرا
قد كان دهرك ان تأمره ممثلا فردك الدهر منهياً ومأمورا
من بات بعدك في ملك يسر به فانما بات بالأحلام مغرورا

وهكذا عرف كيف يصدع القلوب بكلامه، وكيف يفتح قلبه ليرى مكنوناته
وأن لنا كيف أن الآلام تدفع بالقلوب الى الكلام وتجسم المعاني. «دخل عليه
وهو في تلك الحال ولده أبو هاشم والقيود قد عضت بساقيه عض الأسود ،
والتوت عليه التواء الأساور السود ، وهو لا يطيق اعمال قدم ، ولا يريق دمعا
الا ممزوجا بدم ، بعد ما عهد نفسه فوق منبر وسرير ، وفي وسط جنة وحرير ،
تحقق عليه الألوية ، وتشرق منه الأندية ، فلما رآه بكى وقال :»

قيدى أما تعلمنى مساعا أبيت ان تُشْفِقِ أو ترحمًا
دمى شرابك لك واللحم قد أكلته لا تهشم الأظما
يبصرنى فيك أبو هاشم فينثنى والقلب قد هُشما

ارحم طُفِيلاً طائشاً لبُّه لم يخش أن يأميك مسترحماً
وارحم أُخَيَاتٍ له مثله جرعتهن السُّمَّ والعَلَقَمَا

أليست هذه نفس شاعر عرف كيف يعبر عما يجول في نفسه من المعاني ،
ويصف آلامه وصفاً قريباً من الحقيقة ؟ واستعان على ذلك بما رآه من البؤس
وآثاره الظاهرة . فذكر حالته وماهى عليه ، وذكر أولاده وما يعانونه ، ولم يلتجئ
الى الخيال ولا الى الاحلام . ولكن شعره جميل لأن الحقائق اذا ألبسها الشعراء
ديباجة الشعر أصبحت شعراً جميلاً . وليس الشعر الجميل الا حقائق شعرية .

ولقد كانت تملك ابن عباد عزة نفسه ورفعة شأنه ، فيستعذب هذه الآلام
ويفضل الاستئثار بها على الخضوع لعدوه ، وتملكه الشجاعة وكرم المحتد
فيستصغر كل شيء يلاقيه ، لأنه انما خرج الى القتال بهذه النفس التي يحملها
بدون أن يتحصن بشيء سوى قوة بأسه ، عالم بأنه سيوجد بها يوماً ما في موقف
يرى الموت فيه خيراً من الحياة . نظم ذلك كله بعبارة جميلة مؤثرة . فقال عند ما
أخذ أسيراً .

لما تماسكت الدموع وتنهنه القلبُ الصديق
قالوا الخضوع سياسة فليبد منك لهم خضوع
وأذ من طعم الخضوع على في السم النقيع
ان تستلب عني الدثنا ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
لم أستلب شرف الطبا ع أسلب الشرف الرفيع
قد رمت يوم نزالهم ألا تحصني الدروع
وبرزت ليس سوى القميص عن الحشا شيء دفع
وبذلت نفسي كي تسيل اذا يسيل بها النجيع

أجلى تأخر لم يكن بهوى ذلى والخشوع
شيمُ الأولى أنا منهمُ والأصلُ تتبعه الفروع
وله في الحنين الى شلب وقت ان كان يرتع في بجوحة العيش مع صديقه
ووزيره ابن عمار كلام سهل رقيق ، صادر عن قلب مقروح ، وقد فارقة ابن عمار
فأرسل اليه يقول :

ألا حىَّ أوطانى بشلب أبابكر وسلهن هل عهد الوصال كما أدرى
وسلم على قصر الشرا جيب عن فنى له ايدياً شوق الى ذلك القصر
منازل آساد وبيض نواعم فناهيك من غيل وناهيك من خدر
وكم ليلة قد بت أنعم جناحها بمخصبة الاردا ف مجدبة الخصر
وبيض وسمر فاعلات بمهجتى فعال الصفاح البيض والأسلُ السمر
وليل بسد النهر هوا قطعته بذات سوار مثل منعطف البدر
نضت بردها عن غصن بان منعم نضير كما انشق الكمام عن الزهر
ومما قاله وهو يبكي على نفسه :

قد كان كالتعبان رمحك في الورى ففدا عليك القيد كالتعبان
قلبي الى الرحمن يشكو بثه ما خاب من يشكو الى الرحمن
يا سائلاً عن شأنه ومكانه ما كان أغنى شأنه عن شأنى
هاتيك قينته وذلك قصره من بعد كل عزيمة رومية
من بعد أى مقاصر وقيان تحكي الحائم فى ذرى الأغصان

كذلك كانت حسرته على أيامه الماضية ، وحالته الحاضرة منعياً من منابع
شعره ، هو يتسلى عما ما يتذوق من الآلام . وليس فى البؤس معين غير الشكوى
ولا للمكوب ارتياح لخير أئينه ونظره الى أيامه الماضية ، والى تلك اللحظات التى
كان ينعم فيها ، فترتاح نفسه الى ذكرها ، فيشعر كأنه لا يزال فى نعيمها ولذاتها .

فلقد تكون ذكرى السعادة سعادة أخرى في أوقات البؤس، يتسلى بها البائس في
محنه ، فيرى انه كان وفيه الحظ فيها ، وان الدهر يومان ، فاذا كان يوم
السعادة قد انقضى فانه لا يزال يذكره . وهكذا تتناوبه الافكار فيستسلم للقضاء
وتخف آلامه وهو يتغنى بحوادث الايام

هذه حال ابن عباد في شعره الذي يبكي فيه ويندب حظه . كما في قوله :

غريب بأرض المغربين أسير سيبكي عليه منبر وسرير
وتندبه البيض الصوارم والقنا وينهل دمع بينهما غزير
مضى زمن والملك مستأنس به وأصبح منه اليوم وهو نفور
برأى من الدهر المضلل فاسد متى صلحت للصالحين دهور
أيا لست شعري هل أبيتن ليلة أمامي وخلق روضة وغدير
بمنبتة الزيتون موروثه العلا تغنى قيسان أو ترن طيور
بزاهرها السامي الذرى جاده الحيا تشير الثريا نحونا ونشير
ويلحظنا الزاهي وسعد سعوده غيورين والصب المحب غيور

ولقد كان كل خاطر يمر به وكل منظر يراه يذكره شيئاً من آلامه أو حنينه الى

أهله، فيفتق لسانه بقول الشعر الذي يمزق القلوب ويذيقها حسرة

ولما قتل المرابطون ابنه المأمون في قصر قرطبة وألقوا بجسده على الارض ،

ومالوا الى رندة حيث ابنه الثاني الراضى وقضوا عليه ، قال المعتمد يرثيها ، وقد

رأى قرية تنوح ، وأمامها وكر فيه طائران يرددان نغماً

بكت ان رأت الفين ضمها وكر مساء وقد أخنى على الفها الدهر

وناحت فباحت واستراحت بسرها وما نطقت حرفاً يبوح به سر

فقال لا أبكي؟ أم القلب صخرة
بكت واحداً لم يشجها غير فقدته
وكم صخرة في الأرض يجرى بها نهر
وأبكي لآلاف عديدهم كثر
بني صغير أو خليل موافق
يمزق ذا فقر ويفرق ذا بحر
ونجمان زين للزمان احتواهما
بقرطبة النكداء أو رندة القبر
عذرت إذا أن ضن جفتي بقطرة
وان لؤمت نفسي فصاحبها الصبر
فقل للنجوم الزهر تبكيهما معي
مثلهما فلتحزن الأتجم الزهر

هذا بعض ما في نفس المعتد بن عباد، وهذا بعض شعره المنبعث من قلبه المقروح. فكان شاعراً وجدانياً، ولكن وجدانه امتزج بالحقائق وحوادث الحياة. فكان شعره جميلاً له علقه بالقلوب، لأن الوجدان والحقيقة إذا تألفا في الشعر وامتزجا في ساحة الخيال، أظهرتا الحقيقة شعراً جميلاً، والشعر حقيقة مريثة في ثوب خيالي جميل.

الوزير بن عمار

كان ابن عمار في أول أمره فقيراً خامل الذكر ، فلم يرد أن يعيش عيشة العامة كغيره ، فقصده الى تلك السوق الرائجة ، سوق الأدب ، وروج فيها ، وكان أديباً يقول الشعر فأخذ يسأل بشعره ، وكان من الأذكياء كثير المجون كجميع الأدباء في ذلك العصر فانفتح له باب آخر في الشعر والخيال ، وقال في ذلك كما قال غيره ،

١ هو أبو بكر محمد بن عمار من أسرة يقولون أنها عربية الاصل وقد عاش الى سنة ٤٧٩ حيث قتلته المعتضد بن عباد بيده . ويظن أنه عمر ٥٠ عاماً
تأدب على بعض علماء قرطبة ككل الأدباء . لان رواج سوق الادب في تلك الايام وسهولة مواردها كانت تحمل أمثال ابن عمار على ورود ذلك المنهل . وقد أراد أن يعيش على متون القوافي ومصاريح القريض . فحمله ذلك على أن يجيد الشعر ، وكان بطبعه ميالاً الى ذلك فبلغ مبلغ غيره من مشهور دي الشعراء
وقد كانت حياته حياة حركة واضطراب : فقد كان في أول أمره يسأل بشعره ليعيش . ويتدعى الكبير والصغير ومدح الامير والصلوك طالباً عطايهم .

قالوا عنه . . . انه لم يزل يجول في الأندلس مسترفداً لا يتخص بمدحه الملوك دون غيرهم ، بل لا يبالي ممن أخذ ولا من مدح من ملك أو سوقة ، وأنه ورد في بعض سفرائه شلب لا يملك الا دابة لا يجيد علنها ، فكثب بشعر الى رجل من وجوه أهل السوق : فكان قدومه عند ذلك الرجل أن ملأ له الخجلة شعيراً ووجهها اليه ، فرآها ابن عمار من أجل الصلات وأسنى الجوائز . ثم اتفق أن علت حال ابن عمار وساعده الجد ونهض به البخت . وانتهى أمره الى أن ولاء المعتضد على الله مدينة شلب وأعمالها ، فدخل في موكب ضخمة وجملة عبيد وحشم ، وأظهر نخوة لم يظهرها المعتضد على الله حين دخلها أيام أيه المعتضد بالله . فكان أول شيء سأل عنه صاحبه . صاحب الخجلة . فقال ما صنع فلان اهو حي : قالوا نعم ، فأرسل اليه بمخلاته نفسها بعد أن ملأها دراهم وقال لرسوله قل لو ملأتها برأ ملأناها تبراً

وما زال ابن عمار على هذه الحال في كسب الاموال ، يدفعه الطمع الى السير في طريق الوصول الى مراكز العظمة فشحن من لسانه لانه هو السلاح الوحيد لديه . حتى علا ذكره بين الشعراء ، واشتهر في عالم الادب ، ومدح المعتضد بن عباد بقصيدة اعجب بها اعجاباً وجماله

حتى أخذوا عليه الامعان في المجون ، والادمان في الشرب ، فقال يدفع عن نفسه ذلك ويذكر ماآثرها

نقمتم على الراح أدمن شربها وقلتم قى راح وليس قى مجد
ومن ذا الذي قاد الجياد الى الوغى سوى ومن أعطى كثير ولم يكده
فديتكم لم تفهموا السر انما قليتكم جهدى فأبعدتكم جهدى

من أجل ذلك في جملة شعرائه . ومنذ ذلك الوقت اندمج في حاشية الامراء ، وخلق عن نفسه لباس البؤس . ثم اتصل بالمتعمد بالله بن المعتضد ، وكان شاباً أديباً يحب الشعر ويميل اليه فأجبه المتعمد لاتفاقه معه في البيوت والاهواء وفنون الادب والشعر والملاهي وانواع السرور . ولما تولى المتعمد ولاية شلب جعل ابن عمار وزيراً له هناك وترك له الحكم والأمر والنهي ، وهناك عاش مع المتعمد عيشة الاصدقاء وعيشة اللهو والطرب والمجون ؛ وقد كان مجلس الامير هناك مجتمع الادباء والشعراء الذين كانوا يملأون الجو لكثرتهم ، ولا يكاد يخلو مكان منهم وكانت مجالس الادباء هناك كل شيء في الحياة . فانغمس ابن عمار والمتعمد بن عباد في السرور واللهو انغمارا ، وصارا كأنهما شخص واحد ، حتى غاب ابن عمار المتعمد على أمره ، وملك منه كل شيء ، وساءت السمعة بينهما . فلما علم المتعمد بذلك فرق بينهما ، ونفى ابن عمار في أقاصي بلاد الأندلس ، وما زال في منفاه الى ان مات المعتضد وتولى الامر بعد أبيه المتعمد فدعا اليه ابن عمار واختص به . وامتزج به امتزاجاً لا يكون بين رجل وأقرب الناس اليه ، حتى لقد كانا ينمان أحياناً على وسادة واحدة . ولكن ابن عمار على الرغم من ذلك كان سعيه الظن غير مخلص في وده . فكان يتقرب من المتعمد الفتك به ، رغم إخلاصه له . وقد ولاه المتعمد ولاية شلب ثم لم يقدر على بعده فدعاه اليه واستوزره ، وكان معه كما كان جعفر البرمكي مع الرشيد وسلم له كل شيء في السياسة وأمر الدولة . حتى انه أصبح من قواد الجيش وانتصر على الاعداء في وقائع معروفة ، وكان له حيل في الخداع ومهارة في التغلب على غيره . ولما رأى علو أمره خطر له أن يستبد بالملك وأن يكون ملكاً ، فأراد أن يأخذ ببنسبة وملكها بعد أن فتحها ويخضع طاعة المتعمد ، ونسى كل ما كان بينهما ؛ ولكن لم يتمكن من ذلك . وبلغ المتعمد أمره فهرب ولجأ الى سرقسطة . فحافه هناك بنو هود . فأخرجوه . فالتجأ الى حصن ثم قبض عليه صاحب هذا الحصن وسجنه ثم بعث المتعمد من تسلمه ودخل ابن عمار قرطبة أشنع دخول على بقل بين عدلى تين وخرج الناس جيماً لرؤيته على هذا الحال ، بعد ان كان يهرع اليه الكبير والصغير لتقبيل يده . ولما مثل بين يدي المتعمد أخذ يمد أيديه عليه وابن عمار مطرق رأسه خجلاً . ثم أمر به فدخل أشبيلية على الحال التي دخل بها قرطبة . وسجن في غرفة في قصر المتعمد . ومنسند هذا الحين كتب قصائده الشهيرة في الاستمطاف حتى لان منها المتعمد ولكنه رجع عن عنوه وقتله بيده في السجن سنة ٤٧٩ هجرية .

مع ذلك فقد برع في المجون ، وكان شعره فيه أصدق منه في غيره
واجمل ديباجة وأسلوباً لأنه صادر عن شعور صادق . وله في ذلك خيالات
ومعان جميلة .

وقد كلف بالفناء ومجالسه ، وكلف الناس بحضوره لأنه كان حلواً للفكاهة
عذب الحديث ، يهرع الأدباء الى مجالسه ويسرون بحضوره . فقد روى ان
بعض الكتاب اصطبج يوماً والجو مسكي العوارف ، لازوردي المطارف ،
والروض أنيقة لباته ، رقيقة هباته ، والنور مبتل ، والنسيم معتل ، ومعه قومه ،
وقد راقبهم يومه ، وصلاته تصافح معتميه ، ومبراته تشافه موافيه ، والراح
تشعشع ، وماء الامان ينشع ، فكتب الى ابن عمار وهو ضيفه :

صَمانٌ على الأيام أن أبلغ المنى إذا كنت في ودي مسراومعلنا
فلو تسأل الأيام من هو مفرد بود ابن عمار لقلت لها أنا
فان حالت الأيام بيني وبينه فكيف يطيب العيش أو يحسن الفنا
فلما وصلت الرقعة اليه تأخر عن الوصول ، فقال أحد الحاضرين : اني
لأعجب من ابن عمار ، كيف قعد عن هذا المضمار ، مع ميله الى السماع ؟ فلما
كان من الغد ورد ابن عمار ومعه الجواب وهو :

هضرت لي الآمال طيبة الجنى	وسوغتني الأحوال مقبلة الدنيا
وألبستني النعمى أغض من الندى	واجمل من وشى الربيع وأحسنا
وكم ليلة أحظيتني بحضورها	فبت سميلاً للسناء وللسنا
اعلر نفسي بالمكارم والعلى	وأذنى وكفى بالفناء وبالغنى
مأقرون بالتمويل ذكرك كلما	تعاورت الأسماء غيرك والكُنَى
لأوسعتني قولاً وطولاً كلاهما	يطوق أعناقاً ويخرس ألسنا
وشرفتني من قطعة الروض بالى	تناثر فيها الطبع وردا وسوسنا

هذا كلام وجداني جميل ، يسوغ للنفس تذوقه ، لأنه طلى العبارة ، عذب سهل في لفظه ومعناه . مدح ولكنه ليس من المدح الجاف المقصور على ذكر الفضائل وجميل الأوصاف التي ربما لم يكن للمدوح حظ وافر فيها ، بل هو مدح مزوج بوصف جمال أوقات السرور والسعادة وآثار النعيم في النفوس وأثر النعمة على المنعم عليه . أو هو شكر يراد به المدح ، أو هو نوع من الافتنان في المدح وأساليبه

وكانت له خفة روح تظهر في كلامه ، وكأنه لا يبالي بما يقول ، ولا سباً إذا ذكرت الراح . فقد كان في حضرة الرشيد بن المعتمد فلما دارت الكأس وتمكن الأُنس ، وغنيت أصوات ، ذهب الطرب بابن عمار كل مذهب . فارتجبل يخاطب الرشيد .

ما ضر ان قيل اسحق وموصله ها أنت أنت وذى حصص واسحق
 أنت الرشيد فدع ما قد سمعت به وان تشابه أخلاق وأعراق
 لله درك داركها مشعشة واحضر بساقيك ما قامت بناساق
 هكذا كان يفعل السرور في رأس ابن عمار ، فكان لأثره في نفسه وشعره شيء كثير ، وكان شعره في اللهو والغزل من أحسن ما قيل في نوعه ، وان كانت مبانیه ككل المعاني ، الا ان له بهاء في أسلوبه ككل الشعراء الفتيين . ولقد يقول المعنى فيخيل اليك انه شيء جديد . كما قال يتغزل :

قالوا أضربك الهوى فأجبتهم يا حبيداه وحبذا اضراره
 قلبي هو اختار السقام لجسمه زياً نفلوه وما يختاره
 عبرتموني بالنحول وانما شرف المهند أن ترق شفاره
 من قد قلبي اذ تثنى قده وأقام عذرى اذ أطل عذاره
 أم من طوى الصبح المنير نقابه وأحاط بالليل البهيم خماره

أما مدحه، فله أسلوب خاص في تصور المعاني وترتيبها : يعرض صوراً مختلفة من الأخيصة التي كانت معروفة في الأندلس بعبارة سهلة رشيقة ، كما في قصيدته التي مدح بها المعتضد ، وهي تدل على مقدار ملكة الشعر وقوتها في نفسه ، وأنه شاعر بفطرته . يشعر بجمال القول، ويعرف كيف يصل الى اقتناص المعاني الجميلة ، ويضمها في أسلوب جميل ، وخيال جميل ، ورقة في الذوق ، وكأنك تقرأ كلاماً منشوراً لا شعراً منظوماً . أو كأنك تسمع نغمات الأوتار ، وأورنات القوافي أو حفيف الأشجار والنسيم يسحها ويملقها . أو أنك في روض فتفتحت فيه الأزهار ، ومالت عليك ظلال الأشجار ، أو كأنك ترى كتاباً مفتوحاً سطرت فيه حياة المعتضد أو مرآة تنعكس فيها أعماله ، أو مصوراً يرسم لك بالقلم والبيان لا بالريشة والألوان. كما قال :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى	والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره	لما استردّ الليل منا العنبرا
والروض كالحناء كساه زهره	وشيا وقلده نداءه جوهره
أو كالغلام زهى بورد رياضه	خجلا وتاه بأسهن معذرا
روض كأن النهر فيه معصم	صاف أطلّ على رداء أخضرا
وتهزه ريح الصبا فتخاله	سيف ابن عباد يبدد عسكرا
عباد المخضر نائل كفه	والجوّ قد لبس الرداء الاغبرا
علق الزمان الاخطر المهدي لنا	من ماله العلق النفيس الاخطرا
ملك اذا ازدحم الملوك بمورد	ونجاه لا يردون حتى يصدرا
أندى على الاكباد من قطر الندى	والذفي الاجفان من سنة الكرى
يختار اذ يهب الخريفة كاعبا	والطرف أجود والحسام مجوهره
قدّاح زبد المجد لا ينفك عن	نار الوغى الا الى نار القبرى

لاخلق أفرى من شفار حسامه
 أيقنت انى من ذراه بجنة
 وعلمت حقاً ان ربي مخصب
 من لا توازنه الجبال اذا احتبي
 ماض وصدر الريح يكهم والظبا
 قاد الكتاب كالقواكب فوقهم
 من كل أبيض قد تقلد أبيضاً
 ملك يروك خلقه أو خلقه
 أقسمت باسم الفضل حتى شتمته
 وجهلت معنى الجود حتى زرته
 فاح الثرى متعطراً بثناؤه
 وتووجت بالزهر صلح هضابه
 هصرت يدي غصن الندى من كفه
 حسبي على الصنع الذى أولاه أن
 يا أيها الملك الذى حاز المنى
 السيف أفصح من زياد خطبة
 ما زلت تغنى من عنى لك راجيا
 حتى حللت من الرياسة محجرا
 شقيت بسيفك أمة لم تعتقد
 أثرت ورحلت من رؤوس كتابهم
 وصبغت درعك من دماء ملوكهم
 عمقتها وشيا بذكرك مذهبها

ان كنت شبهت المواكب أسطرا
 لما سقاني من نداء الكوثر
 لما سألت به الغمام المطرا
 من لا تسابقه الرياح اذا جرى
 تنبوا وأيدى الخليل تعارف البرى

عضبا وأسمر قد تأبط أسمرا
 كالروض يحسن منظرا أو مخبرا
 فرأيت في بردية مصورا
 فقرأته في راحتيه مفسرا
 حتى حسبنا كل ترب عنبرا
 حتى ظننا كل هضب قيصرا
 وجنت به روض السرور منورا
 أسعى بجدة أو أموت فأعذرا
 وحباه منه بمثل حمدي أنورا
 في الحرب ان كانت يمينك منبرا
 نيلا وتفنى من عتا وتجبرا
 رحبا وضمت منك طرفا أحورا
 الا اليهود وان تسمت بربرا
 لما رأيت الفصن يعشق مشمرا
 لما علمت الحسن يلبس أحمرا
 وفتقتها مسكا بجمدك أذفرا

من ذا يناغنى وذكرك صنمك أوردته من نار فكري مجرا
فلئن وجدت نسيم حمدي عاطرا فلقد وجدت نسيم برك أعطرا
واليكها كالروض زارته الصبا وحنا عليه الطل حتى نورا
وكان ابن عمار يتخذ الشعر وسيلة للتعبير عن كل شيء ، فلم تكن تمر به
حادثة من الحوادث الا ذكرها في شعره . فكان اذا أراد أن يكتب للمعمد
كتب له شعرا ، واذا أراد أن يشكو ، شكافى شعره ، واذا أراد أن يذكر خبرا
ذكره في شعره . وكأما كان شعره صحيفة من صحفه اليومية .

ويخيل الى من يقرأ كلامه أن المعاني كانت تنهال عليه انهيارا ، أو أن الشعر
صقل لسانه وتمكن منه ، حتى أصبح لا يقول الا شعرا ، أو لا يقدر على التعبير الا
بنظم المعاني ، أو أن الشعر عنده كالنثر في سهولة التعبير . وأكثره خال من
الخيالات الشعرية ، ولكنه يحسب من صميم الشعر لأن به جمال الشعر : وهو
امتلاك النفوس بهذه العبارات السهلة ، واعجاب الانسان بزلاقة لسانه وتناسق
ديباجته . اذ ليس كل شعر خيالا ، وليست بهجة الشعر وصناعته محصورة في
الخيال : من تشبيه حسن أو كناية عجيبة أو مجاز غريب . فقد يكون الشعر معرفة
التعبير عما في النفس وكشف ما بها . وحسب الشاعر أن يصل بعبارته الى امتلاك
الاسماع واعجاب النفوس بقوله . وليس الشعر غير ذلك . كقوله :

أأسلك قصدا أم أعوج عن الركب فقد صرت من أمرى على مركب صعب
وأصبحت لأدري أفي البعد راحتي فأجعله حظي أم الحظ في القرب
إذا اقتدت في أمرى مشيت مع الهوى وان أتعبه تكصت على عقي
على اني أدري بأنك مؤثر على ككل حال مايزحزح من كربى
أهايك للحق الذى لك في دمي وأرجوك للحب الذى لك قلبي
أبظلم في وجهي لذا قر الدجى وتنبو بكفى صفحة الصارم العضب

حنانيك فيمن أنت شاهد نصحه وليس له غير اتصاحك من حسب
وما جئت شيئا فيه بنى لطالب يضاف به رأى الى العجز والمعجب
سوى أننى أسمتنى للمسة فقلت بها حدى وكسرت من قربى
وما أغرب الايام فيما قضت به تربى بمدى عنك آنس من قربى
أما انه لولا عوارفك التى جرت جريان الماء فى الغصن الرطب
لماسمت نفسى ما أسوم من الأذى ولا قلت ان الذنب فيما جرى ذنبى
سأستمنح الرحى لديك زراعة وأسأل سقيا من تجاوزك العذب

وكان لآلامه أثر عظيم فى شعره، فكانت قصائده فى استعطاف المعتمد وسيلة
من وسائل التعبير عن كل آرائه وخطرات نفسه. وليس أرق فى كلامه من
استعطافه ، ولا أشد أثرا فى النفس من كلامه حين تضيق فى وجهه الدنيا على
رحمها. فمن ذلك قوله للمعتمد

سجايك ان عافيت أندى وأسمح وعذرك ان عاقبت أجلى وأوضح
وان كان بين الخطين مزية فأنت الى الأذى من الله أجنح
حنانيك فى أخذى برأيك لاتطع 'عدائى وان أثنوا علىّ وأفصحوا
وما ذا عسى الاعداء أن يزيديوا سوى أن ذنبى واضح متصحح
نعم لى ذنب غير أن لخصه صفاة يزل الذنب عنهما فيسفح
وان رجائى ان عندك غير ما يخوض عدوى اليوم فيه ويمرح
ولم لا وقد أسلفت ودا وخدمة يكران فى ليل الخطايا فيصبح
وهبنى وقد أعقبت أعمال مفسد أما تفسد الأعمال ثمت تصلح
أقلنى بما بينى وبينك من رضا له نحو روح الله باب مفتح
وعف على آثار جرم جنيتسه بهبة رحى منك تمحو وتصفح

ولا تلتفت رأى الوشاة وقولهم
وما ذاك الا ما علمت فأنى
وقالوا سيجزيه فلان بفعله
ألا ان بطشا للمؤيد يتقى
وبين ضلوعى من هواه تميمية
سلام عليه كيف دار به الهوى
ويهنيه ان مت السلو فأنى
وقال يصف سجنه لصديق له وكأنما هي أنة من أئنه ، ولوعة من لوعاته ،

وهى من الشعر المطبوع :

أدرك أخاك ولو بقافية
فلقد تقاذفت الركاب به
طاحت صحابته بلا سنة
بمعارض أدت الى جرد
عال كأن الجن اذ مررت
وحش تناكرت الوجود به
قصر تمهد بين خافيتى
متحير سأل الوقار على
ملكك عنان الريح راحته
مأوى العزيز وقد نصحت فان
واصلت خدمة قاطع سبى
دع ذا وصلنا غير مؤتمر

كالظل يوقظ نائم الزهر
فى غير مومة ولا بحر
وتساقطوا سكرًا بلاخر
حتى من الأنواء والقطر
جعلته مرقاة الى النسر
حتى استربت بصفحة البدر
نسرين من فلك ومن وكر
عطفيه من كبر ومن كبر
فجياها من تحتها تجرى
يهمل فقد أبليت فى العذر
وأطعت أمر مضيع أمرى
مستأثرا بالحمد والشكر

وله مدائح كثيرة فى المعتضد وابنه كلها من جميل القول .

هذا شيء عن ابن عمار وهذه صورة من حياته وميوله النفسية ، يمكن بها معرفة مافي شعره من الرقة والمعاني الوجدانية ، وما له من السهولة في الأسلوب ولا سيما خلو كلامه من المعاني الجديدة أو الفلسفية أو الاجتماعية، فقد قصر كلامه على الوجدانيات في شكواه وبث آلامه. فليس هو من الشعراء المفكرين، ولا ممن كان للتربية العامية أثر في نفوسهم، وكأنه لم يطلع على شيء سوى أوزان الشعر وعبارات البلغاء . حتى امتلأت نفسه من ذلك ، ومال الى قول الشعر. فأصبح من أكبر الشعراء الوجدانيين

عبد الجليل بن وهبون^(١)

عاش عبد الجليل ابن وهبون في حاشية المعتمد بن عباد، ومر بتلك الأحوال التي مر بها ابن عمار وغيره . من مجون ولهو وطرب ، فكان له نصيب في ذلك . وقالوا عنه ما قالوا في غيره من حب اللهو والميل الى الغلمان . وذكروا له شعرا كثيرا في ذلك . وكأن كل نفسه كانت منصرفة لهذا ، وليس بعجيب أن ينغمس ابن وهبون في هذه البيئة لانه عاش فيها ، ولأن كل الناس كانوا على تلك الحال .

١ لم ننف على تاريخ مولده ولا تاريخ وفاته . ولكن عرف عصره الذي عاش فيه ورفاقه الذين عاشهم .

عاش ابن وهبون في عصر المعتمد بن عباد وكان من المقدمين في حضرته ، وصديقا للوزير ابن عمار . فهو اذاً من أهل القرن الخامس الهجرى ويقولون انه توفى في أوائل القرن السادس قبل سنة ٥٣٣ . هاجر من بلاده كورة تدمير واستقر بأشبيلية حيث عزة الملك والمال كانت في أوجها ، وسوق الادب والعلم رائجة ، وكان من أصحاب الرحلات والنقلة ، يقد على الملوك والامراء مع عزة في نفسه . فقد اجتاز مرة بالمرية وقد ملكها المعتصم بن صمادح فاهتزله وعرض عليه مالا وافرا فلم يقبل وكان اليوم عيداً فقال :

دنا العيد لو تدنو به كعبة المنى وركن المعالي من ذؤابة يعرب
فيا أسفا للشعر ترمى جواره وبأبمد ما بيني وبين المحصب

وقد صاحبه ابن عمار وأخلص له ورفع قدره وأكرمه . وسبب ذلك أن ابن وهبون لما قدم شبيلية قصد الاستاذ أبا الحجاج الاعلم مؤدب أولاد ابن عباد . وكان في نفس ابن وهبون أن يكون له بهذا الاتصال شيء من الرفعة . وعلق آمالا كثيرة على ذلك . وحدث أن مدح المعتمد بقصيدة من أحد كبار الشعراء الذين كان يستثقل ظلهم الاستاذ الأعلم ، وقالوا انه عرض في هذه القصيدة به . فعرضها على ابن وهبون وولاه أمر الرد عليها ، فقال في ذلك قصيدة سمعها فجن بها وطار بذكره ، وأعجب به . ولما علم المعتمد به أنزله منزلة عظيمة وقصره على هواه فلم يرحل الى ملك سواه . وبقي في حضرة المعتمد . ولما بدت الفتنة هناك خرج هاربا ثم تلاقى بعصبة وجيش من جيوش الأعداء فاستشهد على أيديهم .

ولكنه مزج بين الجد والهزل في شعره. فتراه تارة خليعا ماجنا ، حلوا الكلام عذب .
 العبارة ، منغمسا في ملاذ ومسراته انغماس الرجل الذي تسيره أهواؤه ، وكأنه
 لا ينظر الى الدنيا وما فيها غير نظر الما جنين . فاذا أتبتك خفة روحه ،
 وأفعمت نفسك سرورا من خلاعته ومجونه ، ونظرت نظرة أخرى الى شعره ،
 رأيت ينابيع الحكمة تنفجر من غضونه ، وظننت أنك تقرأ في كتاب حكمة
 وفلسفة ، لا في ديوان شعر وخيال ، أو كأنما تقرأ كلام شاعر حكيم ، بلسان عربي
 مبين ، أو انه نفحة من نفحات المعرى ، أو حكمة من حكم المتنبي
 لم يترب ابن وهيون تربية خاصة ، ولم يعش عيشة غير عيشة من كان معهم .
 ولكن آراءه ليست كأراء غيره ممن عاشوا معه ، بل ذلك شيء غير معروف
 عند أكثر شعراء الأندلس . فقد عهدنا الأندلسيين برعوا في نوع جميل
 من الخيال ورقة الاسلوب وجزالة اللفظ ، والأوصاف التي دعتمهم اليها آثار تلك
 المدنية الحديثة ولم يمهدها شعراء العرب . أما ابن وهيون فقد برع في نوع آخر وهو
 الشعر الفلسفي على انه لم يقصر في ذلك النوع ولم يتأخر عن السبق في هذا الميدان

١ فمارروا عنه انه ركب بأشبيلية زورقا في ليلة مظلمة مع جماعة كان بينهم غلام جميل بيده
 شمعتان . فقال ابن وهيون في ذلك :

أعجب بمنظر ليلة ليلاء تحيا بها اللذات فوق الماء
 في زورق يزهي بفرقة أعيد يختال مثل البانة العينا
 قرنت يده الشمعتين بوجهه كالبدر بين النسر والجوزاء
 والتاح تحت الماء ضوء جبينه كالبرق يخفق في غمام سماء

وقال في فتي وقد تابطه وزير جميل .

ياهلل استتر بوجهك عنى ان مولاك قابض بشمالى
 هيك تحكي سناه خيرا بخير قم لجفنى لقدمه بمشال

وقال متفzلا وقد أبدع ابداع المفرمين الفنين .

زعموا الغزال حكاك قلت لهم نعم في صده من عاشقيه وهجره
 وكذا يقولون المدام كريقه يارب ماعلموا مذاقة نغره

ميدان الخيال. حتى رموه باحجوج أ كثر من غيره ، وقالوا ان ذلك حط من شأنه .
ولكنه رغم ذلك من الشعراء المفكرين. وفي الحق ان ذلك لم يكن ناشئاً من تربية فكرية
أو اطلاع واسع على علوم الدين والفلسفة، ولكنه كان ذكياً مفكراً ، وشاعراً صافي
القريجة ، قادراً على نظم المعاني نظماً شعرياً . ولا بد أن يكون قرأ كثيراً من شعر
المتنبي وأبي العلاء فأخذ يمارضهم في أساليبهم ، أو يجاريهم فيما كانوا ينظمون من
المعاني والموضوعات ، مع بلاغة عبارته. كما قال :

نفسى وجسى ان وضعتها معا	آل يذوب وصخرة خلقت
لوتعلم الأبال كيف مالها	علمى لما امتسكت لها أرجاء
انا لتعلم مايراد بنا فلسم	تعبيا القلوب وتغلب الأهواء
طيف المنايا فى أساليب المنى	وعلى طريق الصحة الا دواء
تتعاقب الأضداد مما قد ترى	جلبت عليك الحكمة الشنعاء
ماذا على ابن الموت من ابصاره	ولقائه هل عقت الابناء
أيعرنى أن يستطيل بى المدى	وانا بحيث تواطت الغبراء
لم ينكر الانسان ماهو ثابت	فى طبعه لو صحت الآراء
ونظير موت المرء بعد حياته	ان تستوى من حسنه الاعضاء

هذه فلسفة منظومة . واذا كان هذا يحسب من الشعر الجميل فذلك لمعانيه
وما فيه من الآراء التى تجذب النفوس اليها ، كما يجذبها الخيال الجميل ، والبلاغة
الساحرة ، فهو من هذه الجهة شعر جميل أيضاً

ولكن الأديب لم يفهموا هذا النوع من الشعر ، بل لا يقولون انه من باب
الشعر . وقد ظنوا أن الشاعر الذى يحوم حول هذه المعانى إنما دفعه العجز الى

ورودها، ورماء اليها ضيق التصور وجفاف الفكر^١

قال ابن وهبون هذه القصيدة في رثاء أبي الحجاج الاعلم ، وأتمها في مدحه .
ورثاؤه يشبه في جملته رثاء أبي الصلاء من حيث معانيه . وقد يكون قرأ
شعر أبي الصلاء أو المتنبي . ولكن مهما كانت الحال فليس ادراك ابن وهبون
كادراك غيره من الشعراء . وان كان جارا هم في أساليبهم الشعرية ، فان له ميزة ظاهرة
في المدح نفسه، الذي هو شكل معروف وطابع اتفق عليه في الادب والخيال ، من
تعداد الفضائل والأوصاف الكريمة كما قال من قصيدة في مدح ابن عمار قال :

قَتَلْتُ بَنِي الْأَيَّامِ خَيْرًا فَبَاطَنِي مَشِيْبٌ وَمَا يَبْدُو عَلَيَّ شَبَابٌ
وَمَا رَأَيْتُ الزُّورَ فِي النَّاسِ فَاشِيَا تَخِيْلُ لِي أَنَّ الشَّبَابَ خَضَابٌ
وَأَلَيْتُ لَوْلَا مَلِكٌ نَلِمَ مُحَمَّدٌ لَمَا كَانَ مَلِكٌ فِي الْأَنَامِ لِبَابٍ^٢
وَلَوْلَا ابْنُ عِمَارٍ وَفَاضِلُ سَعِيهِ لِأَصْبَحَ رِبْعُ الْمَجْدِ وَهُوَ خَرَابٌ
وَمَا كَانَ يُؤَوِّي الْأَمْنُ مِنْ حَيْثُ يَلْتَقِي وَلَا كَانَ يَدْرِي لِلْحَوَادِثِ بَابٌ
وَلَا أَحْرَقَتْ أَرْضَ الْمَدَى صَوَاعِقُ وَلَا أَمْطَرَتْ أَرْضَ الْعَفَاةِ سَحَابٌ
وَمَا كَانَ هَرُونَ أَصْحَ وَزَارَةَ لِمَوْسَى وَهَلْ دُونَ السَّحَابِ حِجَابٌ
نَهَوْضٌ وَلَوْ أَنَّ الْأَسْنَةَ مَرَكَبٌ وَرُودٌ وَلَوْ أَنَّ الْحِمَامَ شَرَابٌ

١ قال صاحب النخيرة في ذلك :

وهذا معنى فلسفي قلما عرج عليه عربي . انما فرغ اليه المحدثون من الشعراء حين ضاق
عُهم منهج الصواب : وعدموا رونق كلام الاعراب ، فأسرعوا الى هذا الهديان اسراع الجبان الى
تنقص أفرانه . واستجادة سيفه وسنانه . وقد قال بعض أهل النقد انه عجيب في الشعر والنثر أن
يأتي الشاعر أو الكاتب بكلمة من كلام الحكماء أو بألفاظ الفلاسفة القدماء . وانى لأعجب من
أبي الطيب على سعة نفسه ، وذكاء قلبه ، فانه أطال قرع هذا الباب والتمرس بهذه الاسباب .
وكذلك المعرى كثر به انتزاعه وطال اليه ابطاعه ، حتى قال فيه أعداؤه وأشياعه وحسبك من
شرساعه ،

٢ كذا في الاصل

مضى مثل ما يمضى القضاء وهزه همام يهز الجيش وهو هضاب
كما اقترنت بالبدر شمس منيرة له عن سناها في الخطوب مآب
أنافت به فوق السما كين همة أناف عليها عنصر ونصاب
فلفظته يوم المباهاة خطبة ولظته يوم اللقاء ضراب
له سنة في الجدد والهزل مثلما تدار كؤوس أو تدق حراب

وقد نزع أيضاً في بعض شعره نزعة أبي العلاء والمتنبي في الفخر بنفسه
ومدحها ، لان تلك كانت الطريقة الجديدة أو بدعة الشعر في ذم الناس والفخر
بالنفس كقول المتنبي .

الخليل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم
وقول المعري .

ولما رأيت الجهل في الناس فاشيا تجاهلت حتى ظن انى جاهل
فقد قال ابن وهبون:

أتخفى على الأيام غر مناقبي وقد بد شاوى شأو كل نقاب
ويركبنى رسم الخول وقد غدت خصال العلى والمجد طوع ركابي
سأرمي بهماتي قصارى مراتبي وان كان أذناها يطيل طلاي
لتعلم أطراف الأسنة اننى كفيل بها عند الصدى بشراب
وتشهد أطراف اليراعات اننى بهن مصيب فصل كل خطاب
وليس نديمي غير أبيض صارم وليس سميرى غير شخص كتاب
مضمخة لا بأخلاق أناملى مزعفرة لا بالعبير حرابي
ولكن بنفح ينجل الروض زاهرا ولكن بدعس في كلى ورقاب
وربما كانت تملأ نفسه حكم المتنبي وأسلوبه فينسج على منواله ، حتى لقد

يخيل اليك أنك تقرأ شعر المتنبي وقوافيه . ولعل ذلك كان من ضرورب التقليد
والحماكاة أكثر منه من باب التفكير والابتكار . ولكنه يدل على ميل ابن
وهيون الى التفكير وحب الكلام فى المعانى الجديدة ، والبحث فى بعض أحوال
الناس ووصف بعض الأخلاق ونقدها ، وإظهار عدم رضاه عما يرى ويسمع فى
الحياة وهو يتخذ الشعر وسيلة من وسائل التعبير وجمال القول . كما قال :

أطلتُ فى الدهر تصعيدى وتصويبى	ودهر ذى اللب مضمار التجاريب
ورُبَّ آخر لا يهدى إلى فه	أصاب غرة مأمول ومرغوب
وأفتى أدب باد فضيلته	من حيث يشفع لى قد صار يغرى بى
كفى من الحظ أنى لا أنافس فى	حظ ومخبرتى تكفى وتجربى
وقد أرى صوراً فى الناس مائلة	أشيمها بين تحقيق وتكذيب
لما ملأت يدى منهم لأخبرهم	نفضت كفى باشباه اليعاسيب
بيض وجوههم سود ضامرهم	فما حصلت على عرب ولا نوب
الصدق أولى بن يدى ضعيفته	لا تجعل الصدق من نعت الأصاحب

مع هذا فسكان ابن وهيون يجارى الشعراء فى صناعتهم من مدح صناعى
وكلام صادر من غير شعور . وذلك لنمكن ملكة الشعر منه واحتياجه الى هذه
المجاراة . ولمكن ذلك لم يكن يخلو من نظراته وملاحظاتة ، مما يدل على انه كان كثير
التفكير . ولقد يمزج بعض آرائه النقدية بعباراته الشعرية مع شىء من التهمك ،
فتجد كل ذلك جميلاً . كما قال وقد توقف مرتبه عند العامل

ألستم معشر الاملاك طائفة	تفضى بتخليدها هدى الأناشيد
فان نقصتم أناسا من نوالكم	فحق منكم لأهل الشعر تزويد
لكم خلقنا ولم نخلق لأنفسنا	فإنما نحن تمجيد وتمجيد
يا صاحب المجد ان المجد سائمة	تضل اذ لم يكن بالشعر تقييد
خذنى بماشتت من غراء شاردة	يصغى الأصم إليها وهو مفؤود

واعذر بتقصيرها من لا يزال له
لا يدرك القوت مما أنت واهبه
وليس للشعر الا خاطر يقظ
وما المدائح الا بالملوك وهل
وكما قال:

قل للرشيد وقد هبت نواخه
أشكولديك الندى من حيث أحده
ياقاتل الشكر بالاحسان يغمره
عجبت من كرم في راجتيك بدا
آثرت عندك من جاه ومن نشب
يلواحداً تقتضى آلاؤه مجلا
للناس بعدك في العليا منازلهم

وبرع في الوصف وفي كل ما قال فيه ، فقد وصف قصرا بقصيدة طويلة
جيدة المعنى ، ولم تخل من بعض الآراء لأنه لم يكن يسرد الكلام سرداً بدون
فكر . قال في هذه القصيدة :

وللزاوى السكالم سنا وحسنا
يحاط بشكله عرضاً وطولاً
تواصلت المحاسن فيه شتى
وقدر مثل ركز الطود ثبت
تدافع من جوانبه اثلافا
فلو أدنووا حرام السحر منه
سواء ترمى بعباب تبر
كما وسع الجلالة والسكالا
ولكن لا يحاط به جمالا
فوفد اللحظ ينتقل انتقالا
ومختال من الحسن اختيالا
يكاد المستبين يقول مالا
لأضحى يعبد السحر الخلالا
كأن بها اكاما أو تلالا

فقد كاد اللييب يهاب منه ويحسب ان بحر الجوّ سالا
فما أبقى شهاباً لم يصب ولا شمساً تنير ولا هلالاً

ومنها في الحكم

تزامت الموم خلال صدرى فما تركت لأنفاسى بجالا
وما خلت الزمان يكون ثقلا ولا نفحاته تأتي وبالا
كأنى كلما استنشقت منه أردُّ به الى كبدى نصالا
وكيف يصح ذو قلب أبيّ اذا كان الابه له نكالا

هذا هو عبد الجليل بن وهبون . وهو وان لم يكن من الشعراء المعروفين
بكثرة الكلام ، فان شعره صورة من صور الأدب فى الأندلس القليلة المثال.
بل هو من الشعراء الذى كانوا يحاولون الانتقال بالشعر من الخيال الصرف الى
المعانى العامة . أو الى نوع من فلسفة التفكير التى تدل على ان حسن الديباجة
وجمال الأسلوب يجملان الفلسفة شعراً ، والتفكير العميق فى باب الخيال الجميل

ابن حمديس الصقلي^(١)

ولد عبد الجبار بن حمديس بجزيرة صقلية. ولم يكد يتنسم ريح الشباب حتى وقعت بلاده في يد التُّرْمانيين، الذين لم تكد تظاً أقدامهم تلك الجزيرة حتى نكلوا بأهلها كل تنكيل ، وأذقوهم العذاب الأليم ، وحلّوهم على ترك دينهم ، وفتكوا بأعراضهم ، وأذلوهم وأهانوهم في شرفهم . فشهد ابن حمديس ، ذلك ورأى بعينه كيف تسلب الأوطان من أهلها ، وكيف يجرؤ القوى على سلب حقوق الضعيف ، وينقضّ عليه كما ينقض اللص ذو القوة والطول، على الضعيف السليب من كل قوة وحول

لذلك آثر الهجرة على البقاء بين قوم اغتصبوا بلاده. وكان لهذا أثر عظيم في نفسه وخياله الشعري وأخلاقه حتى أصبحت نفسه من النفوس المظلمة ، وصدّره من الصدور المنقبضة ، واستولى عليه البؤس بسبب هذه الحوادث . فهاجر الى اسبانيا ونزل بأشبيلية ، وعاش في حاشية المعتمد بن عباد وصار في جملة شعرائه ، وتبعه في منفاه . ولم يكن ابن حمديس معروفا عند قدومه الى أشبيلية . فقد قال :

«أقمت بأشبيلية لما قدمتها على المعتمد بن عباد مدة لا يلتفت اليّ، ولا يعبا بي، حتى قنطت لخيتي مع فرط تعبي، وهممت بالنكوص على عقبي . فأنى لك ذلك ليلة

١ ولد أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الازدي الصقلي سنة ٤٤٧ هـ في جزيرة صقلية وفي سنة ٤٧٦ هـ هاجر الى أسبانيا وعاش في أشبيلية وتوفى سنة ٥٢٧ هـ بجزيرة ميورقة

من الليالى فى منزلى اذ بنلام معه شمعة ومركوب، فقال لى أجب السلطان. فركبت من فورى ودخلت عليه فأجلسنى على مرتبة ففك^١، وقال لى افتح الطاق اتى تليك ففتحتها ، واذا بكور زجاج على بعد والنار تلوح من بابيه ، وواقدة تفتحهما تارة وتسدهما اخرى ، فحين تأملتها. قال لى أجز .

انظرهما فى الظلام قد نجما . فقلت: كما رنا فى الدجئة الأسد
فقال: يفتح عينيه ثم يطبقها . فقلت: فعل امرى فى جفونه رمد
فقال: فابتزه الدهر نور واحدة . فقلت: وهل نجا من صروفه أحد
فاستحسن ذلك وأمر لى بجائزة سنية وألزمنى خدمته^٢»

أما نفسه فنفس رجل ربه الحوادث ونالت منه الايام . وأذاقته مرها قبل حلوها . فنقلت عليه الحياة . ولوت من ظهره بعد ان أخرجه من وطنه وليس له الالسانه وخياله . وقد كان لبلاده أثر طيب فى نفسه ومنزلة رفيعة وحب جم . فلما اضطر الى الهجرة والنزول فى غير أهله تعست نفسه ، وأظامت فى وجهه الدنيا وكثر حينه الى بلده ، وصار ذلك من أظهر صفاته النفسية مهما حاول الخروج منه الى وصف الملذات أو التظاهر بالمسرات . ولقد يلمح الانسان هذا فى كل شعره حتى فى الغزل والخريات والمدح والوصف .

وأما عقله فكان ميالا الى ادراك الاشياء والمعانى ادراك من يحاول فهم ما يرى ويفكر . فقد كان يرغب دائماً فى تشبيه المحسوسات بالمعقولات ، والمعقولات بالمحسوسات^١ . وهذه طريقة من طرق المحاولة فى الادراك . وأكتر اهتمامه فى تشبهاته موجه الى وصف المرثيات وادراكها . ولقد تظهر حركة عقله عند قراءة شعره بسبب انتقاله من معنى الى آخر ، ومحاولة الخروج من طريق واحد الى طرق

١ دابة فروتها أطيب أنواع الفراء

٢ نفع الطيب جزء ٢ صفحة ٤١٦

متشعبة . أما قوته الشعرية التي بها تكوين هذه الاشياء ووضعها في أسلوب خيالي جميل فتابعة لنفسه وعقله، وأكثر اعتماده في ذلك على ما يكتسبه من التأثر بظواهر الأشياء وما فيها من التشابه بالجمال .

ذلك أسلوبه في شعره أو أن هذه هي صفات شعره : يشكو الزمان ونصيب الحر منه وكثرة نوبه، ويأتي في خلال ذلك بعبارات شعرية جميلة تدعو القارئ الى الشعور بما يشعر به هو

وعلى الرغم من صبغته الجدية في شعره، فإن كثرة كلامه في الحر ووجالسه والعشق وآثاره، تدل على انه كان يميل الى شيء من المجون، ولكنه كان أقل من غيره في ذلك فإن الانسان لا يكاد يرى للتهتك أثراً في كلامه . ولولا انه عاش في هذا العصر وفي حاشية المعتمد بن عباد، لقلنا انه كان بعيداً عن اللهو والمجون، ولحملنا شعره الذي جاء في هذا على نوع من الصناعة والخيال، إذ اننا نجد في كثير من شعره يميل الى الكلام في المواعظ والعبر، أو الى بعض الآراء التي تدل على انه كثيراً ما كان يدفعه الفكر الى خوض المعاني النفسية أو الخواطر الفلسفية، ويمزج هذه الافكار ويصوغها في أنواع شعره . ويظهر من شعره انه أنضج من غيره وأكثر تأثراً بالمعاني الاجتماعية من سواه . ولهذا أيضاً نراه شاعراً مفكراً من أصحاب الملاحظات والنظر في الحياة والاجتماع أكثر منه شاعراً وصافاً كما هو معروف عنه . ويمكن الاستدلال من هذا على تربيته العقلية وحالته الفكرية .

وقد أبدع في هذا الشعر الجدي المملوء بالعبر والحكم . كما دل على انه مفكراً أكثر منه خيالياً لاشتمال شعره على جولات فكرية مملوءة بأحواله النفسية، والآلام التي يشعر بها، وكثيراً ما تظهر هذه الآلام آلاماً لجميع الساكنين والمتألمين من الحياة، كما تظهر آلام العاشق الشاعر آلاماً لكل العاشقين . لذلك كان ابن حمديس شاعراً نفسياً نطقاً على الحياة وما فيها . كما قال

هل أقصر الدهر عن تمنيت ذى أدب أو قال حسبي من الخمال ذى حسب
 لا يلحظ الحر الا مثلما وقعت على أخى سيئات عين ذى غضب
 وكيف يصفو لنا دهر مشاربه يخوضها كل حين جحفل النوب
 ان الزمان بما قاسيت شيبني ولم أشببه . هذا والزمان أبى
 ولو خلا الدهر ذو الأنباء من عجب أكرت منه ومن أنبائه عجبى
 قرأت وحدى على دهري غرائبه فما أعاشر قوماً غير مغرب
 أحلت عزمي على همى فقطعه كأن عزمي على صمصامق الذرب
 ما قر بي السير فى سهل ولا جبل الا كما قر جارى الماء فى صبب
 ولم أضق فى السرى ذرعا بمعضلة قد زاحتنى حتى ضاق مضطربى
 وترتقى حر أنفاسى فابعثه برداً وان كان مستبقى من اللهب
 وأحر بالحر ان تلقاه ذا جلد وان تبطن داء قابل الوصب
 ولقد تنقبض نفسه فتحرك خياله حركة الباس الذى ينظر الى الأيام نظر
 الخاقد ، ويعدد مساوئها ويندب أوقات الشباب ، وكأنه واقف على أبواب الموت
 يودع الحياة ويطلب المغفرة من الله ذلك وهو فى حالة كآبة نفسه متأثرة بهند
 الخواطر . كما قال :

وُعظت بلمتتك الشائبة وفقد شبيبتك الذاهبة
 وسبعين عاماً ترى شمسها بعينك طالعة غاربة
 فويحك هل عبرت ساعة ونفسك عن زلة راغبة
 فرغت لصنعك ما لا يقيك كأنك عاملة ناصبة
 وغرتك دينك اذ فوضت اليك أمانيتها الكاذبة
 أصاحبة خلها ؟ انها باحداثها بثت الصاحبة

اما سلبت منك برد الشباب فهل يسترد من السالبة
 وان دقائق ساعاتها لمرك آكلة شاربة
 وان المنية من نحوها عليك باظفارها واثبة
 ألم ترها بمحصاة الردى لكل حميم لها حاصبة
 كأن لنفسك مغنيطسا غدت للذنوب به جاذبة
 فيا حاضرًا ابدا ذنبه وتوبته ابدا غائبة
 أذب منك قلبا تجارى به سوا كب عبرتك الساكبة
 على كل ذنب مضى في الصبا وأتعب اثباته كاتبه
 عسى الله يدرأ عنك العقاب والا فقد ذمت العاقبة

وقد يكون ابن حديس من أكبر شعراء العرب وأفضلهم، لأن لشعره صبغة خاصة ليست معروفة كثيراً في الشعر العربي: تلك الصبغة هي محاولة الخروج من الوجدانيات التي هي أكبر مظاهر الشعر العربي، إلى الكلام عما يجول بالنفوس، لا من جهة الخيال وما به من الجمال لا غير، بل من جهة التفكير أيضاً وما يمر بنفس الانسان وما يشعر ويحس من حوادث الحياة وأشكالها، وما يعتره من حيرة وشك ويقين، وكراهة للوجود أحياناً، وميل إلى البقاء تارة. ذلك بعرض صور الحوادث المؤلمة التي تزهد في الدنيا وتنفر الانسان من رؤيتها وتلك بوصف أوقات الانس ولحظات السرور، من حسن الذكرى ووصف مجالس اللهو والطرب والخمر ولذتها، والجمال وأثره في النفس وغير ذلك من أصفى وجوه الحياة وأجمل صورها.

فهو في كل أنواع شعره جاد لا مازح. ولذلك تجد أثر فكره وحركة عقله في كل كلامه، وتشعر بنفسه المفكرة إذا قرأت شعره، كما تشعر بتلك الحيرة التي هي أصل كل تفكير، وكما تشعر بسعة خياله الشعري وإذا اجتمعت قوة الفكر

وسمة الخيال لانسان كان من أكبر الشعراء ،فاذا كانت حاسته النفسية التوى رقة شعوره قوية أيضاً كان في مقدمة الشعراء . كل ذلك في شعر ابن حمديس . فهو شاعر نفسى في مقدمة شعراء العرب المفكرين . بين في شعره ما تنطوى عليه نفسه ، ولكن لا بصفته الشخصية الفردية ، بل بصفته انساناً أمثاله كثيرون . واذ كان كثير التفكير في ظلمات الحياة وجوهها العابسة وميالها الى التأمل في ذلك أكثر من التفكير والنظر في وجوها النضرة الباسمة غلبت على شعره صبغة التشاؤم . أكان كذلك لأن نفسه كانت مريضة وأعصابه مضطربة ؟ قد يكون هذا . وربما كانت رقة شعوره تقود عقله وتملك منه ادراكه ، وكان اغترابه عن وطنه ونزوح الأعداء اليه ووقوعه في غير قبضة أهله من الأسباب التي أثرت في نفسه واستولت على عواطفه . فكان يشعر بضيق ويكره الحياة وينحى باللوم على نفسه وينهرها . ولكنه لم يكن في ذلك فيلسوفاً ، بل كان يعميل الى أمثال أفكار المتصوفة في لوم النفس والنيل منها . ولقد كانت تملكه هذه العاطفة أحيانا ، عاطفة الندم أو توبيخ النفس ، فيرى نفسه ذليلاً حقيراً ، وكأنه يبكي على ذنوبه وهو حزين كئيب . ولكن ما أجل حزنه الشعري وأرقه في هذا الأين . حيث يقول :

ياذنوبى ثقلت والله ظهري	بان عذرى فكيف يقبل عذرى
كلما تبت ساعة عدت أخرى	لضروب من سوء فعلى وهجرى
ثقلت خطوتى وفودى تفرى	غيب الليل فيه من نور فجرى
ربّ موت السكون فى حرّكائى	وخبا فى رماده خمر جمرى
وانا حيث سرت آكل رزقى	غير ان الزمان يأكل عمرى
كلما مر منه وقت بربح	من حياتى وجدت فى الربح خسرى
يارفيقا بعبده ومحيطا	علمه باختلاف سرى وجهرى

هل بقلبي الى صلاح فسادی منه واجبر برأفة منك كسرى
وأجرني بما جناه لساني وتناجت به وسوس فكرى
أو كقوله وهو يفكر في نفسه وحياته وكأنه متصوف ، ولكنه مع ذلك شاعر

جميل القول :

كملت لى الخسبون والخس ووقعت في مرض له نكس
ووجدت بالاضداد من جسدي غصنا يلين وقامة تقسو
وتنافرت عنى الحسان كما لحظ المصور جآذر خنس
وأبيض من فودي من شعري وحف كأن سواده النفس
والعمر يذبل في منابته غرس ويلبس نضرة غرس
الى أن قال

وأقل ما يبقى الجدار اذا ما انهدت تحت بناءه الأس
يارب ان النار عاتبة ولكل سامعة لها حس
لا تجملن جسدى لها حصبا فيه تحرق منى النفس
وارفق بعبد لحظه جزع يوم الحساب ونطقه همس
وكقوله في الشكوى :

أسلمنى الدهر للرزايا وغير الحادثات قفشى
وكننت أمشى ولست أعيا فصرت أعيا ولست أمشى
كأننى اذ كبرت نسر يطعمه فرخه بعش
ومن دعاياته في ذلك :

نومي على ظهر الفراش منغص والليل فيه زيادة لا تنقص
من عاديات كالذئاب تذاءبت وسرت على عجل فما تتربص
جعلت دمي خرا تداوم شربها مسترخصات منه مالا يرخص
فترى البعوض مغنيا برابة والبق تشرب والبراغث ترقص

وكانت تثور نفسه ثوراناً وتغلي غليان الرجل فتنتطق بالشعر وكأه زاهد
في صومعة . أو ناسك في دير أو تقي من كبار التقاة . فيقول :

بيتك فيه مصرعك وفي الضريح مضجعتك
غرثك دنياك التي لها شراب يخدعك
همت بحب فارك وقلمسا تمتعك
يضرك الحرص بها والزهد فيها ينفعك
لا تأمن منية ان عصاها تفرعك
مغربك القبر الذي يكون منه مطلقك
ان فرقتك تربة فالله سوف يجمعك
وللحساب موقف أهواله تروعك
كم جر ما أشفقت من لسك منه أصبعك
فكيف بالنار التي من كل وجه تلذعك
يراك ذو العرش اذا ناديتسه ويسمك
فثق به ولا يكن لغيره تضرعك

وقد تجول نفسه جولات في ذكر أيامه الماضية ، فيذكر كل ما يخطر بباله ،
ويسطر الماضي كما يسطر الكاتب مذكراته في كتاب ، أو كما يرسم المصور
صورة من ماضيه على اختلاف أحواله . وهو يخرج من معنى ليدخل في معنى آخر
بين جد وهزل ، ولكن كل ذلك بصيغة الرجل الجاد المفكر ، وكأنما تمر أمام
القارئ سلسلة حوادث ، أو صور جميلة يتمتع بها ويتعظ منها . قال في إحدى هذه
القصائد :

قضت في الصبا النفس أوطارها وأبلغها الشيب اندارها
نعم وأجملت قداح الهوى عليها فقسمن أعشارها

وما غرس الدهر في تربة غراساً ولم يجن أثمارها
 فأنيت في الحرب آلاتها واعدت للسلم أوزارها
 كمتنا لها مرح بالفتى اذا حثَّ باللهو أذوارها
 تناولها الكوب من دنها فتحسبه كان مضارها
 وساقية زررت كفسها على عنق الظبي أزارها
 تدير بيـــــاقوثة درة فتغمس في مائها نارها
 وفتيان صدق كزهر النجوم كرام النجار أحرارها
 يدرون راحاتفيض الكؤوس على ظلم الليل أنوارها

ثم أخذ في وصف دير وصاحبة هذا الدير وما عندها من خمر، وأبدع في وصف الخمر بابتكارات عجيبة، وخيالات غريبة. ووصف ملهى من الملاهي وفيه القيان ترقص وتغنى وهو يقص ذلك ويحكى حكاية، وكأنك جالس في ذلك الملهى ترى خطرات الراقصات وتسمع أصوات الغناء، ولقد تشعر بشدة تمكنه من صناعة الشعر ودقة وصفه وسهولة أسلوبه . قال .

وراهبة أغلقت ديرها فنكنا مع الليل زوارها
 هداانا اليها شدى قهوة تذيع لأنفك أسرارها
 طرحت يميزانها درهمى فاجرت من الدن دينارها
 تفرس فى شمها طيبها مجيد الفراسة فاختارها
 فتى دارس الخمر حتى درى عصير الخمر وأعصارها
 يعد لما شئت من قهوة سنيها ويعرف خمارها
 وعدنا الى هالة أطلعت على قضب البان أقارها
 يرى ملك اللهو فيها الميوم ثور فيقتل ثوارها
 وقد سكنت حركات الأسي قيات تحرك أوتارها

فهذى تعانق لى عودها وتلك تقبل رِزمِها
وراقصة لقطت رجلها حساب يد نقرت طارها
وُقضب من الشمع مصفرة تريك من النار نُوارها
كأن لها عمداً صفت وقد وزن العدل أقطارها

الى ان قال

ذكرت صقلية والأسى يهيج للنفس تذكارها
ومنزلة للتصابى خلت وكان بنو الظرفُ عمارها
فان كنت أخرجت من جنة فأنى أحدث أخبارها
ولولا ملوحة ماء البكا ، حسبت دموعى أنهارها

وشكى في قصيدة طويلة آلامه فذكر صبره على ذلك، وذكر غربته، وهجر
وطنه ، وان ذلك كان من أكبر محنه . ثم ذكر شكاته من الناس وهو يضرب
الامثال في أثناء ذلك ، وفيالاق من الأهوال بانفراده في عزله حتى عن خيال
كان يزوره . ثم أخذ يتسلى بمدح نفسه ويتغنى بفضلها الجم وذكرياليه الماضية،
وعرج على ذكر وطنه ونكبة بلاده باستيلاء الاعداء عليها وأخذ يصف أهل بلده،
وبما كان لهم من صفات الكمال والشهامة ومنازلة الحرب بافضل وأجمل ما يصف
شاعر قوما يعتز بهم ، ويشرف بالانتماء اليهم . وختم كلامه بالحنين الى وطنه ،
والبكاء على أهله . فقال :

تدرعت صبرى جنة للنوائب فان لم تسالم يازمان فحارب
عجبت حصاة لا تلين لعاجم ورضت شموماً لا يندل راكب
كأنك لم تقنع لنفسى بغربة اذا لم أتقب في بلاد الأغارب
فقطمت بها عن كل كأس ولذة وأنفقت كنز العمر في غير واجب
يبيت رياش العضب في ثنى ساعدى معاوضة من جيد غيداء كاعب
وما ضاجع الهندي الا مُثلماً مضاربه يوم الوغى في الضرائب

فكست وفدّى في الصّبأ مثل قده عهدت اليه أن منه مكاسبى
فان تك لى في المشرفى ماّرب فكم فى عصى موسى له من مآرب

ثم أخذ ينكلم عما فى نفسه من ذكرى الحوادث الماضية ، ونخيانة الناس
والأيام ، وهو يتمثل أثناء الكلام ببعض الحقائق المعروفة للناس جميعاً ليثبت
بها معانيه ويجسمها للقراء . ولم يخرج فى مجموع أسلوبه عن الأسلوب العربى
المعروف من كثرة استعمال المجاز والغموض فى بعض العبارات ، وذكر الركب
والرحل والنوى وركوبه القلاص وهزلها . كقوله

أتحسبى أنسى ومازلت ذا كراً خيانة دهرى أو خيانة صاحبى
تفدى بأخلاقى صغيراً ولم تكن ضرائبه الاخلاف ضرائبى
ويلرُبّ بنت تمترية مرارة وقد كان يسقى عذب ماء السحاب
علمت بتجريبي أموراً جهلتها وقد تجهل الاشياء قبل التجارب
ومن ظن أمواه الخضارم عذبةً قضى بخلاف الظن عند المشارب
ركبت النوى فى رحل كل نجبية تواصل أسباى بقطع السباب
ولما رأيت الناس يهرب شرم تجنبتهم واخزرت وحدة راهب

وعجيب تلك العادة التى ابتلى بها الشعراء فى مدح أنفسهم مدحا يخجل
منه القارىء . فكيف بالشاعر وهو يضع نفسه فوق كل شىء ؟ هل هذا من
الأماليب الشعرية ؟ لعله من وسائل التسلية ، على ما فيه من المبالغة والتغنى
بمدح النفس . ولكن مهما يكن من شىء فى هذا فإنها بدعة عجيبة فى الشعر العربى
وأسلوب غريب .

وبينا الشاعر يكيل لنفسه المدح كيلا ، ولا يقنع بشىء منه تراه فاجأك
بذكر الخمر ووصفها ومدحها . وانك لنكاد تشمل من ذلك ، واذا هو ينتقل الى
الكلام فى وطنه ويذكر بلده ويمدح أهله . فيقول .

ولى فى سماء الشرق مطلع كوكب
 متى تسمع الجوزاء فى الجوى منطقي
 وم لي به من صنود محافظ
 أختى ثقة لادسه الراح والصببا
 معتقة دع ذكر أحقاب عمرها
 اذا خاض منها الماء فى مضمحلشا
 ولو ان أرضى حرة لأتيتها
 ولكن أرضى كيف لي بفنكاها
 الا فى ضمان الله دار بنوطس
 أمثلها فى خاطرى كل ساعة
 أحن حنين النيب للموطن الذى
 ومن يك أبقى قلبه رسم منزل
 تبنى له بالجسم أوبة آئب

هذا خلط فى تركيب القصيدة ، ولكنه خلط معهود عند شعراء العرب ،
 فالقصيدة من هذه الوجة من الشعر العربى الجميل . على ان هذا شاعر عرف
 كيف يتكلم عن شعور ، وكيف يطبع نفسه حين تدفعه الى الكلام ليصور
 خفاياها ويبين مكنوناتها .

وله فى الوصف براعة معروفة ، واستحضار عجيب لصور الأشياء والتشبيهات ،
 ودقة فى جمع الأشياء وتنسيقها ، كما تراه يجمعها وينسقها بيده أو كأنه يفوس على
 المعنى الخفى فى أى به ويضعه فى موضعه . ولقد يتكلف أحيانا جمع هذه المعانى ، حتى
 كأن كل كلمة أختطفت من مكانها لتوضع فى مكان آخر . ولكنك تراها
 كالعقد يؤخذ من عنق الحسناء الى عنق العانية ، فلا يفقد قيمته ولا تضارته

وكأنك وأنت تقرأ كلامه ترى بعينك ما يصف وتحس ما يقول . لأنه كان ذا شعور قوى ونظر ثاقب . لا يكاد يشعر بشيء الاذكره في شعره ، ولا تكاد تمتلئ عينه بمنظر الا وصفه كأنه كان مملوءا بذلك ، أو كأن هذه كانت كل حياته ، لذلك كان يقول في المعنى الطريف ، كما يقول في المعنى المتبادل . ولكن الابتدال يضيغ أمام شعوره بالجمال وحسن صناعته .

ولا تكاد تقف له على غور في الوصف ، ولا على أسلوب واحد ، لأنه يميل الى الاختراع : ويصف الصيد والليل ، ويذكر رفاقه ، ثم يعرج على السرور والكلام في الخمر ، ثم يرجع الى الطبيعة ، فيحن اليها ، ويصف طلوع الصبح . ثم يصف الخليل وكلاب الصيد وحركاتها ووثبتها . وكثيراً ما يكون وصفه حقيقياً ، أكثر منه خيالياً كأنما يرسم ما يرى . كما قال :

وليطة حالكة الارارِ مدت جناحاً كسواد القارِ
تججُبُ عنا غرة النهارِ عقرتُ فيها الهَمَّ بالعقارِ
بجسم ماء فيه روحُ نارِ في مجلس ضمّ بنى الفخارِ

كما في قوله يصف شمة

أ قناة من الشمع مركوزة لها جربة طبت من لب
تحرق بالنار أحشامها فتدمع مقلتها بالذهب
تمشى لنا ورها في الدجى كما يتمشى الرضى في الغضب
عجبت لآكلة جسمها بروح تشاركها في العطب

وكما قال يصف ساقية

دساقية تنقى الندامي بعدها كؤوسا من الصبهاء طاغية السكر
يمود فيها كل جام كأنما تضيئ روع الشمس في جبد البدر
إذا قصدت ما نديما زجاجة تناولها رفقا انملة العشر
وبرسها في ماثها فيعيدها للراحتي ساق على حكمه تجرى

كِبَالَةٌ تَفْضَحُكَ عَنْ أَقْصَارٍ تَزَاحَتُ بِأَنْجِيمٍ دَرَارِي
مِنْ كُلِّ بَيْرٍ فِي حَمِي الدَّمَارِ مَهِينٌ مَالٌ وَمَعَزٌّ جَارِ
يُسْقُونَ مِنْ سَاطِعَةِ الْأَنْوَارِ كَثِيرَةٌ الْأَسْمَاءُ وَالْأَعْمَارِ

الى ان قال :

قَنَا لِنَسْفِي عَرْضَ الْخَمَّارِ عَنْ جَوْهَرِ الْأَنْفَسِ فِي الصَّحَارِ
بِكُلِّ طَرَفٍ سَلَبٌ مَطَّارًا مَوْجُهُ الْإِقْبَالِ وَالْأُدْبَارِ

الى ان قال :

فَرَبِي غَيْمٍ مِنَ الْغُبَارِ يَشْكَلُ فِيهِ أَحْرَفُ الْآتَارِ
كَأَنَّمَا يَطْلُبُهُ بِنَارِ مَاذَا يَرِيدُ الظُّبَى بِالْفَرَارِ
يَجْدِفُهُ بِبِرْمَعِ صَفَارِ حَذَفَ الْمُؤَلَّى بِالْيَدِ الْيَسَارِ
مِنْ ابْنِ رِيحٍ فِي قَيْصِ نَارِ وَهُوَ مَعَ الْأَجْهَادِ وَالْإِضْرَارِ
فَلَوْ تَرَانَا فِي انْتِزَاحِ الدَّارِ فِي رَوْضَةٍ كَالْعَادَةِ الْمَطَارِ
نَأْكُلُ مِنْ صَيْدِ أَبِي الْعَقَّارِ وَنَشْرَبُ الصَّبَاءَ بِالْكَبَارِ

ما كنت الا خالغ العذارِ

ويصف مجلس أنس وما يدور فيه ، فتجده ينسى أحيانا نفسه المظلمة ،
ويكب على اللهو والمجون وكأنه من أكبر رجاله ، ويندكر العبارات التي تدعو
الى الخوض في غماره ، والى انتهاز هذه الاوقات حتى بعد فوات الشباب الذي
يبكي عليه، بما لا يكون ارق منه ولا ادعى للحسرة وهو يتنفس الصعداء ، ويسلي
نفسه بهذا الكلام ، ووصف هذه المجالس ، ثم يرجع على نفسه بالميرة والعظة
أو تمود اليه نفسه المتشائمة أثناء هذا الهرج والمرج فيفتيق من ثورة سروره
ومجونه ، ويندكر أنه وصاف وصانع من صناع الكلام ، وأنه ليس من أهل

١ سلهب طويل عظيم ومطار عداه سريع السير

هذه المجالس ، ولا من شراب الخمر ، ويرجع الى التقوى والندم على الذنوب .
فيقول :

حبذا فتيات صدق عرسوا بمذاوى من سلافتِ الخمر
عزبدا الصحو عليهم بالأسى فاتفاه السكر عنهم بالسرور
عمرؤا ربع الصبا من قبل أن يتمشى فيه بالشيب دثور
ان للأعمار أعمازا إذا بلغت لم تمن منهن صدور
كل نافي العسر في شرته للصبا نار وفي الوجنة نور
يقتنون العيش من قايصة ذات عمر كثرت فيها الدهور
أطلع الساقى عشاء منهم أنجم الكاسات في أيدي البدور
عدد بالاكواب عنى ان لي في يد الآنس عنهن نفور
عمر الشيب الدجى من لمي بنجوم طلع ليست تفور
لا نشور لشبابى بعد ما مات من عمرى الى يوم النشور
وخضاب الشيب لا أقبله إنه في شعرى شاهد زور
أنا من وجدى بأيام الصبا أذرف الدمع رواحا وبكور
فكأنى ذو غليل تلتظى لوعة منه الى ماء النخور
أصف الراح ولا أشربها وهى بالشدو على الشرب تدور
كالذى يأمر بالكر ولا يصطلى نار الوغى حيث تفور
فسواء بين اخوات الصفا وذوى اللهو مغيبي والحضور
أنا من كسب ذنوبى وجل وان استغفرت فالله غفور
وقد اشتهر بوصف القصور . كما قال :

كم شاخص فيه يطيل تعجبا من دوحة نبتت من العقيان
عجبا لها تسقى الرياض ينابعا نبتت من الثمرات والاعصان

١ مكداء الى الاصل

خضت بظائرة على قن لها
قَس الطيور الخاشعات بلاغة
فاذا أتيت لها الكلام تكلمت
وكأن صانها استبد بصنعة
أوفت على حوض لها فكأنها
فكأنها ظنت حلاوة مأجها
الى ان قال :

كم مجلس يجرى السرور مسابقا
منه خيول اللهو في ميدان
يجلو دماه على الحدود ملاحه
فكأنه المحراب من غمدان
فسماؤه في سكبها علوية
وقبابه فلكية البنيان
وكقوله :

واذا نظرت الى غرائب سقفه
أبصرت روضاً في السماء نضيرا
وعجبت من خطاف عسجده التي
حامت لتبني في ذراه وكورا
وضعت به صناعه أقلامها
فأرتك كل طريدة تصويرا
وكأنما للشمس فيه ليقة
مشقوا بها التزييق والتشجيرا
وكأنما للأزورد مخرم
بالخط في ورق السماء سطورا
وكأنما وشوا عليه ملاءة
تركوا مكان وشاحها مقصورا
يامالك الارض الذي أضحي له
ملك السماء على العداة نصيرا
كم من قصور للملوك تقدمت
واستوجبت لقصورك التأخيرا
فعمرتها وملكت كل رئاسة
منها ودمرت العدا تدميرا^٢

١ كذا في الاصل

٢ راجع القصيدة في الديوان المطبوع في رومه من ٤٨٢

وقد يتفزل فيخاطب حمييته بما في نفسه من ألم، وما يلاقه في سبيلها من
شهادة الأعداء، وما يتمناه من الصبر في سبيل ذلك. ثم يستحلفها بما لها من الدلال
أن تكف عن أسر قلبه . وهو يستعطفها ويدل في آن واحد . فيقول .

عذبت رقة قلبي ظلما بقسوة قلبك
وسمت جسمي سقما وما شفيت بطبك
أسخط كل عدو رضيته لمحبيك
من لي بصبر جميل على رياضة صعبك
فيا تشوقاً بعدي الى تنسم قربك
ووجنة غمستها في الورد صنعته قربك
لقد جنحت لسلمي كما جنحت لحربك
فبالدلال الذي زاد في ملاحه عجبك
فكفي من الأسر قلبا عليه طابع حبك
ونعميني بعسبي فقد شقيت بعثبك

ويمدح على الأسلوب المعروف من حيث البدء بالنسيب. وقد يطيل في ذلك
وربما لم يكن له ميزة في غير الاسلوب، وربما كان مدحه كثرله، ولكنه مدح
جميل على الرغم مما يشعر به القارئ من الثرثرة . غير أن المعاني تنهال عليه انهيالا
فيعذب الكلام . كما قال .

غيرته غير الدهر فشاب ورمته كل خود باجتباب
فغدا عند الغواني ساقطا كسقوط الصفر من عد الحساب
وتولى عنه شيطان الصبا اذ رماه الشيب رجما بشهاب
وكان الشعر منه سعف يلتظي فيه شواظ ذو التهاب

أياها المغرى بتأنيب شج	سلط الوجد عليه نهل أناب
هام لاهمت من الغيد بمن	حبها عذب وان كان عذاب
لمت لا ملت عميدا قلبه	عن سماع اللوم فيها ذو انقلاب
والهوى باق مع المرء اذا	كان من عصر الصبا عنه ذهاب
بأبي من أقبلت في صورة	ليس للتائب عنها من متاب
كل حسن كامل في خلقها	ليتها تنجو من العين بعاب
فالقوام الغصن والرديف التقا	والأقاح الثغر والطل الرضاب
ظبية في العقد إما التفتت	ومهاة حين ترنو في النقاب

ويذكر الخمر وكان الناس جميعاً سكارى ، وفي كل رأس نشوة وحيرة .
وكان الخمر حلال لا حرام ، أو كأنها أكل شيء في الوجود ، لانه يصفها بأكل
الصفات وأجمع سمات الكمال واللذات . ويحيل الى الانسان انه لم يبق كلمة
تمت الى الخمر بقراءة الاذكرها ، أو معنى يدب في النفس بديها الا قاله ،
والقارئ يشمل بذكر الخمر كما يشمل بأسلوب الشاعر وعذوبته ، وكان أحدا لم يقل
منه في ذلك كما قال:

وجسم له من غيره روح لذة	سليل ضروع أرضعت حلب السحب
اذا قبض الابريق منه سلافة	تقسمها الشراب حوليه بالقضب
شربنا وللإصباح في الليل غرة	تريد اندماجا بين شرق الى غرب
على روضة تحيا بحية جدول	يفيء عليه ظل أجنحة القضب

أو كما قال الشاعر

أ أشهاب في دجى الليل ثقب	أم سراج ناره ماء الضب
أم عروس فوق كرسى بدا	يجتليها اللهب في عقد الحب
ياشقيق النفس أنفاس الصبا	بردت والمصبغ لاشك اقرب
قم امتصك بعيش لم تقع	في صفاء منه اقتداء النوب

بلزهر يجلو اللهو فيه عرائساً
 كأن لها في الخمر حمرَ غلائل
 وكم من كُئيت اللون تحسب كأسها
 اذا مُزجت لانت لنا وتمحلت
 جرى في عروق النار ماءً كأنما
 وان نال منها ذو الكآبة شربة
 كراسيها أيدى الكرام من الشرب
 مزررة الأطواق باللؤلؤ الرطب
 لها شفة لساء ذات لمي عذب
 بأخلاقها عن قسوة الجامع الصعب
 رضى السلم منها يتقى غضب الحرب
 تسربت الارواح منه الى القلب

فلقد حان لضوء الفجر أن
 فأدراها تحت ليل سقفه
 أو على برق سماء ضاحك
 سكر الروض وغنى طيره
 هات درا فيه ياقوت وخذ
 فوه لو سقيتها صخرة
 يجذب الروح اليه روحها
 ولدت بالشيب في عنقودها
 علما موجها المزج أرت
 مادري خاها عاصرها
 خندريس عتقت في أجوف
 ومليح الدل ان عل بها
 شمع القهوة في صوب الحيا
 فتلاقي في فسي من كأسه
 يضرب السرحان فيه بذنب
 ظلمة فيها من النور ثقب
 غيمه بالدمع منه منسكب
 أفلا ترقس قامات القضب
 جسم ماء حاء لا روح لهب
 أورقت باللهو منها والطرب
 ألطف الشيشين عند ما يجذب
 وهي اليوم عجوز لم تشب
 حيب الفضة في ماء الذهب
 فحديث الصدق فيها كالكذب
 من دم العنقود مملوء نجب
 قلت نجم في فم البدر غرغ
 وسقاني فضلة مما شرب
 ماء كرم وغمام وشد

ابن برد الأصغر (١)

بنو بُرد أسرة معروفة بالأدب كبنى شهيد وبنى حزم. وكانت هذه الأسر جماعات وأحزاباً أدبية تستخدم عمالاً للملوك والأمرء، يكتبون لهم ويساعدونهم في أغراضهم . والأمرء أنفسهم أدباء وشعراء، فكانت تربطهم بهؤلاء صلة الأدب، للاستعانة بهم في مسائل السياسة والكتابة فيما يكون من أمر الدولة والاستفادة بأرائهم، ولاحتياجهم اليهم في أوقات الطرب ومجامع اللهو والمسامرة والشرب والحديث والأسفار. ولذلك كان الوزراء جميعاً كتاباً وأدباء وشعراء ورجال جد وهو . وكانت هذه الجماع تحتوى على كثير من الناس المختلقى المذاهب والعقائد في كثير من المسائل ، كما كانت مسرحاً للدسائس والملق ، ومثاراً لغضب الملوك والأمرء ، وبعثاً من بواعث الرضى ، وجد الناس بالخطوة عند الرؤساء .

بهذا وغيره رقى الأدباء الى مراكز الوزارة ، وقبضوا على أزمة الامور ، كما سبق وتكلمنا عن بعضهم . وقد انتشرت هذه المجالس الأدبية وكثر الأدباء فيها ، وانتمى الى الأدب والكتابة كثير ممن كانوا يرون أنفسهم أهلاً

١ هو حفيد أبى حفص الأكبر كاتب يحيى بن على بن حود الذى خرج على عمه القاسم بن حود وأسره ستة أعوام ثم قبض عليه ستة عشر سنة ثم قتله خنقاً سنة ٤٣١ هجرية . وكان بين يحيى هذا وعمه حروب ومنافسات طالت زمناً وانتصر كل منهما على صاحبه مرات وخذل مرات (راجع المعجب فى تلخيص أخبار الغرب) ولم يكن هناك وقت أكثر اضطراباً من هذا الوقت الذى خرجت منه السلطة من بنى أمية ثم رجعت اليهم ثم خرجت منهم نهائياً الى ملوك الطوائف وكان أبو حفص الأكبر من أشهر الادباء

لان يجولوا في هذه الميادين . وعرف نفسه من لم يكن معروفا ، واستعان على ذلك بالحاجة الى أمثاله . وكان ذلك وقت أن كانت الفتن يدب دبيها في جسم الدولة هناك ، والفرقة بين الناس تعمل فيهم ، والأمة آخذة في التدهور ، وسلطان بني عامر قد قام على دعامة من الدسائس والخداع ، والمنصور يحاول هدم ملك بني أمية ، وكانت بقية العلوم والآداب من عصر عبد الرحمن الثالث وابنه الحكم لا تزال وافرة . فاندس في هذه الفئة نفر من الأدباء أرادوا أن يعيشوا من ألسنتهم . فقصدوا الأمراء والملوك ، فرحب هؤلاء بهم وافسحوا لهم صدورهم . فكان من جراء ذلك انتعاش حركة الأدب في عصر كانت الدولة مائلة فيه الى السقوط ، والدسائس تتطلب مثل هؤلاء الكتاب والشعراء . فطال عمرهم بطول الحاجة اليهم . وهذا سر بقاء الأدب في الأندلس حافظاً شكله ومكانته الى أواخر الدولة هناك . ومن الذين عاشوا في هذه البيئة وتربوا فيها وكانوا يرمون في ساحاتها بنو برد . وأشهرهم أبو حفص الأكبر وحفيده أحمد أبو حفص الأصغر

كان أبو حفص بن بُرد الأصغر من كبار الكتاب والأدباء ومن النبهاء الأذكياء ، ومن الشعراء أصحاب الديباجة الحسنة وأهل الظرف في الشعر . أخذ عن جده أبي حفص الأكبر وسلك مسلكه . وكان يفخر به وبالانتماء إليه ١

(توفي سنة ٤٢٨ بسر قسطة) ومن كتاب ديوان الانشاء في دولة العامرين وكتب للمظفر بن أبي عامر . وكان من أقطاب البيان وله عدة رسائل شهيرة تدل على طول بابه في السياسة . (ومن رسائله الشهيرة ما كتبه لعبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر وكان قد استبد بالامر وحجر على الخليفة هشام الاموي وأراد أن يستأثر بما بقي من رسوم الخلافة . فطلب من هشام المؤيد أن يوليئه عهده فأجابته وأحضر لذلك الملائم من أرباب الشورى وأهل الحل والعقد فكان يوماً مشهوداً فكتب عهده من انشاء أبي حفص بن برد
١ حيث يقول

من شاء خبري فأنا ابن برد حد حسامي قطعة من حدى
وأرفع الناس بناء جدى من نظم الالفاظ نظم القدى
ونقد الكلام حق النقد وكف بالاقلام ايدي، الاسد

وهو من المقدمين بين الادباء والشعراء ذكره ابن بسام بقوله
« كان أبو حفص بن برد الأصغر في وقته فلك البلاغة الدائر . ومثلها
السائر . ينفث فيها بسحره . ويوردها بناصع نظمه وبارع نثره
وكان يفخر بامتلاك أعنة البلاغة ¹ . فقد كان الأدب ولا سيما الشعر
والنثر أشبه بما يسمونه الآن فنون الجمال ، التي تقاس بها أذواق الأمم الفنية
ودقة الادراك لديهم ، وفهمهم أسرار الوجود الخفية
وأسلوبه النثرى هو في جملته أسلوب خطابي ، يسلك فيه مسلك توارد الجمل
والمترادفات ليملك الأسماع ، ويؤثر في نفس القارئ . وان كان كثير من هذه
الجمل مكررا خاليا من معنى جديد . وهذا طريق طويل . ولكنه أحد طرق البلاغة
الذي يسموه بالأطناب ، ويريدون أنه في نهايته يصيب الغرض المقصود من
التعبير ، ويوصل الى ما يؤدي اليه الايجاز : من معرفة مواقع الكلام الدال
على المعنى تَوْأ . وقد يكون هذا الأسلوب آتق في لفظه ، لكثرة اختيار الكاتب
الجمل الفصيحة وأثبت في الذهن ، لكثرة تردد المعنى الواحد في ذهن السامع
بصارات مختلفة .

١ كتب يقول في كتاب سماه (سر الادب وسبائك الذهب) ... وأصبحنا بعد ترمي أغراض
الكلام بأسهم أزرها شديد . ونمقد مناظم القول بالسن برىء منها التقييد . ونسيل من
المنثور جداول النطاف . ونجيد من المنظوم جواهر الاصداف ، وكان جدى احمد بن برد رحمه
الله لطول ممارسته هذه الصناعة برحاء اللهب ، ونهمة الطلب . ودعة الزمان واقبال السلطان ...
كأنه وقد أقبسني من مصاييح وصاياها فيها .. وصرف لي ضوا من هداياته ما أفاء الله به نفعاً
وأوسع معها ارشادا . ثم ان الايام اترمصابه . وبعد ذهابه . باكرتني بصروفها . وشغلتنى ..
برقع خروقها . ومكابدة ضيقها ؛ وسوق الأدب قد كسدت ، والى أمضى من البيان ، والاساءة
أحد من الاحسان . وأفلامنا يومئذ في عطلة . ومحابرنا في عقلة . وكنتنا في رقدة .. الخ ...
راجع الجزء الاول من النخيرة

وأدل على قدرة الكاتب وسعة خياله ، لكثرة ما يجد من هذه الألفاظ ذات المعنى الواحد ، وعلى الاقتنان في معرفة الفرار من ملل التكرار ، وعلى ابراز هذه الجمل المتحددة المعنى كأنها مختلفة الدلالة ، مما لا يقدر عليه الموجز بإيجازه المملوء بالعبارات الدقيقة والمعنى الكبير في الألفاظ القصيرة لعدم ضلال الفكر في كثرة الجمل وادراك معانيها .

أما أبو حفص فانه من أصحاب الأطناب ، الذين يميلون الى قرع الأسماع بنغمات البلاغة في كثرة الجمل وتماقبها على المعنى الواحد . وهذا كثير في نثره ، وربما كان ميالا الى زينة اللفظ أكثر من ذكر المعاني . ولكنه في جلته حسن الديباجة ، وأسلوبه من أحسن ما يكون في نوعه

والظاهر انه كان يشق هذا الأسلوب . فان نثره يكاد يكون كله من هذا النوع مفصلا ، جملا جملا ، وكأنما كل جملة مستقلة عما قبلها وما بعدها ، كالحكم والأمثال .^١ وله كثير من النثر الصناعي المتكلف ، وكأنه ضرب من اللعب بالألفاظ والعبث بصناعة الكلام.^٢

وليس أدل على التكلف من مثل هذا الكلام ، ولا أغرب من هذه الأساليب التي يحسبونها من سعة الخيال وغنى اللمة . على أن ذلك لا يخلو أحيانا من أثر في النفس ونغمة لذيذة في السمع . تمرر النسيم العليل . كقوله في الاستزارة .

١ من ذلك قوله في وصف القلم والمداد والكتاب . ويقولون انه أول من ابتكر الكتابة في هذا الموضوع . المداد كالبحر . والقلم كالنواص . والالفاظ كالجرهر . والقرطاس كالسلك والدواة كالقلب . والقلم خادم له . ما أعجب شأن القلم يشرب ظلمة . ويلفظ نوراً
٢ كقوله: أظلم لي جو صفائك . وتوعرت على أرض اخائك ... فليت شعري ما الذي أنصى مهجة الود . وأذبل زهرة ذلك المهسد ... وان رغم أنف القلم ، واتزوت أحشاء القرطاس ... الخ

« اليوم يوم بكت أمطاره.. وضحكت أزهاره . وتقنعت شمسه . وتعطر نسيمه . وعندنا بلبل أزج وساقٍ غنَّج . وسُلافتنا سلافة أخذان . وسلافة دنان قد تشاركنا في الطباع . وازدوجنا في آثارة السرور . فاحرق الينا مرادق الدجى . تجد مرأى لا يحسن الا لك . ولا يتم الا بك . الزيارة بالليل أحنى . وبالأثر والمزور أحنى . وقد سدل حجابيه . ووقع قرابه . وتبرقت نجومه بفيومه . وتلفعت كواكبه بسحائبه . فاهتك الينا سترأ . وخض الينا بحراً ... »

ومن هذه الاساليب الفنية فصول كتبها في تفضيل الورد على غيره من الازهار وقالوا انه مخترع هذا النوع، وأول من كتب في هذا الموضوع

١ وقد عارضه في هذه الرسالة الأديب أبو الوليد اسماعيل بن محمد المعروف بحبيب . وكان أبو الوليد حبيب هذا من الممتازين بالكتابة في زمنه ، أديباً مشهوداً له بالفضل . تلميذا لابن الأثر أحد شعراء المعتضد بن عباد ، وقالوا انه كان وهو ابن سبع عشرة سنة ينظم النظم الغائى ، وينثر النثر الرائى . واستوزره جد المتمد بن عباد وكان يصفى الى مقاله ويرضى بفعله ، وهو ما جاوز العشرين (نفع الطيب طبع أوروبا جزء ٢٤٠ صفحة ٢٩٠) وكان شاعراً أكثر شمره في الازهار ولم يذكر ابن بسام من رسالته التى عارض بها ابن بزد الأصفى الا طرفاً صغيراً . قال فيه «وأما رسالة أبى الوليد فخطب بها المتمد يومئذ قال فيها: فأول من رأى نور ذلك الكتاب وعين الخطاب . نوادر فصل الربيع . هي خيرة الورد فى الوطن . وسعابته فى الزمن . ولما أن قرأته أنكرت ما فيه . وبنيت على هدم مبانيه ، ونقد معانيه . وعرفت الورد بما عليه فيما نسب اليه . من استحقاقه مالا يستحقه . واستثماله مالا يستأهله ، وعلمت ان مخاطبته من أخطأ تلك الخطيئة وأدنى من نفسه تلك الدنيئة ، تدير دبرى . ورأى غير مرضى ، فكتبت الى الاقحوان والحيرى الاصفى كتاباً . قالت فيه لو استحق الورد امامة : واستوجب خلافة . لبادرتها آباؤنا ولعقدها أوائلنا التى لم تنزل تجاوره فى مكانه . وتجرى فى أوانه ، ولا ندرى لاي شىء أوجبت تقديمه . ورأت تأهيله . بما غيره أشكل له وأحق به ، وهو نور البهار والبادى فضله بدؤ النهار . والذي لم يزل عند علماء الشعراء وحكماء البلغاء ، مشبها بالعيون التى لا يحول نظرها . ولا يحور حورها . وأفضل تشبيه الورد بحمرة الخند عند من تشيع فيه . وأشرف الحواس العين اذ هي على كل متول عون وليس الخندحاسة فكيف تبلغه رئاسة

أين الحدود من العيون نفاسة ورتاسة لولا القياس الفاسد
وأصح تشبيه الورد وأقربه من الحق ، قول ابن الرومى فى الشعر الطائى . ولقد وافق ووفق وشبهه محقق « وطول أبو الوليد فى رسالته هذه وختما بمبايعة الازهار البهار ورجع عن تقديم الورد فى خبر طويل

أما رسالته في ذلك فهي رسالة نادرة في موضوعها وأسلوبها، تدل على سعة خيال كاتبها، وحسن ذوقه في اختيار الألفاظ ومعرفة مواقع الكلام، وأنه كان من الكتاب الذين يميلون إلى الأساليب القصصية. وربما لم يكن لهذه الأساليب نظير في بلاغة المشرق، لأن أهل الأندلس هم الذين اخترعوا الكلام في الأزهار على هذا النحو.

تصور ابن بُرْد أن الأزهار والرياحين قد اجتمعت في مجلس واحد، وقام أحدها يتكلم ويخطب بين أبناء جنسه. وقد دل الكلام على عقل الكاتب وأنه من أصحاب المعتدات، أو أنه في كلامه هذا يمثل ميول العقول في عصره. وذلك أنه افتتح كلامه بما يشبه الحمد أو ما يشبه التفكير في الوجود والمخلوقات فقال:

« ان صنوفا من الرياحين ، وأجناساً من البساتين ، جمعها في بعض الأزمنة خاطر خطر بنفوسها، وهاجس هجس في ضمائرها لم يكن له بد من التفاوض فيه ، والتحاور والتحاكم من أجله والتناصف . وأجمعت على ان ما ثبت في ذلك من العهد ، ونفذ من التحالف ماض على ما غاب شحه ولم يأن منها وقته فقام منها قائمها فقال : يامعشر الشجر ، وعامة الزهر، ان الله تعالى لطيف خبير ، خلق المخلوقات البريات ، بآيّن بين أشكالها وصفاتها ، وبعده بين منجّها وأعطياتها ، فجعل عبداً وملكاً، وخلق قبيحاً وحسنّاً، فضل بعضاً على بعض، حتى اعتدل ببدله الكل ، واتصل على لطف قدرته الجميع ، وان لكل واحد منها جمالا في صورته ، ورقة في محاسنه ، واعتدالا في قده، وعبقا في نسيه ومائة في ديباجته»

ثم تطرق من ذلك إلى الكلام في الزهور وما لها، وما اختصت به من الجمال والمنزلة في الاجتماع ونفوس الناس فقال:

« وقد عظفت علينا الأعين ، وثنت إلينا الأنفس ، وزهت بحاضرنا

المجالس ، حتى سفرنا بين الأحبة ، فوصلنا أسباب القلوب ، وتجملنا لطائف
الرسائل ، وصيغ فينا القريض ، وركبت على محاسننا الأعراب «

ثم عمل على نقد الصفات والأخلاق الغير المحمودة بقوله
« فظفح بنا العجب ، وأزدهى بنا السكر ، وحملنا تفضيل من فضلنا ،
رائثار من آثرنا ، على ان نسيم الفسك في أمرنا والتمهيد بعواقبنا ، والتطبيب
لأخبارنا »

وقد اقتبس ذلك من أخلاق الانسان . وهي طريقة جميع أصحاب الأمثال
والأساطير ، الذين يتكلمون على السنة الحيوان أو النبات . ولكن الظاهر ان
الكاتب لم يكن يقصد بذلك الا الوصف أو سمة الخيال ، لا العبرة والعظة . غير
ان هذا باب من أبواب الأساليب الاجتماعية ، أو القرية من ذلك وخروج من
الدائرة المعروفة ، دائرة الرسائل والمكاتبات ، ودليل على رقى الفكر ، وترك
القديم ، وباب جديد من أبواب المنشور ، الذي يدخل منه الكتاب الى القصص
والحكايات

ثم أخذ بعد ذلك في تفضيل الورد وبيان مزاياه . فقال :
« وادعينا الفضل بأسره ، والكمال بأجمعه ، ولم نعلم ان فينا من له المزية علينا ،
ومن هو أولى بالرئاسة منا : وهو الورد ، الذي ان بدلنا الانصاف من أنفسنا ، ولم
نسبح في بحر عمانا ، ولم نعل مع هوانا ، دنا له ، ودعونا اليه ، فن لقيه منا حيا
بالملك ، ومن لم يدركه زمن سلطانه ، ودولة أوانه ، اعتقد ما عقد عليه ، وولى ما دعا
اليه ، فهو الاكرم حسبا ، والأشرف زمنا ، ان فقد عينه ، لم يفقد أثره ، أو غاب
شخصه لم يفبعرفه ، وهو أحمر ، والحمة لون الدم ، والدم صديق الروح ، وهو
الياقوت المنضد ، في أطباق الزبرجد ، وعليها فوائد المسجد ، والأشعار من
محاسنه حسنت ، وبعتهال جماله وزنت »

وقد دل على أوصاف الكمال التي في الورد ، وأخذ ينمقها بدقة أسلوبه ومهارته. ثم استرسل في الكلام على هذا النمط ، وذكر أنواعاً أخرى من الزهر وانطقها بالكلام . فقال :

« وكان ممن حضر هذا المجلس ، من رؤساء الأنوار والأزهار ، النرجس الأصفر ، والبهار والبنفسج ، والخيزري النام . فقال النرجس الأصفر والذي مهد لي حجر الثرى ، وأرضني ندى الحيا ، لقد جئت بها أوضح من لبة الصباح ، وأسطع من لسان الصباح ، ولقد كنت أسير من التعب له ، والشغف به . والأسف على تماقب الموت دون لقائه ، ما أتحل جسدي ، ومكن سقي ، واذ قد أمكن الهوج بالشكوى ، فقد خف نَقْلُ البلوى . ثم قام البنفسج فقال على الخبير سقطت ، أنا والله المتعب له ، والداعي إليه ، المشغوف به ، وكفى ما بوجهي من ندوب ، ولكن التأسى بك آنس . ثم قام البهار فقال : لا تنظروا الى غضارة منبى ، ونضارة رونقي ، وانظروا الىّ وقد صرت حدقة باهتة تشير اليه ، وعينا شاخصة تندى بكاء عليه

ولولا كثرة الباكين حولي على اخوانهم لقتلت نفسي

ثم قام الخيزري فقال: والذي أعطاه الفضل دوني ، ومد له بالبيعه يميني ، ما اجترأت قط اجلالاً له واستحياء منه ، على أن أتفنس نهاراً ، أو أساعد في لذة صديقاً أو جاراً ، فلذلك جعلت الليل ستراً ، واتخذت حوائجهم كناً » وجعلها تتناقش وتتنافس . ثم تم بعد ذلك اتفاقها في مجلس عام ، وكتبت بذلك صكاً اعترافاً بفضل الورد، واطاعته. وجعلته رئيساً لها، نطيع أمره ونخضع له، فقال:

« فلما استوت آراؤها، قالت ان لنا أصحاباً، وأشكالا وأتراباً، لا نلتقي بهافي زمن، ولا نجاورهافي وطن فهلم فلنكتبك بذلك عقداً، ينفذ على الاقصى والاداني فكتب رُقعة، ونسختها: هذا ما تحالفت عليه أصناف الشجر ، وضروب الزهر،

وسميتها وشتويها ربيعها وقظيها، ما نجمت من تلمعة أو ربوة، وتفتحت من قرارة
أو حديقة، عند ما راجعت من بصائرهما، وألهمت من مراشدها، واعترفت بما
سلف من هفواتها، وأعطت للورد قيادها، وملكته أمرها، وعرفت أنه أميرها المقدم
لخصاله فيها، والمؤمر لسوابقه عليها، واعتقدت له السمع والطاعة، والتزمت له الرقة
والعبودية، وبرئت من كل زهر نازعه المباهاة له، والانتداء عليه في كل وطن، ومع
كل زمن. فانه زهرة قضى عليها لسان الأيام هذا الحلف، فلتعرف ان ارشادها
فيه، وقوام أمرها به »

ذلك من الأساليب الجديدة في اللغة العربية، وليس أدل على سعة الخيال
ومتانة البلاغة ورقى الآداب من هذه الأساليب القصصية. لان كل أدب أو
بلاغة لا تحتوي على القصص وتمثل وتبين نفوس الكتاب وغيرها من
الأسرار الانسانية، التي لا تظهر الا في مثل هذه الموضوعات، تكون آدابا ناقصة
أو بلاغة مقصورة على كتابها وشعراتها. ولا تكون هذه الأساليب الا في أمة تربت
أخيلتها وعقولها تربية عامية فنية. ولقد ظهرت بوادر ذلك في بلاد الأندلس
عند بعض الكتاب، وخصوصاً في القرن الخامس حيث انفتحت أمام العقول
أبواب من الخيال، بسبب ما وجد هناك من الترف والبذخ وأبهة الملك. ولقد
كان هذا الباب الذي ولجه الكتاب في الأندلس يصل بهم الى طريق جديد
لم يسلكه كتاب العرب في المشرق، غير ان هذا الابتداء لم يستمر، ولم يجد له
أنصارا كثيرين، لعدم اعتيادهم هذا النوع من الكتابة، ولان الكتاب والادباء
لم يقسّم لهم بعد اقتباس هذه الأساليب القصصية. فكانوا يحتاجون الى زمن
طويل لصقلها في عقولهم والتعود على فهمها. ولقد كان أيضاً من الأسباب التي لم
تدفع الكتاب الى السير في هذا الطريق ان الدولة لم تدم طويلاً، والملوك الأدباء
ابتدؤا بختفون وقت ظهور هذا الأسلوب.

ويلاحظ ان هذا الأسلوب القصصي بدأ يظهر بشكل خيالي أكثر منه بالحقائق التي تلمس النفوس . وكان لا بد أن يتدعى بذلك لدى أمة ليس لها عهد بهذا . وقد كانوا يريدون الدخول في الموضوعات الاجتماعية، فلم يجدوا أمامهم نماذج يقفون أثرها، غير ما ابتكره أبو العلاء في رسالة الغفران من جمع الأدباء والمناقشة مع بعضهم بعضاً في مسائل اللغة والأدب . ولكن يظهر من كثير من المكاتبات والرسائل أن الأسلوب القصصي كان يتسرب إليها شيئاً فشيئاً، وان رسائل العتاب وغيرها تحتوي على كثير من الملاحظات الفكرية المتصلة بأحوال الناس والاجتماع. وهذا على ضعفه وقلته يعد من الأطوار التي تخطاها النثر في اللغة العربية. وكل ذلك يدل على تحرك العقول وميلها الى حب الجديد. والأساليب التي كتب بها هؤلاء الكتاب. أساليب حسنة التركيب، جميلة العبارات، تدل على ابتكار الكاتب وشدة عارضته. وانه وجه من وجوه الأدباء في ذلك العصر .

وقد كان ابن برد شاعراً أيضاً، وربما كان شعره أفضل من نثره، لانه ميال الى الصناعة في الكلام،، والصناعة أمراً على النفس في الشعر منها في النثر وكل شعره أو جله قطع صغيرة في الغزل . وشعره خفيف الروح، عذب التذوق كأنه نهمات موسيقية، أو فكاهات أو مسامرات . وله معاني ظريفة أخذها وتصيدا ونظمها، وألبسها لباساً من صناعته . كقوله .

أبدأ فأتى بعتب دون أن آتي بجُرم
بيننا في الحب قربى سقمُ عينيك وجسْمي

ومن قوله

يا كثير الجفاء لي ومُضيعاً وسائلي
طال حُبِّي ولم تفز منك نفسي بِطائل

١ قال ابن بسام وهذا كقول ابن الرومي
يا عيلاً جعل الملة متاعاً لسقمي ليس في الأرض عليل غير جنيتك وجسمي

أنت لي هاجرٌ وان كنتَ في ثوبِ واصلِي

أنتَ ان ررْتِ متهللاً كانَ أحلى مناهي

وجرى خياله في هذه المعاني شوطاً بعيداً ، وأخذ يتصيد ما فيها ويشه في

كلامه وشعره : كطيب ربح فم الحبيب ، واحترق فؤاده بنار الحب ، وغرقه في

دموعه . وله أبيات رقيقة في وزنها وقافيتها من الشعر المرقص الخفيف على النفس ،

الذي تليق قراءته بخفة وزنه ونغاته الموسيقية أكثر مما فيه من المعاني التي هي

معروفة لكل عاشق . كقوله :

بخداع عللوه وبهجر وصلوه

لم يبألوا يوم صد أي وجد حلوه

أخرجوه من محل للتسلي أدخلوه

بلغت منه الاعادي أي شيء أملوه

رُبَّ ستر للتصاني فوَّقه قد سلاوه

كلما سقوه كأساً إنر كأس قبلوه

وهلال بشري بنجوم كئلوه

في بهيم من ظلام بسناه أخجلوه

نشطوه ثم لما لان عطفا نبطوه

عزلوه عن وصال حسداً ثم ولَّوه

أما حبي فيكم مثلاً قد أرسلوه

وقال ابن بسام انه أخذ هذا الوزن والروى من قطعة لشاعر من شعراء

بغداد . وهكذا كان يسطو على المعاني وينظمها وعلى خيالات غيره وينسجها

على منواله . كقوله في معنى معروف .

والبدر كالموآة غير صقلها عبث العذارى فيه بالأنفاس
والليل ملتبس بضوء صباحه مثل التباس النقش بالقرطاس
فكان في كل شعره يميل الى زينة اللفظ والتشبهات البديعة ككثير من الشعراء
مثل قوله :

سقاني وجفن الليل يغسل كحلته بماء الصباح والنسيم رقيق
مذابا كذوب التبر أما بخارها فضخم واما جسما فريقيق
وكل شعره من هذا النوع وهو من الخيال الصرف يقلد المعاني ويضعها في
أوزان العروض ، غير ان هذا لا يحط من قدره ولا يغط من حقه في ميله الى
قول الشعر وذوقه الفنى . وله قصائد ذكرها صاحب الذخيرة في الجزء الأول

الأعمى التطيلي^(١)

عاش أبو جعفر أحمد بن عبد الله الأعمى التطيلي في أواخر القرن الرابع
وأوائل الخامس وكان من أشهر الأدباء في عصره^٢
أما نثره فهو نثر مسجوع من طبقة النثر الممتاز بسهولة العبارة وجودتها
ووضوحها ، وعدم التعمق في البحث عن الجمل والألفاظ مع حسن الاختيار
والافتنان وأشعار القارئ بأن للكاتب روحاً تدب ديباً بين جملة وألفاظه ، وإن
له قوة يظهر أثرها في تلاوة كلامه .

وأما معانيه فأقل ما فيها أنك تراه يحاول الأ يقتصر على اختيار اللفظ

١ تطيله بالضم ثم الكسر وياء ساكنة مدينة بالاندلس في شرق قرطبة (راجع منجم باقوت)
وهو معروف بالأعمى التطيلي نفع الطيب ج ٢ ص ٢٣٥ وفي القلائد والذخيرة الطليطي
٢ لم نقف له على ترجمة وافية . وقد حملنا على ذكره شهرته وماله في عالم الادب . وقد
مدحه الادباء كما دعتهم في كتبهم عند الكلام على الكتاب والشعراء فقال عنه ابن بسام :
له أدب بارع . ونظر في غامضه ولسع . ونهم لا يجارى . وذهن لا يبارى . ونظم
كالسحر الحلال . ونثر كالماء الزلال

وقالوا عنه انه نظم أخبار الامم المختلفة في لبة القريش . وعبارة الذخيرة تكاد تكون هي
بعينها عبارة القلائد . ولست أدري أيهما أخذ عن الآخر لان الفتح بن خاقان وابن بسام
عاشا في عصر واحد (فقد مات ابن بسام في سنة ٥٤٢ ومات الفتح سنة ٥٣٢ أو ٥٢٩)
والظاهر ان عبارة قلائد العميان كانت أشهر لان الضبي صاحب كتاب « بنية المتمس في رجال
أهل الاندلس » أشار إليها بل ذكرها ولكنه نسبها الى المطمح فأخطأ في هذه النسبة . لانها
ذكرت في قلائد العميان . واختصر الضبي على عبارة الفتح بمد أن أوجزها وأورد له شيئاً من
شعره الاستدلال على فضله . ولقد نبهنا هذا الأسلوب الى صعوبة دراسة كثير من الكتاب
والشعراء الذين لم يمن أصحاب التراجم والادباء بالكلام عنهم . ولم أجد عن الأعمى التطيلي
هذا شيئاً في ابن خلكان ولا في فوات الوفيات ولم يتسكلم عنه القرى في نفع الطيب بما يدل
على شيء من حياته . لذلك تقتصر على شيء من ذكر منظومه ومثوره والكلام على ذلك

وبلاغة العبارة . بل يريد أن يكشف شيئاً من أحوال النفوس ، ويضم ذلك الى جمال القول وبهجة المعاني . لذلك تجده في رسائله ينتقل من معنى الى آخر ، ويتكلم عن نفسه وغيره ، ويذكر المعنى العام والخاص ، ويتواضع ويفخر ، ويتملق ويتكبر ، ويستصغر نفسه ويستكبرها . كل ذلك في رسائل يرسلها في العتب أو التقرب أو الشكوى . وقد كان هذا هو الميدان الوحيد الذى يجوب فيه الكتاب ويظهرون خفايا نفوسهم ، وينشرون على العالم مطويات أفكارهم . وكان نوع الرسائل كل ما يعرفونه من أساليب الكتابة لبث شكواهم ، والتعبير عن آرائهم الشخصية . وكأنما هناك حجاز منيع بينهم وبين العالم الخارجى . فاذا تكلم أحدهم لا يتكلم الا عن نفسه ، واذا شكالا يشكو الا آلامه ، واذا مدح مدح لحصوله على خير ، واذا ذم ذم لوقوعه فى شر ، واذا وصف وصف ما يحيط به لا غير . ويكفى دليلاً على ذلك ان أنواع النثر عندهم انحصرت أو كادت تنحصر فى كتابة الرسائل الأخوية ، وان هذه كانت الصبغة الغالبة على النثر ، التى امتلأت بها بطون الكتب الأدبية . ولا يكاد يعثر الانسان على رسالة من نوع آخر . غير ان هذه الرسائل القصيرة وان خلت من معان اجتماعية عامة ، فانها مملوءة بنماذج الأساليب العربية البديعة ، والعبارات البليغة ، والأمثال الحكيمة ، والتراكيب المتينة ، والأفكار الناضجة ، وصور نفوس الكتاب ، ودقة ادراكهم وجل معلوماتهم . وهذه رسالة صغيرة فى العتاب للتطيلي :

«شاكرك أو شاكيك ، بل لأتمك ولأتم الأيام فيك ، ياسيدى كناية عن ذكره ، لاتوخياً لبره ، وأخى رغبة فى انصافه ، لاطمعاً فى استعطافه ، الذى عاطيته كأس الوداد فأمرها ، ورفعت اليه بنت الوداد فأضر بها وأضرها ، ومن أطال الله بقاءه ممتعا بظل السلطان ، واقبال الزمان . فان الرجل بسلطانه ، لا باخاواه ، وباقبال زمانه لا باحسانه . انى أعزك الله وان كان الدهر وضعنى ورفمك ، وضاق

عنى ووسعك ، فبين جنبيّ نفس عصام ، وبين فكيّ صارمٌ بسطام
«الشجو شجوى والعويل عويل» لا أستمير عينا للبكاء ، ولا أبتغى بكبدي كبداء
سليمة من الارزاء . وانك أعزك الله لما تكلمت بلسان سهل بن هارون، وجلست
بجلس الفضل من المأمون ، وخدمك الدهر ، وانثالت في يدك الأتجم الزهر ،
قلت احم وعلى ، وان لم يكن فشيح وري . وعلى رسلك ، ما كنت أنا لفظ في مثلك ،
انى أبيت طيآن ، ولا أبيت .. ، واحتمل الحرمان . ولا أحتمل الهوان ،
وليت هذا الأمر وقلبك بي معمور ، وأنت بزعمك لي فقير ، وأنا أظن انى
سأولىّ وأعزّل ، وأحدث في كنفك وأعدل ، فاهو الآن ثبتت قدمك ، وخفق
علمك ، وابتل قرطاسك وقلبك ، اختصرت شطر الاسلام¹ ، ودفعت في صدر
القيام ، عزلت فلانا قبل الولاية ، واقتصرت بأبي الأصعب دون الغاية . هينة أنا
كنت معناها ، وكاس لي شعثت حمياها . وولايتك خطر وفي علمك نظر ،
انما هو ظل غمامة ، وبيض حمامة . ثم تعود الى استحلاص البيت ، وأكل الخبز
بالزيت .

وقال في رسالة أخرى :

«ولم أزل منذ تخيل جناني ، وتقول لسانی ، وأدبر ملكي او شيطاني ،
ألتبس من أهل هذا الشأن ، ما أسعى باسمه ، وأحفل وأقيس على حكمه ، وأقل
وأحل ... وأعقد ، والناس كثير ، والناقد بصير ، والأمر أعجاز
وصدور . فكيف ترانى أتخذتك خليلا ، وأخذتك على الأيام عهداً مستولاً ،
وبايعتك على الطاعة والسمع ، وشايعتك سرى الاستطاعة والوسع ، ففعلت
عليك كعبة أوليّ وجهي شطرها ، وأسندت اليك هضبة أرفعى سوامي وعرها ،
لا كون قد قدرت هذه الطاعة قدرها ، وأبلغت نفسي في طلبها والتعلق بسببها . الخ»

١ هكذا في الاصل

اما نظمه في بعض قصائده كلام من الشعر الممتع ، مع طول لا يمل ،
وأراء تدل على فكر جوال وعقل ناضج . وكأنه حكيم يتكلم أو ينظم
الحكم . وهو مع ذلك شاعر بليغ متقن ، عالم بأساليب النظم البليغ والاسلوب
الخطابي ، الذي يجذب الاسماع والقلوب ، ويملاها حكمة وعظة ، واعجابا
وجالا . قال من قصيدة في المدح

عتاب على الدنيا وقلَّ عتابُ	رضيناً بما ترَضَى ونحنُ غضابُ
وقالت وأصغينا الى زورِ قولها	وقديستفدُ القول وهو كذابُ
وعمت على أبصارنا وقلوبنا	فطال عليها الحومُ وهي سرابُ
ودانت لها أهواؤنا وعقولنا .	وهل عندها إلا العناء توابُ
نلذُّ ونلهو والأعزة حولنا	رفاة وبسنى والديار خرابُ
ويخدعنا عسايرادُ بنا منى	لبحر المنايا دونهن عبابُ
ونفتنم الأيام وهي مصائب	لمن عليها جيثة وذهابُ
بكت هندن ضحك المشيب بمفرق	أما علمت أن الشباب خضابُ
وقالت غراب ماأرى وتجاهلت	وليس على وجه النهار نقابُ
هل الشيب الاالرشد حل غوايتي	فأصبحت لاينحفي على صوابُ
أعفو لصرف الدهر عن هفواته	على حين لاياأبى على عقابُ
وأتركه يمضى على غلوائه	وقد عز اعتاب وطال عتابُ
أينضب حسادى قيامى الى الملا	وقد قعدوا عما ظفرت وخابوا
همُ حسدونى لالوفر وفرتة	ولكن شهدت المكرومات وغيابوا

وما أجزل مدحه في هذه القصيدة ، فقد يرى الانسان فيها المدوح وعظمته
وسمو قدره ، وقد يصرفه جمال القول وسبك العبارات وبلاغة الكلام عمدا
في الشعر من المبالغة . بل قد يتجه فكره الى تذوق المعاني . وليس أببل ولا

أشرف من انسان يتصف بهذه الصفات . ولا أشعر من شاعر يحمل القراء على
صدق قوله ببلاغة كلامه وحسن أسلوبه . اذ يقول :

سجايأ على مر الليالي كأنما هي المزن فيها رحمة وعذاب
موارد فيها سم كل معاند ولكنها للمستفيد عذاب
مخوفتى ريب الزمان وقد حدثت برجلي الى ابن الحضرمي ركاب
إذا الله سنى لى لقاء محمد تفتح دونى للسماحة باب
فتى لم تسافر عنه آمال آمل وكان لها الا اليه اياب
له همم فى الجود والبأس لم تزل لها فوق أتياح النجوم قباب
وأقسم لولا ماله من مآثر لأصبح ربح المجد وهو يياب

ولقد تدب فى نفسه صناعة الشعر ، وتلعب برأسه ، كما تلعب الكأس ،
فيشمل ويقول فيشمل السامع معه ، وكأنه يترنح من صدق قوله ، والسامع يترنح
معه من عنوبة هذا المقال :

وهل أنا الا' عبد أنعمك التى هي الشهد اذ كلُّ الموارد صابُ
وهل شهد المجد الذى أنت سره فانك بجرئ والكرام عياب
وهل أنا يارضوان باسمك هاتف وهل لى الى دار المقامة باب
اذا قايسوك المجد كنت غضنفرأ اذا زار لم يثبت عليه ذئاب
وما أحمر الا من صيالك معرك ولا أخضر الا من ندادك ثياب

وما أقدره عل طول الكلام، وأصبره على الجرى وراء المعانى حتى يدركها .
ولقد مدح الوزير أبا الحزم ، فعرف كيف يمدح الوزراء . وبدأ قصيدته بشئء من
الغزل ، ولكنه غزل غير مبتذل ، وأسلوب عشقى غير ظاهر فيه السطو على
المعانى ، وكأنما هو من مبتكراته، على أنها معانى غيره ، وأسلوب سواه . كما قال

غداة وقفنا نقسم الشوق بيننا
وقد اطلمت تلك الهواجج أنجما
فأبت بدمعى لؤلؤا فوق نحرها
خليلي هل بعد المشيب تلمة
وهل راجع عيش لسنه أنفأ
وهل لي حظ من مواتاة صاحب
بدت رقة الشكوى على عطفاته
على ما اشترطنا وانقضت سنة القسم
تركن جنوني في الكرى أسوة النجم
وآبت بما في مقتلتيها من السقم
لذي الجهل أو في الحب شغل لذي العلم
كيوم لذيد في بيوت بني حزم
له قدرة القاضي ومواعدة الخصم
ورابتك في أعطافه قسوة الظلم
ثم أخذ في المدح بما يحمل القارئ على الاهتمام بالكلام وكأنه قيل فيه أو
أو كأنه كلام لم يسمعه . وليس ذلك لحسن الاسلوب وجماله لا غير ، بل لأن
الشاعر يعنى بذلك ، حتى يحمل القارئ على الاهتمام بما يقول . كما قال :

أبا جعفر هذى المكارم والعلا
أرى الناس قد باعوا المروءة فاشترت
وأنت أحق الناس بالحزم فأنته
وأنت بعيد الهم مقترب الجدى
وأحنى بألباب الرجال من الهوى
وأحمى لحوزات المعالي من الردى
دعاء أبحق او دعاء على غنم
وقد ضيعوا ما كان من حسب غنم
وحق العلا بالمال أشبه بالحزم
كريم السجايا ماجد الخلال والعم
وأخفى وراء الحادثات من الدهر
وأسخى بآمال النفوس من الحلم
وكل قصائده في المدح متينة جميلة (راجع الكلام عنه في الجزء الثاني من
الذخيرة) وربما كان في رثائه أجمل منه في مدحه . كقوله في قصيدة تشبه
قصيدة مالك بن الربيع وكأنه ملهم بأبياتها

على مثلها فلتبكي ان كنت با كيا
أنى كل يوم أودع الارض صاحباً
وأحسب أنى لورجوت مكانه
فقد عهد الاحباب الا تلاقيا
أريق به في الترب ماء شبابيا
يعز عليه أن يكون مكانيا

ولو أنى أحبته الحب كله لا تبغته نفسى وأهل وماليا
 خليلي من يطعم بشئ فأنى نفضت به لا بل نفضت فؤاديا
 وليس حياى غير شجو مرّددٍ عهدت له الا ألد حياتيا
 . وهذه القصيدة هي تقليد للشعر القديم المعروف ولكنها جميلة في بابها تدل
 على ذوقه وحسن سبكه في التقليد

وله في الغزل شعر يمتاز بطريقته وأسلوبه أكثر منه ببلاغته وجماله . فقد ساق
 قصيدة يتغزل فيها بفتاة تسمى لذيذة جعلها حديثاً بينه وبين امرأة تحببه وتسليه
 وهذا الأسلوب ليس من الأساليب الشائعة عند العرب . وهو أشبه بالمناظرة
 بين عاشقين . وكأما أراد أن يكشف في حديثه عن نفس العاشق بما أودعه في كلامه
 من الآراء ، وعما عسى أن يلاقى من الوسائل الناجحة بما في آراء تلك الفتاة
 فقال :

لما التقينا وقد قيل المساء دنا وأضلى بين منقض ومنقصف
 وأملّنتى أم المجد قائمة وأدمى بين منهل ومنسكب
 فقلت قلبى مسيى وأنك لو بمن أراك أسير الوجد والطرب
 وأعرضت ثم قالت قد أسأت بنا كتمت سري لم أكتمك كيف سبى
 فقلت أنى امرؤ لما لقيتكم ظناً أيجمل هذا من ذوى الأدب
 سبت فؤادى ذات الخال قادرة والمرء وقف على الارزاء والنوب
 ألهو بها رهى تلهو فى بلهنية ولانصيب لها منه سوى النصب
 أصابت القلب لما ان رمته ولو شتلن والله بين الجد واللعب
 فقالت اشكوا اليها مالقيت ولا ولورمته أخرى إذن لا شك لم تُصب
 عسى هواك سيّديها فينصبها ترهب فلم تبلغ الآمال بالرهب
 وقد يكوب الهوى أعدى من الجرب

قلت أعظمها بل ما أكلمها	الا أشار الى الموت من كُتِب
قالت أنا أتولى ذاك في لطف	فقد أؤلف بين الماء واللهب
قلت مثلك من يرجي لمعضلة	لا زلت في غبطة ممتدة الطنْب
صليه أو فاقتليه فالحمام له	خير من الهجر في جهد وفي تعب
فلو ترأى قد استسامت مرتقبا	منها حنان الرضا أو جفوة الغضب
حتى اذا ما ألانت تلك بجانبها	والقلب مها أرم تسكينه يَجِب
طفقت ألم كفيها وقد جنحت	اليك تضحك بين العجب والعجب
لله مثلى ما أدنى سجيته	من المعالي وأناها عن الريب
كم ما تم مستلذ قد هممت به	فلم يدعني له ديني ولا حسبي

ولقد ينظم الكلام المعروف فيغير من صبغته في النفس ، ومن معناه في
الفؤاد ، فيكون جديداً لان روح الشاعر غالبية على معانيه . كما في كلامه عن
لذيذة حبيبته . وله أبيات حكيمة بثها مدحه كقوله :

كم مقلدة ذهبت في العي مذهبا	بنظرة هي شان أولها شان
رهن بأضغاث أحلام اذا هجعت	وربما حلت والمرء يقظان
فانظر بعقلك ان العين كاذبة	واسمع بقلبك ان السمع خوان
ولا تقل كل ذى عين له نظر	ان الرعاة ترى ما لا ترى الضان
دع الغنى لرجال ينصتون له	ان الغنى لفضول الهم ميزان
واخلع لبوسك من شح ومن أمل	لا يقطع السبق الا وهو عريان
وصاحب لم أزل منه على خطر	كأننى علم غيب وهو حسان
أغراه حظ توخاه وأخطأنى	اما درى ان بعض الرزق حرمان
وغره ان رآه قد تقدمنى	كما تقدم باسم الله عنوان

ولقد ينظم الحكم والعبر في كلامه فتجده حكيما وشاعرا معا . كقوله :

تنافس الناس في الدنيا وقد علموا ان سوف يقتلهم لذاتها بدلا
قل للمحدث عن لقمان اوليد لم يترك الدهر لقمانا ولا لبدا
وللندي همه البنيان يرفعه ان الردى لم يفاذر في الثرى احدا
ما لابن آدم لا تقنى مطالبه يرجو غدا وغسى أن لا يعيش غدا

١ ووصف سدا يمج ماء من فه
أسد ولو أنى أنا قشه الحساب لقلت صخره
وكأنه أسد السما • يمج من فيه المجره
ومن قوله في الحكمة

واداعجت من الزمان لحادث فلتابع يبكى على متبوع
واذا اعتبرت العمر فهو ظلامه والموت منها موضع التوقيع
(راجع بفيه المتمس للضي صحيفه ١٨٦)
وقالوا انه اجتمع مع كثير من الادباء فبرز عليهم في موشعته التي يقول فيها
ضاحك عن جان سافر عن يدر ضاق عنه الزمان وحواه صدرى

ابن عبدون^(١)

كان ابن عبدون كاتباً ناثراً وشاعراً بليغاً . أما نثره فهو نثر أدباء عصره : كلام أشبه بالنظم منه بالسجع ، أو سجع مُتَعَمَّلٌ غير ظاهر فيه التكلف ، إذا قيس بغيره أو عورض بسواه ، أو معنى قصير في سلسلة من ألفاظ طويلة ، أو هو من نوع البراعة في الاحاطة باللغة وتنسيق الألفاظ ، أو ضرب من الافتنان الدقيق في اخفاء ابتدال الموضوعات والمعاني المعروفة تحت ستار من الصناعة . ولقد ينجيل الى الناقد ان الكتاب في ذلك العصر كان يقلد بعضهم بعضاً ، وان هذه هي الصفات التي تظهر فيها ميزة الكاتب ، وانه لا فضل لمن اكتسب هذه الملكة بكثرة ما يقرأ ويعلم من أساليب معاصريه ومعانيمهم . ولقد يظهر لنا ان هؤلاء الكتاب والشعراء سائرون في طريق واحد متشابه الارحاء والنواحي ، وأنهم يضربون على نفمة واحدة ، من حيث الكلام في الموضوعات المعروفة لهم ، وانه ليس لأحدهم فضل في غير الانفراد بالأسلوب واختيار الألفاظ واتباع

١ عاش ذو الوزارتين أبو محمد عبد المجيد بن عبدون في أزهى عصر من عصور الادب زمن ملوك الطوائف . وعاشر أذكى ملوكهم وأعلمهم باللغة والادب والتاريخ وهم بنو الافطس الذين اشتهر علمهم وفضلهم وعرف حبهم للادباء وأكرامهم اياهم وكان كاتباً للمتوكل على الله بن المظفر وناهيك بمن يكون في حضرة هؤلاء ويكتب لهم وهم العلماء والشعراء . وقد قالوا عنه انه كان أعجوبة في النظم والنثر ، من كبار حفاظ اللغة والادب في وقته . ورووا عنه وعن قوة حفظه انه أديب الاتدلس وامامها وسيدهما في عالم الآداب وان أيسر محفوظاته كتاب الاغانى . ومهما بالفوا في نسبة هذا اليه فذلك يدل على مقدار معلوماته وقوة ذاكرته . وهو فهرى من أصل عربى وتوفى سنة ٥٢٠ هجرية مدة سلطة المرابطين وقد اتصل بعد سقوط ملوك الطوائف بيوسف بن تاشفين وكتب له ولابنه -

الطرق التي يختارونها اقتفاء لآثار غيرهم . ولكن أليس من البراعة أن يشبه الكتاب جميع الكتاب ويعرف كيف يمتاز عنهم بمعانيه وأسلوبه ؟ إن العصر الذي يفص بالأدباء لمن أشق العصور وأصعبها على الكتاب والشعراء الذي لا يمتازون بشيء في مواهبهم ، وحتى على الكبار منهم ، الذين يحملهم ذكاؤهم وقدرتهم على أن يمتازوا ويظهروا على معاصريهم . إن ميزة الصناعة الأدبية والافتتان لا يكونان في اختلاف الموضوعات والأسلوب لا غير ، بل ذلك شيء كامن في نفس الكاتب لا يظهر الا على شبا قلمه ولا تمليه قريحته الا لشخصه .

قد يظهر للقارئ ان الكتاب أو الشعراء يشبه أحدهم الآخر هذا يمدح ويندم ، ويمتدح ويعشق ، وهذا يأخذ من لفظه ويسير على نهجه . ولكننا لنندم أن نرى في خلال هذه الصحف المتشابهة عبارات ومعاني جديدة ، وأساليب تدل على شخصية الكتاب والشعراء في هذه الألفاظ . وقد نجد جملة واحدة أو كلمة واحدة يستريح اليها الفكر وتطمئن اليها النفس

ربما كان ابن عبدون من هؤلاء فان له رسائل طويلة أكثرها مملوءة بالألفاظ المعروفة، والعبارات المأخوذة من كلام غيره والاطناب الذي يذهب بصبر القراء . وعلى الرغم من اعتباره من أكبر كتاب أهل زمانه ، ليس في كتاباته غير الطول الممل والسجع المتكلف^١ ولكن كان هذا الأسلوب من أفضل الأساليب . ولا ين عبدون في أسلوبه أحيانا شبه بأسلوب ابن زيدون، من ذكر الحوادث وأسماء الرجال^٢ أما شعره فأفضل من نثره. ومن قصائده القصيدة التي رثى فيها بنى الأفتس وذكر فيها أشهر حوادث الملوك وأشهر الدول البائدة الى أيامه . وهي قصيدة ممتازة في أسلوبها ومعانيها . قد احتوت على كثير من المعاني الدقيقة والملاحظات العامة . بدأها بالنفج والشكوى من الايام فقال :

١ ورسائله كثيرة في الذخيرة والمعجب ٢ راجع قلائد العقيان ص ١٤٨

الدهر يفتح بعد العين بالأثر
 انهاك انهاك لا آلوك موعظة
 فالدهر حرب وأن أبدى مسائلة
 ولا هوادة بين الرأس تأخذه
 فلا تغرنك من دنياك نومتها
 ما لليالى أقال الله عثرتها
 فى كل حين لها فى كل جارحة
 تسر بالشئ لكن كي تغربه

ثم أخذ فى سرد أصحاب الدول البائدة والملوك الماضية فقال :

كم دولة وليت بالنصر خدمتها
 هوت بدار وفلّت غرب قاتله
 واسترجعت من بنى ساسان ما وهبت
 وألحقت أختها طسما وعاد على
 وما أقالت ذوى الهيئات من يمن
 ومزقت سبأ فى كل قاصية

والقسم الثالث منها وهو رثاء بنى المظفر أبلغها ، لما احتوى عليه من
 الموعظة ، والاعتبار والتذكير بالأيام الماضية ، أيام العز والمجد الرفيع . وفيها كثير
 من المعاني المتكررة التى خالف بها سنة الرثاء المعهودة . وفى هذا يقول :

بنى المظفر والأيام لا نزلت
 سحقا ليومكم يوما ولا حملت
 من للأسرة أو من للاعنة أو
 من للظباوعوالى الحظاقد عقدت
 مراحل والورى منها على سفر
 بمثله ليلة فى غابر العمر
 من للأسنة يهديها الى الثغر
 أطراف أسنها بالى والحصر

وطوقت بالنايا السود بيضهم فاعجب بذلك ومامنها سوى الذكر
من للبراعة أو من للبراعة أو من للسماحة أو للنفع والضرر
أو دفع كارثة أو ردع رادفة أوقع حادثة تعمي على القدر
وله شعر كأنه هو من مبتدعيه رقيق المعاني والحاشية . كقوله في مدح
المتوكل.

وافاك من فلق الصباح تبسم وانجاب عن غسق الظلام نجهم
والليل ينحى بالأذان وقد شدا بالفجر طير البانة المترنم
ودموع ظل الليل تلحق أعيناً يرنو بها من ماء دجلة أرقم
يا صاحبي بين الفرات ودجلة ودع علاقة مسعد ومنم
وهو في مدحه من عشاق المتنبي وحفظة اسلوبه . ومع هذا التقليد ميزته
ظاهرة وروحه جذابة في كلامه، جلية في ان هذا له . كقوله يمدح أيضاً .

مضوا يظلمون الليل لا يلبسونه وان كان مسكي الجلابيب ضافيا
يؤمنون بيضا في الأكنة لم تزل قلوبهم جبا عليها جاجيا
وأغربة الظلماء تنفض بينهم قوادما مبلولة والخوافيا
اذا مرقوا من بطن ليل زقت بهم الى ظهر يوم عزيمة هي ماهيا
وان زعزعتهم روعة زعزعو اللجى اليها كما تأ والرياح مذا كيا
ولو انها ضلت لكان أمامها سنا عمر في فحة الليل هاديا
وصلت بها الهيجا عليه وسلمت

همام أقام الحرب وهي قميدة وروى القنانيها وكانت صواديا
ومن أساليبه في تقليد المتنبي قصيدته التي يقول فيها :

هيئات لا ابتغى منهم هوى بهوى حسبي أكون محبا غير محبوب
فما أراح لذكري غير مؤلة ولا ألد بحب دون تعذيب

والأصالح أيامي على دخل ليس النفاق الى خلقى بمنسوب
يادهر ان توسع الاحرار مظلمة فاستثنى.....
ولا تخل اننى ألقاك منفرداً ان القناعة جيش غير مغلوب
ماكل من سيم خسفا عاف مورده ان الالباء لظهر غير مركوب
وكم تأزرت الغيطان بي كرما واستنشقتنى أنفاس المناخيب
وله كثير من الشعر الجيد غير انه مقلد لشعراء المشرق . ولذلك لا تجد له
ديباجة واحدة ، ولا اسلوباً معروفاً ، ولا معانى مبتكرة.

ابن هاني^(١)

كان محمد ابن هانيء من أصحاب الظرف والخلاعة ، ذا أدب جم ، لا يبالي بما يفعل ولا بما يقول ، حتى قالوا عنه انه كان في كلامه كثير من الافراط والغلو في المدح المفضى الى الكفر ، وكان ينتجع أماكن الرزق لدى الخلفاء والامراء كغيره من الشعراء ويميش على متون الثواني . وكانت حياته ككل حياة الأديب التنقل والرحلة وانشاد الشعر وحفظه ، والاطلاع على الأدب واللغة

١ فإتأنا نذكر ابن هانيء في مقدمة الشعراء لتقدمه في الزمن عن ذكرنا ، ولكننا أنسينا ذلك . على ان الادب في الأندلس لا يظهر فيه اختلاف المذاهب الادبية ظهورها في المشرق وهو أبو القاسم محمد بن هانيء الازدي الأندلسي ، من أكبر شعراء الأندلس وأشهرهم . ذاع ذكره في المشرق والمغرب وتقدم على غيره من الشعراء . وعاش في أرغد أيام دولة بني أمية في الأندلس . فقد مات في سنة ٣٦٢ بعد أن عاش ستا وثلاثين سنة . فيكون مولده على هذا القول في نحو ٣٢٦ وهذه الأيام هي أزهى أيام دولة الأمويين وأبهى أيام عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم (مات الناصر سنة ٣٥٠ ومات الحكم سنة ٣٦٦) في هذا العصر عاش ابن هانيء . وظهر على الشعراء ولكنه لم يكن من بين شعراء الناصر ولا من حاشية ابنه . واصل أبيه هانيء من أفريقية . وكان هو أيضاً شاعراً مشهوراً وأديباً معروفاً ، فانتقل الى الأندلس ، فولد له محمد هذا بمدية أشيلية . واذ كان أبوه أديباً وشاعراً ، أي صنمته الاب يمشي منه ويرحل في طلب السؤال به ، كان ابنه أيضاً من عشاق الشعر . وكانت أشيلية اذ ذاك أخصب بلاد الأندلس علماً وأدباً . فنشأ بها وبرع في الادب واندمج في صف الشعراء لما كان له من الميل الى ذلك . وقد ورث الذوق الادبي عن أبيه وتربى على حب الشعر ، وعرف منزلة الشعراء وادرك ما كان لهم من رفعة الشأن والافاضة عليهم بالمال والثراء . وكان ذكياً نبهاً ميالاً للخفة والدعارة . وكانت بذرة اعترف والهو نبت في تلك البلاد فاندفع في هذه البيئة ندفاعاً واتصل بمساجب أشيلية . ونال حظوته وانهمك في الملاحى والملاذ ولم يكن له رادع نفسى ولا ديني . ثم جاهر بشيء من الآراء المسقوتة هناك ففضب عليه أهل أشيلية وسات المقالة في حق الملك بسببه واتهم بمذهبه . فأشار الملك عليه بالغبية مدة لئس فيها خبره فخرج من أشيلية وعمره ستة وعشرون علماً ورحل الى عدوة المغرب فلقى جوهر القائد (الذي فتح مصر للمعز)

وشيء من تاريخ الأدب وحياتهم ، ومعرفة أقوال الشعراء ، ووعي أشهر كلامهم وأساليبهم وطرق التصور لديهم ، وموازنة الكلام بمضه ببعض ، والامعان في معرفة الجيد والردى منه . لان ذلك كان له ولأمثاله المرجع الوحيد الذى يستمد منه أفكاره ومعلوماته وتصوراته ، التى هى كل شيء لديه .

هذه كانت حياته العقلية وحياته أمثاله من الأدباء الخالص الذين لم يشتغلوا بالعلوم ، ولم يتجهوا الى الاستفادة منها . ولم تكن لابن هانى نزعة أدبية فى غير الشعر . فقد أتجه اليه بكل قواه العقلية وحصر جميع ادراكه فيه . لذلك ظهرت مواهبه فى الشعر ، وكان له شأن رفيع بين كبار الشعراء .

أما شعره فهو فى جملة من الكلام الجيد . ونريد بالجودة هنا اختيار المعانى الداعية الى التفكير وحمل الذهن على البحث فيها ، ليدركها القارئ ادراكاً صحيحاً يتعظ به ، أو يستفيد منه شيئاً جديداً فى حياته العقلية ، أو يذكره برأى نافع ، أو مسألة صحيحة من مسائل الحياة والاجتماع ، كما هى الحال عند كبار الشعراء المفكرين . فشعر ابن هانى به كثير من ذلك تطمئن اليه النفس وتميل الى آرائه وتصديقها . وبه أفكار عامة فى الحياة والمجتمع الانسانى . وأكثر كلامه مملوء بهذه الآراء والخيالات الحكيمة . ولقد يجد الانسان روح المتنبئ تدب دبيباً فى كلامه أحياناً . وكأنه لا يحسب من الشعراء الخياليين الذين جاؤا بعده بأنواع الخيال وتفرغوا لذلك ولم يلجوا . باب الحقائق الانسانية فى شيء

أحد ملوك أفريقية ثم اتصل يحيى بن على بن بحر أحد ملوك طنجة وأخيه جعفر صاحب فبالغا فى اكرامه . ثم علم به المعز الميمنى أحد ملوك أفريقية فأجرى عليه كثيراً من العطايا وكرمه اكراماً عظيماً وكان محباً للعلم والأدب وسافر المعز هذا الى مصر فشيعة ابن هانى ورجع الى المغرب لآخذ عياله . ولما وصل الى برفة أضافه شخص هناك وبقى عنده اياماً فى هناك وسرور ومجون بلغ أشده وقالوا انه خرج من تلك الديار وهو سكران فنا فى الطريق فأصبح ميتاً ولم يعرف سبب موته وقيل عربدوا عليه وقتلوه . ولما بلغ المعز خبر موته أسف أسفاً شديداً وقال كما نريد أن نفاخر به شعراء الشرق فلم يقدر لنا ذلك

ولا طرقوا أبواب الحكمة ، بل اقتصروا على الأوصاف والتشبيهات . على ان ابن هاني رغم طريقته المعروفة التي نسبت اليه، كان يظهر عليه انه ناقل ومقلد في تلك المعاني التي حدث في زمن المتنبي ، وفي الأساليب العربية التي كانت قبل ذلك . فان منهجه في كلامه وأسلوبه لا يدل على غير ذلك . غير أنه بارع في جمع المعاني الغربية ونظمها ، واقف على كثير منها ، مستجمع لطائفة عظيمة من الآراء الحكيمة والأمثال والمواعظ ، يذكرها المناسبة ولغير مناسبة . وله في كلامه آراء تشبه الناقد البصير للاجتماع والناس ، ولعل هذا هو الذي حمل على القول بانه كانت له آراء ممقوتة وسموها آراء فلسفية .

ولقد جرى في أسلوبه على الاسلوب القديم : بالبدء بالفرزل والاسترسال فيه ، وذكّر المعاني القديمة المعروفة عند الشعراء ، ولعل ذلك جاءه من تمكنه من الشعر القديم وحفظه كثيراً منه . ويأتي في قصائد المدح بكثير من الآراء والافكار المختلفة وهي طريقة المتنبي بعينها . وبعض هذه القصائد مملوءة باوصاف الحروب وتمجيد الامراء . وأسلوبه أسلوب رشيق سهل . حتى ان أبا العلاء المعري قال فيه : « ما أشبهه الا برحى تطحن قرونا لاجل القعقة التي في ألفاظه » وقال الضبي صاحب بغية المتمس . « وهو كثير الشعر ، محسن مجيد ، الا ان قعقة الألفاظ أغلب على شعره » . وربما كان أسلوبه دليلاً على قول من يدعى ان شعراء الأندلس رغم ما كان لهم من الامتياز في الفكر والأساليب كانوا يقفون أثر البدو القدماء .

وأول شيء يشعر به الانسان عند قراءة شعر ابن هاني انه شاعر لا كغيره من الشعراء ، شاعر ممتاز عن سواه ، وكفى بذلك دليلاً على ملكة الشعر لديه . ان الصبغة الخاصة التي تدل على أثر الشاعر أو الكاتب أو على شيء من شخصيته في كلامه هي علامة من علامات الافتنان التي من أجلها يحسب من بين الفنيين وليس الافتنان غير أبرز الجلال وكشف دقائق ما فيه

وما هو جمال الشعر ؟ أليس هو ذلك الديدب الذى يدب فى النفوس
 فيملأها بهجة وارتياحا ، ويحملها على الاعجاب بالكلام وما فيه ؟ أليس جمال
 الشعر فى تلك الرنات التى تطرب النفس وتحركها كما تحركها رنات المزاهر
 والأغاني ؟ أليس جمال الشعر فى الألفاظ والمعاني وتنسيقها وتناسبها وتقابلها
 وترتيبها ، ونظمها وجمعها بأسلوب يتحايل به الشاعر على أن ينال من نفس غيره
 وشعوره ، وأن يتقرب الى فؤاده وامتلاك عقله ، وأن يحرك القلوب والعواطف ،
 ويحكم على العقول بالأصغاء اليه ، والتصديق لما يقول ؟ . هذه حقيقة جمال الشعر
 كما أن ذلك هو سر كل فنون الجمال . وأكثر جمال الفنون هو فى معرفة تصوير
 الأشياء أو المعانى مع دقة الفنى فى ذلك . ولقد يكون الافتنان تقليداً متقناً لشيء
 معروف . هذا التقليد المتقن هو ما يراه الانسان جميلاً . فليس من لوازم الافتنان
 فى الشعر ابتكار المعانى ، بل الاحاطة بها مع دقة ابرازها .

وهذا ما يشعر به القارئ فى أكثر شعر ابن هانى* ، يشعر بسعة خياله ،
 ودقة ادراكه ، وحسن اختياره ، وتنسيق صناعته ، وافتنانه الخاص ، الذى يدل
 على ان الكلام كلامه ، والاسلوب أسلوبه . يتغزل ابن هانى كما يتغزل غيره .
 ولكنه غزل غير غزل غيره ، تشعر عند قراءتك له انه شاعر ممتاز ، له صفة
 خاصة وذوق خاص . يغرب فى غزله ويتعجب من جمال محبوبته ، ويخاطبها
 ويصفها بما يدعو الى الاعجاب بها ويحرك العواطف اليها . وكأنما ذلك كله أثر
 غرامه الصحيح ، ووجه الصادق ، وربما لم يكن شيء من ذلك . أرايت كيف
 يتغزل فى قصيدة مدح :

فتكات طرفك أم سيوف أبيك وكؤوس خمر أم مراشف فيك
 أجلاد مرهفة وفتك محاجر مانت راحة ولا أهلوك
 يابنت ذى البرد الطويل نجاده أكذا يجوز الحكم فى ناديك

قد كان يدعوني خيالك طارقاً حتى دعاني بالنسا داعيك
 عينك أم مَعْنَاك موعدنا وفي وادي الكرى ألقاك أم واديك
 منعوك من سنة الكرى وسروا فلو عثروا بطيف طارق ظنوك
 ودعوك نشوى ماسقوك مدامةً لما تمايل عطفك اتهموك
 حسبوا التكحل في جفونك حليةً تالله ما بأكفهم كحلوك
 ولوى مقبلك اللثام وما دروا ان قد لثمت به وقبل فوك

قد يكون تشبيه العيون بالسيوف معروفًا ، وقد يكون تشبيه الريق بالخر
 والاشارة الى ان التكحل غير الكحل معروفًا أيضاً ، ولكن ما ليس معروفًا هو
 ذلك الأسلوب ، هي روح الشاعر التي لبست هذه المعاني ، وكأنما قيست عليها
 أو كانت من مبتكراتها. ولقد يأتي في أثناء كلامه بعمان وتشبيهات بدیعة مع أسلوبه
 المعروف في البده بالغزل . كقوله :

امسحوا عن ناظري كحل الشهاد وانفضوا عن مضجعي شوك القناد
 أو خذوا مني ما أبقيتُموا لا أحب الجسم مسلوب الفؤاد
 هل تُجِيرُونُ حُبًّا مِنْ هَوَى أو تفككون أسيراً من صفاد
 أسلواً عنكم من هجركم قلما يسلو عن الماء الصواد
 أما كانت خطوب قُبِضَتْ فعدتنا عنكم إحدى العواد
 فعلى الأيام من بعدكم ما على الظلماء من لبس الحداد
 لا مزاراً منكم يدنو سوى أن أرى أعلام هَضْب أو نجاد
 قد عقلنا العيس في أوطانها وهي انضاء ذميل ووخاد
 وحديث عنكم كثره عن نسيم الريح أو برق الغواد
 لم يزدنا القرب الا هجرة فرضينا بالتنائى والبعاد

وإذا شاء زمان رابنا برقيب أو حسود أو معاد
ثم دخل على المدح بهذا الأسلوب والاطناب الذي لا يمل، مع اختياره جميل
الصفات وتعدادها، حتى انه ليخيل الى الانسان انه أفضل مدح، أو انه ليس وراء
ذلك من اطراء . فقال :

من امام قائم بالتوسط أو منذر منتخب للوحي هاد
أهل حوض الله يجرى سلسلا بالظهور العذب والصفو البراد
أسوام ابتغى يوم الندى أم سوام ارتجى يوم المعاد
هم أباحوا كل ممنوع الحمى وأذلوا كل جبار العناد
وإذا ما ابتدر الناس العلى فلمهم عاديتها من قبل عاد
ولهم كل نجاد مرتدى ولهم كل سليل مستجاد

ولقد يرق في كلامه فيأتي بالمرقص والمطرب ، حتى لا تعرف أهو شاعر أم
مادح أم عاشق أم مبتكر المعاني أم موحى اليه بها كقوله :

قد مررت على مغانيك تلك فرأينا فيها مشابه منك
عارضتنا المها الخرائد أسرا بأجرعها فلم تسأل عنك
لأيرع للمهأ بذلك سرب فلفد أشبهتك ان لم تكنك
فحين مرجع كحنيي وتشك مردد كتشكي
فأنت تسكب الدموع كسكبي ثم لاتسفك الدماء كسفي
لأرى كابن جعفر بن علي ملكا لابسا جلالة ملك
تتغادى القلوب منه وجيباً في مقام على المتوج ضنك
وطويل النجاد فرج منه جانب السجف عن حياة وهلك

ولقد يصف فيبديع في الوصف ، وتظهر ميوله المجونية في شعره ، فيكون

أصدق ما يكون، وأرق إنسان، عذب الالفاظ رشيقاء خفيف الروح مبدا جذابا :

قنن في مآتم على العشاق ولبسن الحداد في الأحداق
وبكين الدماء بالعنم الرط ب المقتنا وبالحدود الرقاق
ومنحن الفراق رقة شكوا هن حتى عشقت يوم الفراق
ومع الجيرة الذين غدوادم مع طليق ومهجة في وثاق
حاربتهم نوائب الدهر حتى آذنوا بالفراق قبل التلاق
ودنوا للوداع حتى ترى الأجياد اد فوق الأجياد كالأطواق
يوم راهنت في البكاء عيوناً فتقدمت في عنان السباق
أمنع القلب أن يدوب ومن نع جمر الغضى عن الاحراق
رب يوم لنا رقيق حواشى اللد سهو حسناً جوال عقد النطاق
قد لبسناه وهو من نفحات ال مسك درع الجيوب درع التراق
والأباريق كالظباء العواطي

مصغيات الى الغناء مطلا ت عليه كثيرة الاطراق
وهي شم الأنوف يشمخن كبراً ثم يرغض بالدم المهرق
قدمتها السقاة كي يوقروها صمماً عن سماع شاد وساق
فهي اما يشكون ثقلا من الوة ر واما يبكين بالاماق

و يمزج أسلوبه بشيء من أساليب غيره ، كتقليده المتنبي ، حيث ييث
الحكم ، أو شيئاً من التهمك ، بينما هو يتكلم في المدح او في الغزل . ولقد يسبق
الى فكره شيء من المبالغة فيجرى به لسانه فكأنه يقول ذلك عن غير قصد . كقوله
في المدح

وما الجود شيئاً كان قبلك سابقاً بل الجود شيء في زمانك حادث
وفي هذه القصيدة يقول

عبثت زماناً بالليالي وصرفها فهاهي بي لوتعلمون عواث
لئن كان عتق النفس للنفس قاتلا فاني على حتى بكفى باحث
وان كان عمر المرء مثل سماحه فان أمير الزاب للارض وارث
اذا نحن جتناه اقتسمنا نواله كما اقتسمت في الأقربين الموارث
وان حراماً أن تؤمل غيره كما حرمت في العالمين الخباث
تبسمت الأيلم عنك ضواحكا كما ابتسمت حو الرياض الدماث
وسد ثغور الملك بعد انثلامها وقد أظلمت تلك الخطوب الكوارث
فازاد في بجموحة الملك رائد ولا عاث في عريسة الليث عاث

وكثير من قصائده هي من نوع مزج الغزل بالحماسة والمدح. وينتقل من معنى الى آخر، ويميل دائماً الى الوصف الغزلي. كقوله

قر لهم قد قلده صارما لو أنصفوه قلده ككوبا
صبغوه يوماً بالشقيق وبالرحيم سق وبالبنفسج والاقحى مشربا
وكأعما طبعوا له من لحظه سيفاً رقيق الشفرتين مشطبا
قد ماج حتى كاد يسقط نصفه وأذيل حتى كاد أن يتسربا
خالسته نظرا وكان موردا فأحمر حتى كاد أن يتلهبا

فاذا مدح وصف وذكر صوراً كثيرة من الحوادث التي مرت في حياة المدوح فبنت مجده ورفعت قدره. وقصائده في ذلك كثيرة. وهو في رثائه جيد أيضاً، يأتي بالعظة والعبير. وذلك هو الأسلوب الفلسفي المعروف في المشرق. ومن كلامه في ذلك قصيدته التي يقول فيها.

وهب الدهر نفيساً فاسترد ربما جاد بخيل فحسد
كلما أعطى فوفى حاجة بيد شيئاً تلقاه بيد

كاذب جاء جهاما زبرجا بعد ما أومض برق ورعد
أنها شئشنة من أخزم قلما ذم بجيل فحمد
خاب من يرجو زمانا دائما تعرف البأساء منه والنكد
فاذا ما كدر العيش نبي واذا ما طيب الزاد نفذ
فلقد أذكر من كان سها ولقد نبه من كان رقد
ابدا يعجم منى نعمة وقناة ليس فيها من أود

واستقصاء الجيد من شعره يدعو الى الخروج من مثل هذه الملخصات، فعلى

من يريد الاطلاع على شعره أن يرجع الى ديوانه المطبوع بمصر سنة ١٢٧٤ هـ

ابن الحداد^(١)

كان ابن الحداد من أهل الجند وأصحاب الاطلاع وأهل الذوق في الادب واللغة ، لأن نثره نثرفني مملوء بالمعاني، وأسلوبه سهل متين، هو أسلوب أديب مطلع على أحوال الاجتماع ونفوس الناس ، هادىء في كلامه ، جزل في ألفاظه واضح غير متكلف في معانيه ، يلمح المعنى في ذهنه كما يلمح اللفظ اللائق به وكأنما يتقابل المعنى واللفظ في خاطره فيلبس أحدهما الآخر ويتمزج هذا بهذا ، أو كأنما قيس كل منهما على سمت صاحبه . فإذا أراد أن يكتب أزدحمت أمامه المعاني ، وتراكت عليه الأمثال والحكم والتراكيب العربية التي تمر بذهنه وإذا كرت ، فيأخذ منها ما سبق الى لسانه، وما علق بداكرته . لذلك تجددت رسائله المعنى الطريف واللفظ الطريف ، وكلام غيره وصناعة سواه ، من مناهج الادباء وأساليب الشعراء . وهو كأنه نقاد يختار منها الجياد . لا يخرج عن المعنى

١ هو الاديب أبو عبد الله محمد بن الحداد . عاش في دولة ابن عباد وتوفي سنة ٤٨٠ وكان ملازماً للمعتصم بن صمادح أحد ملوك الطوائف الذي كان معاصراً للمعتد بن عباد أيام دخول يوسف بن تاشفين في الأندلس . وقد عاش ابن الحداد في كنف ابن صمادح وابنه ممن وخصهما بمدحه . وعرف كيف ينزل من نفس المعتصم بن صمادح منزلة الشرف والوقار وكيف يمدحه غير متبدل ولا متغال . وكان لا خلاقه أثر في ذلك لأنه كان كبير النفس مبعجلاً محترماً من جميع الناس .

وذكره الادباء والنقاد ببعض الآراء الفلسفية في شعره وميزوه عن بقية الشعراء والنكاتب من أصحاب الأساليب الخيالية . وقد حسيوه من أصحاب الآراء الفلسفية لابتعاده في كثير من شعره عن المجون الذي كان سمة لآكثر الشعراء هنالك . وكانوا يحسبون الكلام الجدى الخالي من المزج والهزل فلسفة كما نسبوا اليه الفلسفة في قوله

لزمت قناعتي وقمعت عنهم فلست أرى الأمير ولا الوزير
وكنت سير أشعاري سفاها فعدت لفلسفاتي سرا

الذى يريد ، ولا عن الرأى الذى اليه قصد . ويقفو أثر المعانى أكثر من اقتفاء الألفاظ . وقله جواب ، ونفسه طويل ، وكلامه فيه كثير من الأطناب ولكنه غير ظاهر ظهوره فى كلام غيره . وجملة القول ان أسلوبه النثرى من الاساليب الأدبية التى تساعد على تقويم اللسنة مما اعترأها من العجبه . وهذه رسالته

«لما كان الكتاب أعزك الله جلاء الاقضاء ، وصقال الاصداء ، وعقال الادواء ، (وسمتني منه بوسام ، ولفحتني منه بسموم ، وأسرت حسوا فى ارتغاء ، وأدجت ذما فى ثناء ، والحر يأنف من الضيم ، ويشمئز من الدم ، ولا يقتصر على الاجزاء ، بغير الجزاء ، ولو ترك القطا ليلا لنام ، وفى العتاب حياة بين أقوام ، فاصطبر شرب صبره ، وانتدب لتسوغ مره ، فمن الحكم العدل ، والقضاء الفصل ، أن أذعك بما لذعتني ، وأجرعك بما جرعتني ، غير آفك فى حال ، ولا سبأته بمحال ، والتسويه ليس من خلق الكريم ، والحر على ما أساء يصير ، وكل كجحر فى الخلاء يسر ، والفضل لمن حواه ، لا لمن زخرف دعواه ، وتحقيق البرهان ، غير تسيق البيان ، والسؤدد فى محاسن الخلال والفعال ، لا فى امكان الزمان ، واقبال السلطان ، وقيمة كل امرئ ما يحسن . أمثال اضربها عليك ، واضحة المناهيج ، ومقدمات أنشأتها معك ، صادقة النتائج ، وجل تشمل على تفصيل حالينا ، وبند تشير الى ما فيه جرينا ، وقد همني عتابك واجلابك بريح تعصف ، ورعد يقصف ، واستقبلنى خطابك واطنابك ، بويل يخسف ، وسيل ينسف ، بلغ الزبى وزاد ، وغمر الربا والوهاد ، لوأم الجلالى لاقتلع أزهاره وطمس أنواره الخ'....»

أما طبقته بين الشعراء ، فهو من الشعراء المفكرين أكثر منه فى صف الخياليين الذين يصفون الأشياء وصفاً أو يذكرونها كما يرونها . وحتى فى كلامه الوجدانى

١ راجع بقية الرسالة فى الجزء الأول من الذخيرة

له أسلوب خاص ، يدل على أن فكره هو الذى يرشده ، ويحرك لسانه ، ويملى عليه بيانه . ومع انه كان من أهل الفكر ورجال العلم المحترمين ، كان له شعر فى الغزل ووصف عواطفه ، ظهرت فيه مواهبه فى هذا النوع .

واشتهر عنه انه أحب فى صباه فتاة نصرانية ذهبت بلبه ، وكان يسميها نويرة قد اتخذ عشقها وسيلة للتكلم فى أوصاف المسيحية والقسس والكنايس والصلوات ، من الأشياء النادرة فى الشعر العربى ، نخرج عن عادة الشعراء فى الاقتصار على أوصاف النفوس وآلامها عند الكلام على العشق . وهذا يدل على شىء من الابتكار ، وسعة الخيال ، وتأثر الشعر وعقول الشعراء بما يرون فى الحياة . وكلام ابن الحداد فى النصرانية وأهلها وان كان قليلا فهو جديد فى الشعر العربى ، ألمح اليه بعض الأملح المنبئى وأبو العلاء وغيرهما ، مع ان كثيراً من الشعراء كان يعيش مع هؤلاء الناس ويرى أعمالهم الدينية ، ولكن تقصر فى خيالهم وجمود فى عقائدهم ، لم يحوموا حول هذه الموضوعات فى الكلام على من كانوا يعيشون من الامم التى تدين بغير دين الاسلام ، وما كانوا عليه فى أعمالهم الدينية الملوثة بالالهامات الشعرية والخيالات

وليس ابن الحداد أول من أحب نصرانية من الشعراء حتى كان ذلك سببا من أسباب طرق هذا الموضوع لديه . ولكنه كان يرى مالا يراه غيره . قال فى حبيبته :

فان لى بالروم روميسة	تكنس ما بين الكنيسات
أهيم فيها والهوى ضلة	بين صواميع وبيعات
وفى ظباء البدو من بزدرى	بالظبيات الحضريات
أفصح وجدى يوم فصح لهم	بين الاريطى والدوحات
وقد أتوا منه الى موعد	واجتمعوا فيه لميقات

مواقف بين يدي أسقف ممسك مصباح ومنسات
 وكل قصم مظهر للتسق مبد لانصات واخبات
 وعينه تسرح في عينه كالذيب يبغي فرس نجمات
 أى امرئ سالم من هوى وقد رأى تلك الطيبات
 وقد تلوا صحف أناجيلهم بحسن الحان وأصوات
 يزيد في نفسه يعافيره عنى وفي ضغط صبايات
 والشمس شمس الدجن من بينهم تحت غمامات اللنانات
 وناظرى مختلس لمحا ولحها يضرم لوعاتي
 ففي الحشا نار نوية علقها منذ سنيات
 لا تنطفى وقتا وقد رمها بل تنلظى كل أوقاتي
 حيا عنى رشا بالحناء وان أبى رجح تحياتي

قلنا ان هذا شيء جديد في الشعر العربي أو من نوادر أشعار العرب . جاء هؤلاء الشعراء من اختلاطهم بغيرهم . وقد رأينا رسالة نثريه لابن شهيد تشبه هذا وهذا الكلام جديد أيضا في أسلوبه ، لانه تكلم في حبيته ثم في القسس ، ووصف الصلاة والغناء ، وكل هذا جديد ، لان شعراء العشق قلما يخرجون عن الكلام من وصف النساء الى شيء آخر . على ان هذه العبارات طريفة . وقال في هذه الفتاة وهو من نوع هذا الشعر :

فان الحسن ولا كاحياي واهلاكي
 وأولمتي بصلبان ورهبان ونسك
 ولمآت الكنائس عن هوى فيهن لولاك
 وها أنا منك في بلوي ولا فرح لبواك
 ولا أستطيع سلوانا فقد أوتقت اشراكي

وكم أبكي عليك دما ولا ترئين للباكي
 فهل تدرين ما تقضى على عينيَّ عيناك
 وما يذكيه من نار بقلبي نورك الذاكي
 حجبت سنالك عن بصري وفوق الشمس سمالك
 وفي الغصن الرطيب وفي النقا المرّج عطفاك
 وعند الروض حدا ك وفي رياه رياك
 نورة ان قلّيت فاه نى أهواك أهواك
 وعيناك الشهيدان بانى بعض قتلاك

وقد أقتن في معانيه وفي كلامه في هذه النصرانية، واجتهد في مزج أوصافها
 ومسائل عقائدها في شعره، فأخذ شعره لونا جديداً باهراً غير مألوف في العربية .
 ففيها يقول :

وبين المسيحيات لى سامرية
 مثلثة قد وحد الله حسنها
 وتحت الحمار الجون حسن كأنما
 وفي معقد الزنار عقد صبايى
 بعيد على الصب الحنيفة أن تدنو
 فني بها من قلبي الوجد والحزن
 تجمع فيه البدر والليل والدجن
 فمن تحته دِعص ومن فوقه غصن

وفي هذا المعنى يقول أيضاً :

وفي شرعة التثليث فرد مُحاسن
 وأذهل نفسى فى هوى عيسوية
 فمن لفسوتى بالتماح نورة
 سبتنى على عهد من السلم بيننا
 تنزل شرع الحب من طرفه وحيا
 بها ضلت النفس الجنيفية الهديا
 فتاة هى المأوى النفيس أو الحيا
 ولو انها حرب لكانت هى السيبا

واصطبح مع المعتصم يوماً ومعه ندماءؤه وأظهر صببية متصرفة في أنواع
اللعب والطرب، وحضر أيضاً لأعب مصرى هناك قارتجل ابن الحداد :

كذا فلتلح قمرًا ظاهرا	ونجنى الهوى ناظرا ناظرا
وسيبك سيب ندى مغدق	أقام لنا هاملا هامرا
وان ليومك ذا رونقا	منيرا لنور الضحى باهرا
صباح اصطباح باسفاره	لحظنا عجيا الملا سافرا
وأطلعت فيه نجوم الكؤوس	وما زال كوكبها زاهرا
وأسمعتنا لاحنا فائنا	وأحضرتنا لاعبا ساحرا
يرفرف فوق رؤوس القيا	ن فننظر ما يذهب الناظرا
ويحفظها ذيل سرباله	فتبصر طالعا غائرا
فظاهرها ينثنى باطنا	وباطنها ينثنى ظاهرا
وثناه ثاب لأعابه	دقيق ثنى الحجى حائرا
وفي سورة الراح من سحره	خواطر دهت الخاطرا
اذا ورد اللحظ أثناءها	فما الوهم عن ووردها صادرا
ومن بدع نماءك أبداعه	فما أنفك عارضها ماظرا
وسعدك يجتذب المغربات	ويجعل غائبها حاضرا

ولقد كان يمزج هذه الخيالات الجميلة بالمدح . كقوله في مدح بنى هود وقد
أكرمه المقندر وأعلا من شأنه فدحه بقوله :

أسالت غداة البين لؤلؤ أجفانى	وأجرت عقيق الدمع فى صحن أجفانى ^١
وألقت حلاها من أسى فكأنها	أطارت شوادى الورق من قنن البان
وأذهلها داعى الهوى عن تنقب	نجيا محياها بتفاح لبنان ^٢

وقد أطلقت فوق الأقاليم بنفسجا
وليل بهيم سرته ونجومه ازاهر روض أوسواهر أجفان
كأن الثريا فيه كاس مدامة وقد مالت الجوزاء ميلا نشوان
وما الدهر الا ليللة مدهمة وشمس ضحاها أحمد بن سليمان
وقصائده كثيرة في الجزء الأول من الذخيرة، وفيها جملة من نثره، وذكره
صاحب فوات الوفيات في الجزء الثاني. وابن خاقان في مطمح الأنفس. وفي فهرس
الجزء الثاني من نفتح الطيب طبع أوروبا المواضع التي ذكره فيها المقرئ

ابن خفاجة الأندلسي

هو أبو اسحق ابراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة الأندلسي الشاعر الأديب المشهور . ولد ببلدة شقر ، ويطلق عليها العرب جزيرة شقر . وكانت ولادته سنة ٤٥٠ وتوفي بها سنة ٥٣٣ . عاش في عصر المرابطين بعد زوال دولة بني أمية والدولة العامرية ، وبعد انتهاء دولة بني عباد ، أي في عصر كان نضج اللغة والأدب بلغ أوكاد يبلغ منتهاه ، وكان الادباء في هو ومجون ، وكانت الملاهي والاشتغال بالمذات صرفت اليها العقول ، وجذبت اليها الافكار ، فهذبت منها قليلا أو كثيرا . واذا استولى اللهو على النفوس عشقت الجمال ، ومتى عشقت الجمال مالت الى فهمه ، وانغمست في ادراك أسرار الطبيعة وما فيها من روعة وابداع . فاذا كانت النفوس قد تهذبت بالعلوم والفنون المختلفة ، أدركت جمال الكون ادراكا عميقا - كما يقولون - وبجحت عن خفاياه بحث الفيلسوف عن الحقائق ، وكان الشاعر فيلسوفا فنيا وشاعرا فيلسوفا ، يظهر الفيلسوف في ثوب شعري ، ويظهر الشعر في ثوب فلسفي . أما اذا كان فنيا بطبعه ، ولم يكن له نصيب من العلوم ، فانه يكتفى بالنظر الى الأشياء وفهم جمالها ، على حسب ما بها من التناسق الظاهر ، والمناظر الباهرة ، وجمال الألوان ، وكل ما توحيه الطبيعة الى النفس من الأعجاب . ولقد يؤثر هذا الشاعر في النفس بجمال قوله ، كما يؤثر الفيلسوف بحكمه وصدق ادراكه .

ومثل ابن خفاجة مثل ذلك الشاعر الذي وقف كل مواهبه لادراك الجمال ، وفهم ظواهره الرائعة المبتوثة في أنحاء الكون : فهو من الشعراء الذين

رتبهم الطبيعة بجمالها ، وهذب ادراكه جمال الوجود ، فاتجه بجميع قواه العقلية
والخيالية الى معالجة التعبير عن هذا الجمال ، وانغمس انغماسا في ذلك ، حتى
أصبح لا يكاد يدرك غير هذا النوع ، ولا يفهم غير المعاني الجميلة . فقد كان
يخرج الى البرارى ليسمع خرير المياه ، ويتمتع بهذه الاصوات والمشاهدات. وكان
له ولع بهذا ، وبكل ما يقال فيه ، حتى لقد كان يجارى الشعراء ويعارضهم في مثل
هذه المعاني التي شغلت عقول كثير من الادباء والشعراء . وكان الكلام في مناظر
الطبيعة اذ ذلك من بدع البلاغة والأدب . فقد قالوا « ركب بعض الادباء مع
أصحاب له في نهر اشبيلية في عشية سال أصيلا على لجين الماء عقيانا ، وطارت
زواريقها في سماء النهر عقبانا ، وأبدى نسيمها من الامواج والدارات سررا
وأعطانا ، في زورق يجول جولان الطرف ، ويسود أسود الطرف ، فقال بديها :

تأمل حالنا والجو طلق محياه وقد طفل المساء
وقد حالت بنا عذراء حبلى تجاذب مرطها ربح رخاء
بنهر كالسجنجل كوثرى تعبس وجهها فيه السماء

واتفق ان وقف أبو اسحق بن خفاجة على القطعة فاستطرفها واستطابها .
فقال يعارضها :

الا يا حبذا ضحك المحيا بمحانتها وقد عبس المساء
وأدهم من جياذ الماء نهر ينازع جلّه ربح رخاء
اذا بدت الكواكب فيه غرقى رأيت الماء تحسده السماء»

فكان شغف ابن خفاجة بمثل هذا الكلام عظيما ، وكانت له ميول للمجون .
فاجتمعت هذه الميول النفسية ، الى حبه لجمال الطبيعة وكونت ملكته الشعرية
وخيالاته وتصوراته ، حتى لقد كان يملأ نفسه المجون فيملى عليه من المعاني
ما يرسم شيئا من أخلاقه وميوله في الحياة . كما قال :

وما الانس الا في مجاج، زجاجة ولا العيش الا في صرير سرير
وانى وان جئت المشيب لمولع بطرة خل فوق وجه غدير
كذلك كانت ميول ابن خفاجة ، وهكذا كانت أخلاقه ، فكانت كاخلاق
كل الفنين وميولهم : خفة وطيشا . ولكنها خفة روح تدعو الى حبه وحب
كلامه . وهذا كله في شعره ونثره . وكأنه لم يكن يرى من الحياة الا ما يتفق
مع أهوائه من بهجة وجمال ، حتى انه وصف الأندلس وقال :

يا أهلَ أندلس لله دَرُكُمُْ ماءً وظل وأهارة وأشجار
ماجنة الخلد الا في دياركمُ ولوتخيرت هذا كنت اختار
هذا السرور النفسى كان يفمره ولا يفارقه ، فانه كان يحب بلاده ، لانها
جميلة تشبه ما يحب في حياته من الجمال ، اذ يقول :

ان للجنة بالأندلس مجتلى عين ورياً نفس
فَسَنَّا صبحتها من شنب ودجا ليلتها من لعس
فاذا ما هبت الريح صبا صحت واشوق الى اندلس

هذه أخلاق ابن خفاجة وميوله النفسية في جملتها وأثرها ظاهر في حياته
العقلية، وفي رسائله النثرية وقصائده الشعرية .

لذلك كان صاحب مذهب كتابي ، وأسلوب أدبي ، يوازن بأبي تمام في
شعره ومذهبه ، وبابن العميد أو الهمداني في النثر والكتابة . فانه يشبه
أبا تمام من حيث الميل الى تنميق عباراته الشعرية . والتعمل قليلا أو كثيراً في
ذلك ، والعناية بذكر أنواع البيان والبديع . ولكنه مع هذا غير ظاهر التكلف
كأن ذلك جاءه عفواً أو كأنه سليقة له . وهو على ما يظهر من شعره من
المتشيعين لطريقة أبي تمام ، المعجيين بها . كما ان غيره من الشعراء كان يقفوا أثر
المتنبي في أسلوبه ويتشبه به في آرائه الفلسفية . ولكننا لم نر أحداً فاق المتنبي في

في أسلوبه الفلسفي ، بل كانوا جميعاً مقلدين أو مغتربين من بحره . حتى أنهم لم يبلغوا شأوه ، ولكن ابن خفاجة أخذ عن أبي تمام وجاراه وفاقه في أسلوبه ، لانه غير متكلف كأبي تمام . بل جاءه ذلك من باب الميل النفسى والسجية . حتى لقد يذكّر المعنى ونفس الخيال الذى ذكره أبو تمام ، ولكنه خال من كل كلفة أو نميل ظاهر . ذلك لان ابن خفاجة كان يشعر من الجمال بما لم يكن يشعر به أبو تمام . ويكفى أن يتكلم الانسان عن شعور ليمتاز في كلامه ويلبس القلوب بمباراته

ويظهر من عبارات ابن خفاجة انه كان متمكناً من صناعته ، عارفاً بها ، سافراً على منوال واحد فيها ، في نظمه ونثره . وليس نثره غير شعر منشور ، ولأشعره غير نثر منظوم . فان رسائله القليلة التى عثرنا عليها ، هى من قبيل النثر السهل المتكلف ، سهل فى ألفاظه وفهم معانيه ، متكلف فى اتباع طرق علوم البيان . وهو مع ذلك رشيق الاسلوب . ولقد غير من نثره عبث الطبيعة وجمالها بعقله ، وامتلا كهما قوة الخيال منه .

كتب رسالة يصف فيها منتزهاً وكأنما قلعه ريشة مصور ماهر ، تكاد ترى ذلك رأى العين وكأنك تجول فى أنحائه ، فترى كل ركن من أركانه ، وكل ناحية من أنحائه ، وكل زهرة ووردة ، وكل شجرة وغصن وكأنما يلمسك نسيمها العليل ، وتجرى أمامك الجداول والانهار . ذلك الى أسلوبه الخاص المسجوع وكأنما هو مرسل . وتجد الجملة الطويلة المسجوعة ، على حين أنك تجد كلمة واحدة شطر سجمة أو سجمة كاملة قال « ... ذهبت فى لمة من الاخوان نستيق الى الراحة ركضاً ، ونطوى التفرج أرضاً ، فلا ندفع الا الى غدیر نيمر قد استدارت منه فى كل قرارة سماء . سحائبها غمماً ، وانساب ، فى كل تلمعة حباب ، جلده حباب ، فترددنا بتلك الاباطح تهادى تهادى

أغصانها ، وتتضحك تضحك أقحوانها ، وللتسليم أثناء ذلك المنظر الوسيم
تراسل مشى ، على بساط وشى ، فاذا مرَّ بفدير نسجه درِّعا ، واحكه صنعا .
وان عثر بجداول شطب منه نصلا ، وأخلصه صقلا . فلا ترى الا بطاحا ، مملوءة
سلاحا ، كأنما انهزمت هنالك كتائب فألقت بما لبسته من درع مصقول ،
وسيف مسلول ، فاحتلنا قبة خضراء ممدودة أشطان الاغصان
سندسية رواق الاوراق . ومازلنا نلتحف منها ببرد ظل ظليل ، ويشتمل عليه برداء
نسيم عليل ، ونجبل النظر في نهر صقيل ، صافى لجين الماء ، كانه مجرة سماء .
موتلق جوهر الحباب ، كان من ثغور الاحباب . وقد حضرنا مُسمع يجرى مع
النفوس اطافة ، فهو يعلم غرضها وهوها ، ويغنى لها مقترحها ومنها ، فصيح لسان
النقر ، يشفى من الورق ، كانه كاتب حاسب تمشق يمينه ، وتعقد يسراه ، يحرك
حين يشدو ساكنات ، وتنبعث الطبايع للسكون .

أما اذا خرج عن هذا النوع الوصفى الخيالى الفنى فقد يضيق الطريق في
وجهه ، وقد يثقل كلامه ويتكلف في عبارته . كما في رسالة يعاتب فيها .¹

١ قالوا كانت بين أبي اسحاق وبعض اخوانه مقاطعة فاتفق ان ولى ذلك الصديق
معنا فخطبه أبو اسحق برقة منها . « أطل الله بقاء سيدى النبية أوصافه . الزهبة عن الاستثناء
المرفوعة أمارته الكريمة بالابتداء . ما انحذت ياء يرمى للجزم . واعتلت واو يغزو لموضع الضم
كتبت عن ود قديم هو الحال لم يلحقها انتقال . وعهد كريم هو الفعل لم يدخله اعتلال والله
بجمل هاتيك من الأحوال الثابتة اللازمة . ويمصم هذا بمد من الحروف الجازمة . وأنا أستنهض
طولك الى تجديد عهدك بمطالعة الف الوصل وتمدية فعل الفصل . والى عدولك عن باب الف
القطع الى باب الوصل والجمع . حتى تسقط لدرج الكلام بيننا هاء السكت ؛ ويدخل الانتقال حال
الصمت . فلا تتخيل أعزك الله ان رسم أخطاك عندي قد درس عفاء ؛ ولان صدرى
دارمية أمسى من ودك خلاء . وانما أنا فعل اذا شئى ، ظهر من ضمير وده ما بطن . وبدا
منه ما كمن . وهينئا أعزك الله ان فعل وزارتك حاضر لا يلحق زفه تغيير ، وان فعل

وكان ابن خفاجة كثير النظر والتأمل في المشاهدات ، ولا سيما المناظر الطبيعية ، متأثراً بالمنظورات ، يحرك عقله نظره . للالوان وتناسقها سلطان عظيم عليه ، وكل معلوماته جاءت من طريق النظر الى الاشياء ، فكان يرى ويلاحظ ويعرف كيف يرى وكيف يلاحظ . ولم يكن له الا أن يلبس هذه المنظورات عبارات والفاظا بليغة فصيحة . واذ كان بطبيعته فنيا كان اختياره الألفاظ والجل حسنا جيداً ، كما يختار المصور الماهر الالوان الجميلة اللازمة له . لذلك ، كان أسلوبه جميلاً ، وعباراته سهلة ، وكلامه سائماً للنفس ، بعيداً عن كل تعقيد أو تركيب ركيك ، أو غموض في اللفظ أو المعنى . ويكاد يكون ديوان شعره من أوله الى آخره على نسق واحد في المتانة وحسن العبارة ، وكله من نوع واحد من حيث الصور العامة . ولكن تمكرر المعاني لا يكاد يجد له القارئ أثراً لبراعة الشاعر واختياره المعاني التي كلما مرت بالنفس أو بالسمع تجد أثراً بتجديد ألفاظها ، وتنغير آثرها بتغير تراكيبها .

ولقد يصف فيخيل اليك انك تنظر في لوحة مصور ، أو كأن كل معنى في كلامه « كأن حتى » يتحرك أمامك . قال يصف طيفاً ألم به في الليل الطويل ،

سيفك ماض ما به للعوامل تأثير ، وأنت بمجدك جماع أبواب الظرف . تأخذ نفسك العلية بمطالمة باب الصرف ، ودرس حرف المطف . وتدخل لام التبرئة على ما حدث من عتبك . وتوجب بمد النقي ما سلف من عتبك ، وتدع الف الالفة أن تكون بعد من حروف اللين . وترفع بالاضافة بيننا وجود التنوين ، وتسوم ساكن الود أن يتحرك . وممثل الاخاء أن يصح . وكتابي هذا حرف صلة فلا تحذفه حتى تعود الحال الاولى صفة ، وتصير هذه النكرة معرفة ، فأنت أعزك الله مصدر فعل السرور والنبيل ، ومنك اشتقاق اسم السودد والفضل وانك وان تأخر المعصر بك كالفاعل وقع مؤخراً . وعدوك وان تكبر كالكميت لم يقع الا مصغراً ، وللأيام علل تبسط وتقبض ، وعوامل ترفع وتنخفض ، فلادخل عروضك قبض ، ولا عاقب رفقك خفض . ولا زلت سربطاً بالفضل شرطك وجزاؤك . جارياً على الرفع سرورك الكريم وسناؤك ، حتى تحفض الفعل ، وتبنى على الكسر قبل ، ان شاء الله « راجع نفع الطيب ج ١ ص ٣٥٢ »

وأخذ خياله يتصور ما يمكن أن يكون في هذا الموقف من وصف ملاقاته لحبيبه ،
 والتمتع به في حضرته . والليل يحيط بهما وهو على وشك الانصراف ، وأخذ
 يشبه محبوه بأنواع الرياحين ، وهو تشبيه سهل الإدراك صعب التركيب . وليس
 هذا الكلام في طاقة كل شاعر ، ولا امتلاك البيان بمثل هذا في طوع كل قى
 تكلم في الليل ثم في الطيف ووصفه بأرق ما يصف به حبيب حبيبه ، وأحسن
 ما ينال عاشق من عشيقه ، وقد دام ذلك الى طلوع الفجر ، وعيون الليل تتجسس
 أخبارهم ، وضوء الصبح يرقبهم :

ورداء ليل بات فيه معانق	طيف ألم لظبية الوعاء
فجمعت بين رُضابه وشرابه	وشربت من ريق ومن صباء
ولثمت في ظلماء ليلة وفرة	شفقا هناك لوجنة حمراء
والليل مُسَبَّطُ الذوائب كِبْرَةً	خَرَفَ يدب على عصا الجوزاء
ثم التقي والسكر يسحب فرعه	ويجر من طرب فضول رداء
تندى بفيه اقحوانة أجرع	قد غازلتها الشمس غب سماء
وتميس في أتوابه ريحانة	كرعت على ظلاً بجداول ماء
نفاحة الانفاس الا انها	حذر النوى خفاقة الأفياء
فلويت معطفها اعتناقاً حسبها	فيه بقطر الدمع من أنواء
والفجر ينظر من وراء غمامة	عن مقلة كحلت بها زرقاء
فرغبت عن نور الصباح لنورة	أغرى بها بينفسج الظلماء

ولقد يصف الليل والسير فيه وظلمته الخالكة المنبعثة من كل ركن من
 أركان الفضاء . وما قد توحيه الى النفس من الخوف والرهبة . وما يلاقيه السارى
 من حيوان كاسر . وكأما يظن القارىء نفسه في جوف الغلاة ومخاطر الليل .
 كل ذلك بتشبهات جميلة مختارة . كما قال :

ومفازة لا نجم في ظلمائها
تلهب الشمري بها . وكأنها
ترمي به الغيطان فيها والربي
قد لفنى فيها الظلام وطاف بي
طرّاق سادات الديار مساور
يسرى وقد نضج الندى وجه الصبا
فمشوت في ظلماء لم تقدح بها
ورفقت في خلع على من الدجى
والليل يقصر خطوه وربما
قد شاب من طرف الحجر مفرق
وكما قال:

وليل كما تمد الغراب جناحه
به من وميض البرق والليل فحمة
سريت به أحياه لاحية السرى
يقلب منى العزم انسان مقلة
بمخرق لقلب البرق خفقة روعة
سحيق ولا غير الرياح ركائب
كأنى وأحشاء البلاد تجننى
أجوب جيوب البيد والصبح صارم
وفي مصطلى الآفاق جمر كواكب

ووصف ناراً هبت عليها ريح فأضرمتها وكأنما يتغازلان . أو كأن النار

والريح في موقف طرب يتمايلان من نشوته . أو كأن الريح عاشق متيم يلتم خد
الذهب الخجل . أو كأن في موقد النار ماء عليه من نجوم حجب . فقال

لاعب تلك الريح ذاك الذهب فعاد عين الجد ذاك اللهب
وبات في مسرى الصبا يتبعه فهو لها مضطرم مضطرب
سأهرته أحسبه منتشيا يهز عطفيه هناك الطرب
لو جاءه منتقد لمادري ألهب متقد أم ذهب
تلثم منه الريح خدا خجلا حيث الشرار أعين ترتقب
في موقد قدر قرق الصبح به ماء عليه من نجوم حجب
منقسم بين رماد أزرق وبين جمر خلفه يلهب
كأنما خرت سماء فوقه وانكدرت ليلا عليه شهب

ورصف ساقيا جميلا ، فوصف الخمر أيضاً ومجلسه ، وكأنما السرور يسيل
بين ألفاظه ، والنعم والسعادة يتمثلان في كلامه . فقال :

وأغيد في صدر الكلام لحسنه حلّ وفي صدر القصيد نسيب
من الهيف أما ردفه فنم خصيب وأما خصره فجديب
يرف بروض الحسن من نوروجه وقامتة نواره وقضيب
جلاها وقد غنى الحمام عشية عجوزا عليها للجباب مشيب
وجاء بها حمراء أما زجاجها فنور وأما موجها فكثيب
تجافت بها عنا الحوادث برهة وقد ساعدتنا قهوة وحبيب
وغازلنا جفن هناك كترجس ومبتسم للاقحوان شنيب
فأله ذيل للتصابي سحبتة وعيش باطراف الشباب رطيب
وكل شيء يراه كان يوقظ خياله ، وينبه من أدراكه ، ويدفعه الى ابتكار
المعاني الجميلة . فقد رأى رجلا أسود أحذب يسقى خمرأ فقال في ذلك :

رب ابن ليل سقانا	والشمس تطلع غره
فظل يسود لونا	والكأس تسطح حمره
كأنه كيس فخم	قد أوقدت فيه حمره
وللمدام مدير	يشب حمرة حمره
نضاحكت عن حباب	يقبل الماء ثغره
فظلت آخذ يا قو	ته واصرف دره
حتى تثنيت غصنا	واصفرت الشمس نقره
وارتد للشمس طرف	به من السقم فتره
يجول للغم كحل	فيه وللقطر عبره

ولقد يفكر في شعره فيأتى بأفكار جميلة ، وملاحظات جميلة ، ويخرج من معنى الى آخر . وقد تكون المعاني معروفة وجديدة معا ، لأنه يبدع ويتكسر في التعبير . كقوله :

وليل اذا ماقلت قد باد فانفضى	تكشف عن وعد من الظن كاذب
سحبت الدياجى فيه سود ذوائب	لاعتنق الآمال بيض ترائب
فرقت جيب الليل عن شخص أطلس	تطلع وضاح المضاحك قاطب
رأيت به قطعا من الفجر أغبشا	تأمل عن نجم توقد ثاقب
وأرعن طراح الذؤابة باذخ	يطاول أعنان السماء بغارب
يسد مهب الريح عن كل وجهة	ويزحم ليلا شبه بالنساكب
وقور على ظهر الفلاة كأنه	طوال الليالى مفكر فى العواقب
يلوث عليه الغيم سود عمائم	لها من وميض البرق حمردوائب
أصخت اليه وهو أخرس صامت	فحدثنى ليل السرى بالمعائب
وقال الا كم كنت ملجأ قاتل	وموطن أوّاه تبتل نائب

وكم مربى من مدلج وماوب
ولاطم من نكب الرياح معاطفي
فما كان الا ان طوتهم يد الردى
وكما في قوله في المشبب .

أرقت على الصبا الطلوع عني
كفاني رزء نفس ان تبدي
ولولا أن يشق على الغواني
فلم أعدم هناك به شفيعا
غريبة شيب فود ان تراخت
شنت بمجتلاها النور حتى
وعفت كراهة للشئ شيئا
واية شية الا نذير

ويمدح فلا ينسى جمال الكون ، وفي كل مدحه يميل الى أن يكون
جميلا في كلامه وأوصافه ، ولعله لا يقصد الى ذلك ، وإنما هذه هي طبيعته ونوع
ادراكه . قال

أقد ضحك الصباح بمجتلاه
وظاهرتي بمنسرتي حسام
أشيم به سنا برق يمان
الى جدلان وضاح الحيا
الى يقضان وقاد الموالى
يساور منه طوراً ليث غاب
إذا استمطرت منه غمام رحى .

ولقد يجمع كثيراً من الصور والألوان في أبيات قليلة وهو يبدع التصوير
ويسيل كلامه رقة . كقوله :

وصقيل افرند الشباب بطرفه سقم وللعضب الحسام ذباب
يمشى الهوينا نخوة ولربما أطرته طورا نشوة وشباب
شقى المحاسن للوضاءة ريطرة أبدا عليه وللحياء نقاب
وبمظفيه للشبيبة منهل قدشف عنه من القميص سراب
عبر الخليج سباحة فكأما أهوى فشق به السماء شهاب
تطفو لغرته هناك حيابة ويموج من ردف ألف عباب

وكل شعرا بن خفاجة من الوجدانيات المملوءة بالصور والخيالات والادوصاف
الدقيقة ، وأ كثره خال من الأفكار العامة النفسية والفلسفية والاجتماعية ، فقرأته
أشبه بالنظر الى الصور الجميلة للتمتع برؤيتها والتسلى بهجتها .

ابن سهل

هو ابراهيم بن سهل الاسرائيلي^١ الأشبيلي الشاعر المشهور من أهل القرن السابع الهجري. مات سنة ٦٤٩ هـ بعد أن عاش أربعين عاماً. قالوا انه مات غريقاً مع أحد الولاة. وقد تعلم الأدب واشتغل به على أكبر العلماء، ونبغ في الشعر حتى قالوا عنه انه شاعر أشبيلية ووشاحها. وظهر نبوغه في الشعر وهو شاب، وشهد له بذلك كبار الشعراء^٢. وعلى الرغم من أن العصر الذي عاش فيه ابن سهل كان من أواخر عصور العرب في الأندلس، فإن الشعر كان لا يزال على حاله من الرقي وحب الشعراء وتمجيدهم. بل كانت هذه الايام الأخيرة من أيام عز اللغة ونموها، فقد كثرت الافتنان في أنواع الشعر من موشحات وغيرها. بل كانت لا تزال البلاد عامرة بالعلماء من كل نوع. ذلك لأن سقوط دولة العرب لم يسبقه انحطاط في مدينتهم، أو تفقر في حضارتهم، بل سقطت الدولة وهي في عزها وقوة نشاط عقول أبنائها. لان ذلك لم يكن من ضعف فيها أو شيخوخة أدركتها، ولكن

١ عن أصعاب التراجم بمقيدته ورووا أنه أسلم في آخر أيامه، وبحثوا في صحة اسلامه ورماه بعضهم بدم الاخلاص، وقالوا انه كان يتظاهر بالاسلام، حتى قالوا ان تمكن اليهودية من نفسه كان له أثر في شعره وقالوا في ذلك « سئل بعض المغاربة عن السبب في رقة فظم ابن سهل فقال لأنه اجتمع فيه ذلان ذل العشق وذل اليهودية » وذلك لاعجابهم بنظمه وقالوا فيه لما بلغهم ثمرة . عاد الدر الى وطنه . ورووا عنه في صحة اسلامه قوله .
تسلت عن موسى بحب محمد هديت ولولا الله ما كنت أهتدى
وما عن قلى قد كان ذاك وانما شريفة موسى عطلت بمحمد
٢ راجع حديثه مع الهيثمي في ذوات الوفيات ج ١ ص ٣٠

عوامل الحقد دبّت في نفوس أهلها فكاد بعضهم لبعض ، حتى خرجت الدولة من يدهم وهم في عز جاههم . وربما كان سقوط الدولة لم يسبقه أى عامل من عوامل التأخر العقلي . لذلك كان عصر بني هود الذين كان من شعرائهم ابن سهل وعصر بني الأحمر ، وحتى عصر برايرة أفريقية غاصة بالعلماء والادباء والشعراء ، وكان كلما تقدم الزمن بالدولة ظهرت فيه ثمار العلوم والمقول ، لأنها كانت دائماً نتيجة الجهود السابقة . وارق شعر الاندلس ما جاء بعد القرن الرابع أى بمدزوال دولة بنى أمية ، التي كان عصرها أزهى عصور الحضارة هناك . لذلك يمكن القول بان اللغة العربية في جملة سيرها لم يدركها انحطاط محسوس في أثناء القرون الثمانية التي تحطتها في الأندلس ، سوى ما حصل من المبالغة في طريقة السجع النثرية . ويمكن أن نقول ان ابن سهل وهو من شعراء القرن السابع ، يشبه غيره من شعراء القرن الثانی والثالث ، وان سير اللغة والأدب في الأيام الأخيرة مثله في الأيام الأولى ، بدليل كثرة الشعراء والكتاب المجيدين الذين ظهوروا في تلك الأيام ، ولاننا لا نجد شيئاً من تقهقر اللغة في آخر الدولة .

ولو اننا أردنا أن نتكلم على ابن سهل من حيث تربيته العقلية ، لوجدناه كغيره من الشعراء الذين تهذبت نفوسهم وعقولهم بجهود المقول التي أثمرت قبلهم ، والاطلاع على شعر الشعراء وكتابة الأدباء . وربما نزع أبأوه الى الأندلس منذ زمن بعيد ، ولكنه على كل حال غير عربي الأصل ، نبغ في بلاغة العرب وشعرهم وتعلم العربية وبرع فيها . وليس شعر ابن سهل الا نتيجة تربية عقلية عربية واسعة واشتغال كبير بلغة العرب ، مما يدل على اندماج غير العرب فيهم والعناية بحفظ لغتهم كما هو معروف في التاريخ من اشتغال المقهور بلغة القاهر أو تقليد المحكوم الحاكم في لغته وعلومه ومدنيته

أما شعره فيكاد يكون كله وجدانيا صرفا ولا تكاد تجد له في غير الغزل

الا القليل . فهو من الشعراء الذين كانوا يستسلمون الى الالهواء فتقودهم، والى
 القلوب والخيالات فترشدهم الى الكلام وطرقه. لذلك كان شعره جميلا، ومعانيه
 رائعة شائقة سائلة للنفس ، مع رشاقة في اللفظ ومتانة في الاسلوب، ودقة في
 التعبير . ذلك لأنه أمعن في هذا الكلام الغزلي حتى أتقنه وبرع في عباراته
 وكشف مخبأته . وكأنه لم يترك شيئا يجول برأس العاشق أو يتحدث بها نفسه
 الا ذكره أو وجده في نفسه فتكلم عليه في شعره . وقد خط له بهذا طريقا سلكه
 ولم يخرج عنه الى طريق آخر . وكأن آراءه في العشق والغزل هي كل ما يعرف
 وكل ما لديه من طرق التفكير وأساليبها، لانه لم يخرج مطلقا عن هذه الدائرة
 حتى أتى على آخرها مرات وابتدأها من أولها مرات . ومثله في ذلك مثل من
 عرف حادثة واحدة من الحوادث فكتبها أولا من أولها الى آخرها، ثم رتبها ترتيباً
 آخر وكتبها بحيث جعل الاول آخرها والآخر أولها ، ثم كتبها مرة ثالثة بحيث
 ابتدأها من الوسط وهكذا . فعدم خروجه عن دائرة الغزل ربما يدل على قصور
 خياله، لان الشاعر الكبير الخيال يرى الف شيء، ويفكر فيما حوله من الموجودات
 ويعمل على تصويرها وابتزازها بشكل جميل . والانسان يرى غير حبيبه ويشعر
 بغير الحب ، اذ ليس ذلك كل ما في الحياة اللهم الا أن يكون شاعراً متبهاً مجنوناً
 بحبيبتة، غارقاً في بحار عشقه لا يرى ولا يعقل غير ذلك . وليست هذه حال ابن
 سهل لان جنون الحب غير ظاهر في شعره، فانه على الرغم من اقتضاره على تغزله
 بحبيبة موسى تجده في كلامه ساكناً عاقلاً ، مستعملاً للكلام أحياناً . والظاهر
 ان موسى حبيبه رمز على عشقه ان كان عاشقاً عشقاً صحيحاً، أو ضرب من ضروب
 الفكاهة والظرف، لانه كان يهودياً فأراد أن يذكر اسم موسى في شعره ويرمز به
 عن عشقه، أو لعله اتخذ موسى هذا داعياً من دواعي الشعر فأخذ يتغنى باسمه

أما هذا الاكثار من الغزل والضرب على نغمة واحدة وعدم الخروج عن

هذه الدائرة، فلا يدل الا على قصور باع الشاعر وضيق الخيال لديه كما قلنا، وانه ليس شاعراً واسع التصور والخيال

لهذا يكفي لمعرفة شعر ابن سهل أن تقرأ له قصيدة واحدة، فان كل قصائده تكاد تكون كلها متساوية في المعنى والجودة والأسلوب. وربما ظهرت قيمته في شعره على أثر قراءة قصيدة أو قصيدتين أو ثلاث، وأعجب الانسان بأسلوبه وبيانه، فاذا أكثر من قراءة شعره انطفاً لهيب هذا الاعجاب شيئاً فشيئاً، ثم أحس القارئ انه شاعر ككل الشعراء. وسبب ذلك تكرار المعنى الواحد بأسلوب واحد

ولكنه مع هذا كله شاعر مجيد في نوعه، يتغزل فيذكر في غزله كثير من معاني العشق المختلفة، فيصف حبيبه بالجمال والكمال، ويصف ألمه ويشكو ويلتذ منه، ويبين كامن عواطفه وما هو في نفسه، ويعن في ذلك حتى يأتي بشيء من المعاني المبتكرة والخيالات التي له. كقوله:

وإني لثوب السقم أجدر لابس	وموسى لثوب الحسن أملح مرتدى
تأمل لظي شوقي وموسى يشبها	تجد خير ناراً عندها خير موقد
دعوه يذب نفسى ويهجر ويجتهد	تروا كيف يمتاز الجمال ويمتدى
إذا مارنا شزرا فن لحظ أحور	وان يلو اعراضاً فصفحة أعيد
وعسذب بالي نعّم الله باله	وسهدنى لاذاق بلوى التسهد
تطلع واللاحى يلوم فراغى	وكدت وقد أعذرت يسقط في يدى
وناديت لا اذ قال تهوى وانما	رمانى فكانت لا افتتاح التشهد
أيا طيب سكر الحب لولا جنونه	محا لذة النشوان سكر المرهد
شكوت مجازاً للطيب وانما	طيبى سقام من لواظ مبعدى

فقال على التأنيس : طيبك حاضر فقلت نعم لوأنه بعض عودي
وقال شكاً سوء المزاج وانما به سوء بخت من هوى غير مسعد
بكيت فقال الحسن هزءاً أتشتري بماء جفون ماء نثر منضد

وقد يبت شجوه وهواه بعبارات وجدانية صرفة ، ويصف حبيبه بصفات
جميلة ، ويشبهه بالزهر ، ويقارن بين لحظة في السقم وجسمه في السقم ، ويتدلل في
السؤال ويتمنى الموت ، لعل حبيبه يزور قبره . وكأنما يريد أن يتسلى بهذا الكلام
أوفخر بهذه الصناعة ، أو يثبت لنفسه شيئاً من البراعة في قول الشعر ، لأنه يشبه
في شعره رجلاً متصنعاً لا عاشقاً مخلصاً . حيث يقول :

حكي لحظة في السقم جسمي واغتدي لنا ثالثاً في ذاك ميثاق عهده
وأركبني طرف الهوى غنج طرفه وأشرفني بالعذب اشراف خده
وأغري فؤادي بالاسى روض آسه وأوردني ماء الردى غص ورده
يعارض قلبي بالخفوق وشاحه ويحكي امتداداً زفرتي ليل صده
وما المسك خال من هوى خاله وان غدا الند منه مستهما بنده
وقد يصور يأسه بأشد ما يكون ، ولكن بارق اسلوب وأسهل عبارة ، وكأنه
كلام فطري لاخيال شعري . كما في قوله :

تدنيك زور الامانى منى وتناى طلابا
كأننى حين أبغى رضاك أبغى الشبابا
وأشهى منك ذنباً أبغى عليه العتابا
حتى اذا كان ذنب فتحت للعذر بابا
ظلمت منك لوعد فكان وردى السرابا
لاخاب سؤلك أما سؤلى لديك نفايا

ولقد يرق في أسلوبه حتى يخيل اليك أن الكلام نثر لا شعر ، وأنه ليس فيه

أدنى كافة ، وكأنما يعترف الكلام اغترافا . وهو مع ذلك يجيء بالتشبيه الجميل
والمعنى الرقيق . كقوله:

سَل في الظلام أخاك البدر عن سهرى	تدرى النجوم كما تدرى الورى خبرى
أبيت أهتف بالشكوى وأشرب من	دمعى وأنشق ريا ذكرك العطر
حتى أخيل أنى شارب ثمل	بين الرياض وبين الكاس والوتر
من لى به اختلفت فيه الملاحظة اذ	أومت الى غيره إيماء مختصر
معطل فالخلى منه محلاة	يعنى الدراري عن التقليد بالدر
بجده لفؤادى نسبة عجب	كلاهما أبدا يدعى من النظر
وخاله نقطة من غننج مقلته	أتى بها الحسن من آياته الكبير
جاءت من العين نحو الخلد زائرة	وراقها الورد فلستغنت عن الصدر
بعض المحاسن يهوى بعضها طربا	تأملوا كيف هام الضنج بالخور

وربما وصف حبيبه بأوصاف الرياض والبساتين ، فتخاله زهرة يانعة غضة ،
أو غصنا يتحرك ، أو زهرة تتألق . كقوله:

من لى بأن يدنو بعيد مزاره	ظبى طلوع الفجر من أزراره
كالغصن فى حركاته وقوامه	كالظبى فى لحظاته ونفاره
فى الروض منه محاسن ومشابه	فى آسه وبهاره وعراره
فعراره من لحظه وبهاره	من خده والآس نبت عذاره
وعلقته وسنان يلعب بالهوى	كتلاعب الساقى بكأس عقاره

ثم يتكلم عن ذله واعراض حبيبه عنه ، وهو يتمنى قربه منه ويصف ما يصيبه
من الآلام وما له من الشغف به ، ويعجب من أمره فى ذلك اذ يقول :

يا حسنه لو كان يرحم صبه	وجماله لو كان من زواره
الف التجنى والبعاد شريعة	فالنجم أقرب من دنو مزاره

أومى الىّ بلحظه فتناثرت خيالاته في الخلد من أشغاره
لما أراق دم المشوق تعمداً اسود نقط الخلال من أوزاره
وإذا أقول عسى وليت وربما فقال لا للصب من أخباره
فانلخد يفرق في معين دموعه والقلب يصلى في جحيم اواره
عجباً لضد كيف يآلف ضده هذا بادمعه وذاك بناره

وقد يذكر اجتماع النقيضين بينه وبين حبيبه ، ويجول خياله في ذلك جولاناً
يدعو الى الاعجاب كقوله :

ضلت بالبدر على نوره والناس يستهدون بالبدر
أبطل موسى السحر فيما مضى وجاء موسى اليوم بالسحر
مستحسن الاوصاف ممنوعها فلا ترّمه بسوى الفكر
كلما في السحب وكالدرفي الاصداد والشادن في القفر
لو أنه عنّ لحرورية القته بين السحر والنحر
ولو دعا ميتاً بالفاظه اذا لباه من القبر
درّ ثناياه والفاظه فلقبوه الكوكب الدرّ
وعوذوه العين بل عوذوا من عينه الناس هوى يسرى
كأنما الخلال على خده سواد قلبي في لظى الجمر
ومن أحاديثه الغرامية قوله :

أشمس في غلالة أرجوان وبدر طالع أم غصن بان
ونفر ما أرى أم نظم در ولحظ ما حوى أم صارمان
وخذ فيه تفاح وورد عليه من العقارب حلاسان
ويعذنانى العواذل فيه جهلا عزيز ما يقول العاذلان
فقالوا عبد موسى قلت كلا فقالوا كيف ذا قلت اشتراانى

فقالوا هل عليك بذا ظهير	فقلت نعم علىّ وشاهدان
فقالوا هل رضيت تكون عبدا	لقد عرضت نفسك للهوان
فقلت نعم أنا عبد ذليل	لن أهوى نخلوني وشاني
بنفسي من يفديني بنفس	جعلت فداه لما ان فدائي
سألتك حاجة أن تقضها لي	فقال نعم قضيت وحاجتان
فقلت أشم من خديك وردا	فقال وما تضم الوجنتان
فقلت أخاف صدغك أن يراني	وما أنا من لحاظك في أمان
فقال أعاشق ويخاف رميا	جئنت وما عهدتك بالجبان
كذاك الصب يعذر كل صب	تحكم ما تشاء وفي ضماني
فكان تحكما لا وزر فيه	أيكته علىّ الكاتبان
أديرا الراح ويحكما سلافا	فان دارت علىّ فعاطيانى

وله كلام جميل في الوصف يدل على انه كان يحب الجمال ويفهمه ، وانه كان للرياض وما بها أثر في نفسه ، وان الالوان كانت تحرك اعجابه ، وان مياه الأنهار وضوء الشمس والطيور والجو وما فيه هذبت من خياله . كقوله :

الارض قد لبست رداء أخضرا	والطل ينثر في رباها جوهرها
هاجت نخلت الزهر كافورا بها	وحسبت فيها التبر مسكا أذفرا
وكان سوسنها يصفح وردها	نغرا يقبل منه وردا أحمرها
والنهر ما بين الرياض تخاله	سيفا تعلق في نجاد أخضرا
وجرت بصفحتها الربا فحسبتها	كفا ينمق في الصحيفة أسطرا
وكأنه اذ لاح ناصع فضة	جعلته كف الشمس تبرا أصفرا
والطير قد قامت به خطباؤه	لم تتخذ الا الاراكة منبرها

وقال أيضا يصف :

أنظر الى لون الأصيل كأنه لا شك لون مودع لفراق
والشمس تنظر نحوه مصفرة قد خشت خدا من الاشفاق
لاقت بحمرتها الخليج فالفا خجل الصبا ومدامع العشاق
سقطت أوان غروبها محرة كالكأس خرت من أنامل ساقى

وقال في الوصف أيضاً :

شفق وشته خضرة في حمرة فكأنه خد الحبيب معرضا
والشمس تنظر نحوه مصفرة قد شمرت ذيل الوداع لتنهدا
كالصباحين رأى عذار حبيبه لما بدا فسلا وولى معرضا

وله في وصف الخمر كلام رقيق يشبه كلامه في الوصف . كقوله :

سهل الكأس تزهو بين صبغ واشراق أذوب فيها الورد أم وجنة الساق
كؤوس تحيها النفوس كأنها حديث تلاق في مسامع عشاق
إذا قتلوها بالمزاج ليشربوا عاشوا مناهم بين موت . واخلاق
تثور كأن الماء يلغ صرفها فصوت المغنى مثل هينمة الراق
وله موشحات سند كرها في بابها

هذه صورته ابن سهل ، وهي صورة شاعر وصاف يجيد الوصف ، وغازل يجيد الغزل ، وووجداني لا يخرج عن دائرة وجدانه ، ومصور بارع لما يرى ويسمع قليل الآراء ، قاصر الخيال ، لكنه مبدع في الأسلوب ، متفطن في الكلام ، لا يشعر الانسان بادنى ملل في قراءة كلامه وهو في كل ذلك خفيف الروح مطرب معجب . وكفى بذلك دليلا على جمال قوله ونصيبه في الافتنان .

الفتح بن خاقان^(١)

إذا تكلمنا عن الفتح بن خاقان فإنما نتكلم عن كتبه التي ذكر فيها كثيراً من علماء الأندلس وأدبائهم ، وجمع فيها جملة صالحة من منظومهم ومنشورهم ، وشيئاً يسيراً من أخبارهم . وهي «قلائد العقيان» و«مطوح الأنفس» . وقد دل ابن خاقان في كتبه على سعة اطلاعه ، وكثرة أدبه ، ومعرفته التامة برجال الأدب في الأندلس ، مما لم يكن متيسراً لغيره . حتى إن أكبر كتب الأدب في الأندلس كثيراً ما تنقل عنه . فقد نقل عنه المقرئ في نفع الطيب وذكره في أكثر من ستين موضعاً . ومع أنه كان معاصراً لابن بسام صاحب الذخيرة فقد نقل عنه هذا في كتابه . فكنتبه من أمهات كتب الأدب في الأندلس .

أما طريقته في الجمع والتأليف ، فهي خالية من كل صبغة تاريخية علمية ، من

١ هو أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله بن خاقان القيسي الأشبيلي صاحب قلائد العقيان . نشأ في الأندلس ودخل إلى بلاد المغرب واتصل بملوكها وكتب لبني تاشفين وألف كتابه «قلائد العقيان» لابن اسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين وصدده باسمه . ثم حدث أن وشى به من وشى ونالت منه الإعداء ، فأشار أمير المسلمين أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين بقتله فذبح بمدينة مراکش بالفندق سنة خمس وثلاثين وخمسمائة . وقد كان مشهوراً بالفلاحة والمجون ، حتى أخذوا عليه ذلك وعرف بما لا يليق به . ولعل هذا من الأسباب التي جعلت ملوك البرابرة يحقدون عليه حتى قتلوه . وكان جواباً للاقاق ينتقل من مكان إلى آخر ، ولم يعرف عنه شيء كثير في كتب التراجم . ولم نجد له ذكراً إلا في ابن خلكان ذكره في نحو نصف صفحة . ولم يذكره المقرئ في نفع الطيب بغير الاقتباس من كلامه في المطوح وغيره . على أن الفتح بن خاقان لا يمتنع ذكره بما له من الفضل ، وما أفاض به على الأدباء بكتبه قلائد العقيان ومطوح الأنفس . ولا شك في أن هذه الكتب من أنفع ما كتب عن الأندلس

حيث التحقيق والتدقيق في الرواية والجمع. بل هي طريقة الرواية والحفظ لاغير .
لان ما رواه كان معروفا ومشتتا فجمعه هو في كتابيه ، كما أشار الى ذلك في خطبة
كتابه مطمح الأنفس^١

نقل أخبار العلماء والادباء كما كان معروفا عنهم . وقد ينقل الخبر
بدون أى تصرف فيه ، سوى وضعه في قالب معروف له . وأما معنى بتحسين
العبارة وتسجيعها ، وجمع الألفاظ ووصفها ، مما لا يقدر عليه كل انسان . فيترجم
المكاتب أو الأديب ، وهو في أكثر ما يقول مادح لا غير ، وكأنما هو ناقل
للفضائل لا يرى غيرها . ولقد يذكر لك الرجل فلا تعرف في أى سنة كان
يميش ، ولا في أى عصر كان معروفا . وربما ذكر معه أسماء لبعض الادباء أو
العلماء ، وربما لم يشر الى تاريخ ما للعالم أو الأديب على ماله من الشهرة. ولعله كان
يعتمد على شهرته ويكتفى بها عن ذكر تاريخه كما في كلامه على ابن حزم الظاهري^٢
وفي هذه الترجمة من التقصير شيء كثير . فانه لم يذكر ابن حزم الا بذكر
كتبه بدون أى اشارة الى محتوياتها . ولم يذكر شيئا عن تاريخ حياته ، حتى
يمكن أن يعرف معرفة تامة ، أو معرفة صحيحة . وليس لهذه الترجمة شيء من
القيمة العلمية ، لانها لا تنفيذ شيئا عن ابن حزم . وهذا يدل على ان ابن خاقان
لم يكن يعنى بما يكتبه عن رجل محقق ، ولا عن رجل يشعر بالواجب عليه ،
ذلك الواجب على كل مؤلف أو باحث من حيث الاطلاع والتنقيب عما يريد

١ قال : انه كان بالاندلس أعلام قتنا بسحر الكلام ، ولقوامه كل نحية وسلام ، فشعشعوا البدائع
وروقوها ، وقلدوها بحاسنهم وطوقوها ، ثم هورا في مهاوى المنايا ، وانطوا بأيدى الرزايا ،
وبقيت ماآتهم غير مثبتة في ديوان ، ولا جملة في تصنيف أحد من الأعيان ، تجتلي فيه
العيون وتجتني منه زهر الفنون ، الى أن أراد الله اظهار اعجازها... خللت من الوزير ابى
الماص وندبني الى أن أجمعها في كتاب .. فاجيت رغبة الخ

٢ أنظر المطمح صفحة ٥٥

أن يكتب. والظاهر انه كان يرمى الى الجمع فقط ، بل لم يكن يعيل مطلقا الى النقد
ولا الى أن يكون له رأى خاص

ومها قيل من ان الناقل يجب أن يكون أمينا ، وليس عليه تبعه شئ في
النقل ، فان النقل يحتاج الى تمحيص وفكر ثابت ، لتمييز الصحيح من غيره .
والفكر النقدي يظهر أثره في كل شئ . ولكن لم يظهر لصاحب قلائد العقيان أى أثر
سوى الاسلوب . ليس لنا أن نلومه على أسلوب السجع الذى أكثره متكلف ،
لان هذه كانت حالة الكتابة هناك ، وهكذا كانوا يكتبون . ولكن الذى تأخذه
على صاحب قلائد العقيان هو هذا الأسلوب الاجوف ، وهذه المبارات المنتفخة
الفارغة من كل معنى ، وان احتوى على معنى من المعانى اختفى ذلك تحت ستار
الألفاظ الطنانة ، وذابت جِدَّة اللفظ بتذوق المعنى ، واشتغل القارئ
بصورة الألفاظ عن العناية بما فيها من المعانى . فلقد يشير فى كلامه الى بعض
الناس ، بما يدل على شئ من أخلاقهم ، ويفيد القارئ والباحث ، ولكن
عنايته بالألفاظ ، وتناسق السجع ، قد يكون حاجزا منيعا بين القارئ ومعانى المؤلف ،
كما فى ترجمة سعيد بن منذر البلوطى ، وهى من التراجم الوافية فى المطمح ومن
نماذج كتاباته^١

١ قال فيه أية حركة فى سكون ، وبركه لم تكن ممددة ولا تكون . وآية سفاهة فى تحلم ، وجهامة ورع فى
طى تبسم واذا جد تجرد واذا هزل نزل ، وفى كلتا الحالتين لم ينزل للورع عن مرقب ، ولا
اكتسب انما ولا احتقب . ولى قضاء الجماعة بقرطبة أيام عبد الرحمن وناهيك من عدل أظهر . ومن
فضل اشتمر ، ومن جور قبض ، ومن حق رفع ، ومن باطل خفض . وكان مهيباً طيباً صارماً غير
جبان ولا عاجز . واستمر فى القضاء الى ان مات الناصر لدين الله ثم ولى ابنه الحكم فأقره وفى
خلافته تولى بعد أن استعفى مراراً فما أعنى فلم يحفظ عليه مدة ولايته قضية جور ، ولا عدت عليه فى
حكومته ذلة . وكان غزير العلم كثير الأدب متكلما بالحق متيناً بالصدق . له كتب مؤلفة فى
السنة والقرآن والورع والرد على أهل الأمواء والبدع . وكان بليغاً وشاعراً محسناً ولد سنة
ثلاث وعشرين ومائتين عند ولاية المنذر بن محمد وتوفى يوم الخميس الليثين بقيتا من ذى القعدة
سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة . (مطمح صفحة ٣٧)

على ان ابن خاقان أجاد في أساليب السجع اجادة قد تنقل الكلام المنور الى مرتبة الشعر المتعمل ، فيستولى بأسلوبه هذا على القراء لبراعته فيه ، ولأثره الشخصي في هذه الصناعة ، وقدرته على الاسترسال في ذلك ، مع ما فيها من كثرة المترادفات .

على أن هذه الصناعة اللفظية كان لها أثر عظيم في نفسه من حيث ادراك الجمال في القول ، والبحث عن مواقفه . فكان يرتفع أحيانا بعباراته الى أن تدب في النفس وتملأها اعجابا ، وتذكر القارئ بأثر جمال الالوان والرياح والزهور ، كما في خطبة قلائد العقيان

ولقد يتكلف في غير حاجة سوى تمكن ملكة التكلف من نفسه فيهبوش على القارئ ، كما في ترجمة ابن عيشون . فان ترجمته لهذا الرجل لا يعرف منها شيء غير رحلته الى المشرق ، ولكن أين ومتى ؟ وكأنما كان يكتب لمن يعرف الحوادث مثله ، فقد قال فيه : « رجل حل المشيدات والبلاقع ، وحيكي النسرين الطائر والواقع ، واستدر خلني البؤس والنعيم ، وقعد مقعد البائس والزعيم ، فأونة في سباط ، وأخرى بين درانك وأنماط ، ويوماً في ناموس ، وآخر في مجلس مأنوس . رحل الى المشرق فلم يحمد رحلته ، ولم يعلق بأمل نحلته ، فارتد على عقبه ، ورد من حباله الفوت الى منتظره ومرقبه ، ومع هذا فله تحقق في الأدب ، وتدقق طبع اذا مدح أو نسب^١ »

هذا هو أسلوب الفتوح في التأليف والكتابة ، وهو على ما فيه من الآثار

١ وقال أخبرني أنه دخل مصر وهو سار في ظلم البوس - صار من كل لبوس - قد خلا من النقد كئيبه ، وتحلى عنه الا تقديره وتنكيسه ، فذل بأحد شوارعها لا يفترش الا تكده ، ولا يتوسد الا عضده ، وبات بليلة ابن عبدل تهب عليه صرصرة لا ينفع منها غير . ولا صنع له ما كان من السحر ، دخل عليه ابن الطوفان وأشفق لحاله ، وفرط بحاله وأعلمه أن الأفضل استدعاه ، ولوار تاجوده بقطعة يثنيها له لأخصب مرعاه . فصنف له في حينه الخ (قلائد العقيان ص ٢٨٨)

النافعة لأدب الأندلس ، ومن صور اللغة العربية الدالة على أطورها في النثر ،
وعلى تمكن أساليب السجع من الكتاب في تلك الأيام ، وعلى ما فيه من الجمال
وبلاغة العبارة وعلى شيء من النظام العقلي لديهم ، لا يدل على شيء من
قوة الفكر لدى الكتاب الأدباء ، بل على أن اللغة في عزمها كانت غنية
بألفاظها لا بمعانيها ، وأن العناية بالأساليب سرت من المشرق إلى المغرب ،
فلكت من الكتاب كل شيء . وقد دخل هذا الأسلوب في الكتب العلمية
والتاريخية ، كما هو معروف ، ودل كتاب العرب على قدرتهم في استعمال الأساليب
المختلفة والألفاظ المختارة مما ليس عند أمة أخرى
على أن فضل الفتح بن خاقان لا ينبغي ولا ينكر بما جمعه في كتبه مما ليس
عند غيره

لسان الدين بن الخطيب

هو من أكبر وجوه العلم والأدب في آخر عصور العرب في الأندلس ، بل من أشهر من عرف هناك . وهو أبو عبد الله لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد المعروف بابن الخطيب القرطبي الأندلسي . تنقلت أسرته في كثير من بلاد الأندلس واستقر أبوه في غرناطة . وهناك ولد لسان الدين وعرف واشتهر في بلاد المغرب بابن الخطيب الساماني . نشأ من بيت علم وفضل ، وترقى على حب العلم ، وورث من أبيه كثيراً من ذلك . وكان معجبا به وبعلمه وأدبه وأخلاقه !

ولد لسان الدين بمدينة غرناطة سنة ٧١٣ هـ واتصل أبوه بملوك بني الأحمر وكان له شأن عظيم حين كانت غرناطة حافلة بالعلم وأهله من كل فن . فشب لسان الدين بين هؤلاء العلماء ، وانقطع إلى أفاضلهم وأخذ عنهم العلوم والآداب ، وكان من بين مشايخه الفلاسفة والأدباء والأطباء . تعلم الطب على أشهر علماء الأندلس وفلاسفتها في هذا العصر ، وبرع فيه وألف فيه كتابا سماه «الأصول لحفظ الصحة في الفضول» عده هو نفسه من أحدث طراز في ذلك الفن فقال «العجب

١ فقد قال عنه كان رحمه الله تعالى زمر عزم ، ورجل أخاء وأزم تروق أنوار خلاله الباهرة ، وتضيء مجالس الملوك من صورته الباطنة والظاهرة ، ذكاء يتوقد ، وطلاقة يحسد بورها الفرقد ، وكانت له في الأدب فريضة ، وفي النادرة العذبة منادم عريضة ، تكلمت يوما بين يديه في مسائل من الطب وأنشدته أبياتاً من شعري ، فنهل وابتهج ، وما برح أن ارتجل :
الطب والشعر والكتابة سياتنا في بني النجاسة
هن ثلاث مبلغات مراتبا بعضها الحجابة

حتى مع تأليف لهذا الكتاب الذى لم يؤلف مثله فى الطب وعملى ذلك لا أقدر على مداواة داء الأرق الذى بى « ومهما يكن من المبالغة فى كلامه فانه يؤخذ منه انه كان من علماء هذا الفن . وقد ألفت كتباً أخرى فى ذلك . فكانت معلوماته متوافرة فى الفلسفة والطب ، وامتزج بالأدب والفقه وأخذ عنهم علوم الدين من تفسير وحديث وفقه ، وتعلم العلوم العربية جميعها فكان عالماً وأديباً

هذه التربية العلمية الأدبية الممزوجة بميوله للعلوم والفنون وهبته نشاطاً عقلياً فكان من المؤلفين المشهورين ، كثير الدرس والقراءة . ورسائله الأدبية ومقطوعاته الشعرية كثيرة جداً . حتى قالوا انه كان يؤلف كل هذه الكتب لأنه كان يارق كثيراً

وقد اغترف من كل بحر قطرة ، وكتب فى كثير من الفنون المختلفة بين علمية وأدبية ، واطلع على أكثر ما كتب فى العلوم والفنون ، ولا سيما كتب التاريخ بحسبه بعض العلماء من المؤرخين الكبار . فكان عقله خزانة علوم وآداب . وكان عالماً وفقهاً وشاعراً وكاتباً ، ولكنه لم يختص بفن ولم يتفوق فى شيء تفوقه فى الأدب ، حتى كان من أمته . ورسائله كثيرة فى الجزء الثالث والرابع من نفع الطيب^١

لذلك كانت الصبغة الأدبية عليه أظهر ، والكتابة والشعر الصق به من غيرها ، فأجدر به أن يسمى أديباً لا عالماً . ولذلك أيضاً كتب فى كل نوع من أنواع الكتابة رسائل أدبية وسياسية وغيرها ، وهو فى كل ذلك واسع الخيال سديد الرأى ، حاد اللسان ، قادر على الاسترسال فيما يقول ، كثير الاطلاع على اللغة . فساعده هذا كله على الاطالة فيها يكتب ويفكر ، وكان يحب الاطناب بطبيعته

١ اكتفينا بالإشارة الى رسائل لسان الدين والى شعره لأن ذلك كثير يدعو الى الحيرة فى الاختيار فعلى القارئ أن يرجع الى الجزء الثالث والرابع من نفع الطيب

فاندفع وراء ذلك ، وهو مثلوج الصدر ، يعرض عليه خياله وفكره المعاني والألفاظ ، فلا يكاد يقف قلمه الا بعد أن يملأ من الفكر الصغير صفحات كبيرة . وكان قدر الكتابة عنده في الاكثار لا في الاجادة ، أو ان الاجادة كانت لا تفارق الاطالة لديه . وهذا كان أسلوب الكتاب في تلك الأيام . وكان يختار بجانب الاطالة السجع ، فكانت كتاباته لا تخلو من ملايين : ملل الاطالة وملل السجع . وربما كان أعظم عيب في أسلوب ابن الخطيب تلك الاطالة المملة ، والسجع المتكلف . غير ان ملل الاطالة أسوأ من تكلف السجع . لذلك كثيرا ما يخفى عيب السجع لاختيار الكاتب الألفاظ . وهذه الطريقة دليل على انحطاط أسلوب النثر ، لان طريقة السجع ليست طبيعية ، ولسان الدين كان من أكبر رجال هذه الصناعة ، وربما انفرد بالمبالغة فيها . ويكفي هذا الأسلوب مقنناً أنه لا يقدر على قراءته كل انسان ، وانه لا يعيش الا في بطون الكنب ، ولا يصح أن يكون نموذجاً من نماذج اللغة الا للاستدلال على سيرها في أزمنة التاريخ .

ولكن ذلك لا يدفعنا الى جحود ما في هذه الرسائل من المعاني والافكار الصحيحة ، أو من الشعور بان الكاتب يميل الى موضوعات كثيرة اجتماعية لم يطرقها كثير من الكتاب ، ككلامه في وصف المجالس والمحافل والمدن بالاو صاف الحقيقية ، والأسلوب القصصي الذي يسموه بالمقامات

أما شعره فكثير أيضاً ، وأكثره يدل على انه شعر رجل عالم من عشاق الشعر لا من رجاله الفنيين . وله قصائد طويلة تدل على سعة خياله ، أفضلها في ذلك موشحته الشهيرة التي أبدع فيها . وهي من أرق الشعر وأجمله . وقد طرق في شعره كثيراً من الموضوعات المختلفة والأساليب المتعددة ، فتجد الشعر الغزلي الرقيق ، والأسلوب الدقيق ، وتجد شعر الفقهاء ، وكلام الاتقياء ، وأسلوب

١ راجع هذه الموشحة والكلام عليها في باب الموشحات

العلماء ، وجفاف اللفظ والمعنى . على ان له كثيرا من القصائد الجميلة والمقطوعات الرقيقة .

أما حياته السياسية فقد اتصل بأحد ملوك بني الاحمر السلطان أبي الحجاج يوسف فأخذه في حاشيته ، وفي مقدمة كتابه . ثم جعله كاتبه الخاص وسلم اليه الوزارة وأمر الدولة وجعله سفيرا بينه وبين الملوك الآخرين . فكان اشتغاله بالسياسة من الأشياء التي فتحت عليه باب الكتابة في كثير من الموضوعات الاجتماعية والسياسية، على حسب ما كان يعلمه وما كان معروفافي ذلك الوقت . ولما مات أبو الحجاج خلفه ابنه محمد بن أبي الحجاج، فأقره على مكانه وأرسله الى ملوك افريقية ليستنجد بهم على أعدائه . وكانت الدولة في ذلك الوقت في اضطراب والناس بين مظلوم وظالم، وخارج على السلطان ومتملق له، وكل ذى نعمة محسود . فحسد لسان الدين . كثير من معاصريه وسعوا في الايقاع به . وكان قد خرج على محمد بن أبي الحجاج أخوه وتغلب عليه، فهرب ومعه ابن الخطيب ثم حوصر، وقبض على لسان الدين ، واستباح السلطان كل أموالها . ثم شفع لها سلطان المغرب . وأتى بهما الى فاس وأكرمهما . فجال لسان الدين في تلك البلاد، وانتقل الى أماكن كثيرة واستقر هناك . ولما رجع الملك الى محمد بن أبي الحجاج عاد الى الأندلس وكان استكتب أبو محمد هذا في غيبة لسان الدين ابن زمرك ، أحد مشهورى الكتاب والعلماء ، ومن أكبر وأشهر تلاميذ لسان الدين . فتولى ابن زمرك ديوان الكتابة والتف حوله جماعة من الفقهاء والعلماء الذين كانوا يحقدون على لسان الدين ، لانه ظهر عليهم وملك الدولة منهم . فأرادوا أن يتخلصوا منه ويأخذوا الأمر بيدهم . فأخذوا في بث الدسائس وايعاز السلطان عليه ، ولكن عند ما رجع لسان الدين الى الأندلس ارتفع شأنه ، وعرفه الناس في غيبته أكثر من معرفتهم له في حضرته . فحقد عليه تلميذه ابن زمرك ثانية، وأخذ عليه الفقهاء أشياء ينكرونها

وكانت العقول في ذلك الوقت ميالة الى الانحطاط ، لان البرابرة بشوا أفكارهم
السخيفة التي كانوا ينشرونها بجهلهم ، ونشروا كراهة العلوم الطبيعية والفلسفية . فأشاع
ابن زمرك عن لسان الدين انه كافر مارق ، وانه جاء في كتبه بكثير من المسائل
التي لا يبيحها الدين . فراجت هذه الوشائيات عند السلطان وأثارت غضبه
ولما علم لسان الدين بذلك ، وعرف انه لا بد أن يُنال منه ، عزم على الهرب الى
افريقية بدعوى انه ذاهب في أمور تتعلق بالملكمة . ولكن عند ما ذهب الى
افريقية اتفق ملك المغرب على تسلمه لابن الأحمر ، فسجن في فاس وأقى الفقهاء
بقتله ، ودسوا عليه أحد القواد فخنقه في سجنه ودفن في فاس ثم أخرجت جثته
وأحرقت بالنار سنة ٧٧٦ هـ وهكذا انتهت حياة لسان الدين بن الخطيب بعد أن
ملا الجوّ علماً وفضلاً وذاعت شهرته في المشرق والمغرب حتى كان أشبه بالجاحظ
في تأليفه من حيث اطلاعه الواسع وفضله الجم

الموشحات^(١)

بقى الشعر تابعاً لطريقة العرب في أغراضه وأوزانه ، إلى أن حدث في العقول مادعاها إلى الابتكار في العلوم والفنون . وكان الشعر من أقرب الأشياء إلى الألسنة ، وأكثرها انتشاراً في المجالس ، وأدعى إلى الانتقال من غيره ، لكثرة قائله وسامعيه والمتأثرين به ، واشتاله على كل مرافق الحياة . فتطلعت نفوس الغنيين من شعراء وأدباء إلى الانتقال به من صبغته البدوية إلى شكل حضري أشبه بالبداءة في الجمال ، وإن يزجوا به في مجتمعاتهم حتى يجاروا به القدماء في إلهاماتهم الجميلة وفطرتهم النقية ، وسداجتهم الفنية . فلم يفلحوا كثيراً في الخروج به عن أغراضه التي تكلم فيها القدماء ، مما هو ألصق بالصبغة الوجدانية منه بالصبغة الاجتماعية . ولكنهم زادوا في وجدانياته مما استدعته الحضارة ، من التوسع في الحمريات والعواطف من عشق وغيره ، ووصف المناظر الجميلة والحدائق المنضرة ، وكل ما استلزمته حالتهم من آثار المدنية والعمران . ذلك من جهة أغراضه .

١ راجع في الكلام على الموشحات مقدمة ابن خلدون والجزء الرابع من نفع الطيب طبع بولاق ص ٦٠٦ وما بعدها ودار الطراز لابن سناء الملك

Journal Asiatique. 1848. volume 2 page 248-251 et 3e. Serie volume 8 page. 155

والباب الثاني والسبعين من كتاب « المستطرف » تأليف شهاب الدين أحمد الأبنسي . والجزء الأول من « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر » تأليف المولى محمد المحبى من ص ١٠٨ إلى ١١٠ وجاء في كشف الظنون طبع بولاق ج ١ ص ٣٦٧ « الدر المكنون في سبع فنون » لمحمد بن أحمد بن الياس الحنفى . رتب على سبعة أبواب في فن الأشعار البديعة وفن الموشحات والمواليا وفن الكاز وفن القوافي وفن الأزجال . والخاتمة فيما قيل في الحلق . أوله الحمد لله البديع فرغ في رجب سنة ٩١٢ ولم نثر على هذا الكتاب

أما من جهة أوزانه وصناعته ، فقد كانت الخلال فيه أسهل . فابتكروا من الأوزان في الشعر والصناعة ما لم يبتكروه في المعاني والأغراض . وتوسعوا في ذلك حتى لقد ينجس إلى المطع على الشعر العربي القديم والحديث أن هذا انقلاب عظيم ، وطور من الأطوار الحديثة التي تخطاها الشعر . ولكن ذلك أظهر ما يكون في الأوزان والقوافي ، والقوانين التي وضعوها في رقة الأسلوب ، وبعض الخيالات التي لم تكن معروفة . حتى أخذ الشعر العربي صبغة حديثة بما أدخل فيه من هذه الأنواع المختلفة الأوزان والتقاطيع ، الجارية على غير ما كان معروفاً فيه ، وخرجوا عن التقييد بنظام القوافي المعروف . قال ابن خلدون في « فصل أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد » : ولم فن آخر كثير التداول في نظمهم ، يجيئون به معصباً على أربعة أجزاء ، يخالف آخرها الثلاثة في رويته ، ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت إلى آخر القصيدة ، تشبيهاً بالمربع والخمس الذي أحدثه المتأخرون من المولدين الخ .

وقسم بعض المتأخرين الأنواع التي حدثت في الشعر ، إلى الشعر القريض والموشح والدوبيت والزجل والمواليات والكان وكان والقوما وغيرها وقالوا في ذلك :

« أول من نظم « الموشح » المغاربة ، وهذبه القاضي الأجل هبة الله بن سناء الملك . وتداوله الناس إلى الآن . وسمى موشحاً لأن خرجاته وأغصانه كالوشاح له . وسبب تقدمه على ما بعده لاعرابه كالشعر . لكن يخالفه بكثرة أوزانه ، وثارة يوافق أوزان الشعر وثارة يخالفه . « والدوبيت » أول من اخترعه الفرس ونظموه بلغتهم ومعناه بيتان ، ويقال له الرباعي لأربعة مصاربه . وقد اشتهر بأعجام داله وهو تصحيف . وهو ثلاثة أقسام يكون بأربع قواف كالموالية ، وأعرج بثلاث قواف ، ومردوفاً بأربع أيضاً ، وكله على وزن واحد . وتقدم على ما بعده لاعرابه أيضاً . وأول من اخترع « الزجل » رجل اسمه راشد وقيل

أبو بكر قزمان^١ وهو في اللغة الصوت ، وسمى زجلا لانه يلتذ به ويفهم مقاطع أوزانه ولزوم قوافيه حتى يفنى به ويصوت . وهو خمسة أقسام ماتضمن الغزل والزهر والخمر وحكاية الحال ، يختص بالزجل ، وما تضمن الهزل والخلاعة ويقال له « بليق » وما تضمن الهجو والنكت ويقال له « حَاق » وما بعض ألفاظه معربة وبعضها ملحونة فاسمه « مزيلج » وما تضمن الحكم والمواعظ فاسمه « المكفر » بكسر الفاء المشددة . والأول أصعب هذه الخمسة . وقال مخترعه - قزمان : « لقد جردته من الاعراب كما يجرد السيف من القراب » . وسبب تقدمه على مابعده كثرة أوزانه وصعوبة نظمه وقربه من الموشح في أغصانه وخرجاته . وأول من اخترع « المواليا » أهل واسط وهو من بحر البسيط، اقتطعوا منه بيتين وقفوا شطر كل بيت بقافية، ونظموا فيه الغزل والمديح وسائر الصنائع على قاعدة القريض . وكان سهل التناول تعلمه عبيدهم والعلمان وصاروا يفنون به في رؤوس النخل وعل سقى المياه، ويقولون في آخر كل صوت ياماليا ، إشارة الى ساداتهم ، فسمى بهذا الاسم . ولم يزل على هذا الاسلوب حتى استعمله البغداديون فلفظوه حتى عرف بهم دون مخترعيه ، ثم شاع . وسبب تقدمه على كل مابعده لأنه من بحر القريض بحيث ينظم معربا على قاعدته . وأما « الكان وكان » فله نظم واحد وقافية واحدة ، ولكن الشطر الأول من البيت أطول من الثاني ، ولا تكون قافيته الا مردوفة . وأول من اخترعه البغداديون ، وسبب تسميته بهذا الاسم انهم لم ينظموا فيه سوى الحكايات والخرافات . فكان قائله يحكي ما كان ، الى أن ظهر لهم مثل الامام ابن الجوزي ، والواعظ شمس الدين الكوفي وغيرهما من فضلاء بغداد فنظموا فيه المواعظ والحكم . وسبب تقدمه على مابعده لأنه ينظم بعض ألفاظه

١ الصواب انه ابن قزمان وهو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن قزمان تولى سنة ٥٥٥ هـ له ديوان مخطوط في عاصمة روسيا يشتمل على أزجاله منه نسخة فتقرافية بدار الكتب المصرية وراجع في الكلام عليه

معربة . وأما « القوما » فله وزن ، الأول مركب من أربعة أفعال ، ثلاثة متوازية في الوزن والقافية ، والرابع أطول منها وزناً ، وهو مهمل بغير قافية ، والثاني من ثلاثة أفعال مختلفة الوزن متفقة القافية ، يكون القفل الأول منها أقصر من الثاني ، والثاني أقصر من الثالث . وأول من اخترعه البغداديون أيضاً في الدولة العباسية برسم السحور في رمضان . وسمى بهذا الاسم من قول المغنيين بعضهم لبعض « قوما لنسحر قوما » فغلب عليه هذا الاسم . ثم شاع ونظموا فيه الزهري والخمري والعتاب وسائر الأنواع . وأول من اخترعه أبو نقطة للخليفة الناصر ، وكان يعجبه ويطلب له . وجعل لابي نقطة عليه وظيفة في كل سنة . ولما توفي أبو نقطة كان له ولد صغير ماهر في نظم القوما ، فأراد أن يعرف الخليفة بموت والده ليجربه على مفروضه ، فتعذر عليه ذلك الى رمضان . ثم جمع أتباع والده ووقف أول ليلة منه تحت الطيارة وغنى التوما بصوت رقيق ، فأصغى الخليفة وطرب له . فلما أراد أن ينصرف قال له :

يا سيد السادات لك بالكرم عادات
أنا ابن أبي نقطة تعيش أبي قد مات

فأعجب الخليفة من هذا الاختصار ، فأحضره وخلع عليه وجعل له ضعف ما كان لأبيه والقوما والكان وكان لا يعرفها سوى أهل العراق وربما تكلف غيرهم نظماً . وكل بيت من القوما قائم بنفسه وأما تأخيرها فلمدم اعرا به^١ .
واشتهر من هذه الأنواع في الأندلس ما هو معروف « بالموشحات »^٢ وأصل

١ راجع خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر ج ١ ص ١٠٨
٢ قالوا في مخترع هذه الموشحات انه مقدم بن مفاي الفريري؟ من شعراء الأمير عبد الله ابن محمد المرواني وأخذ عنه عبد الله احمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد . هكذا في مقدمة ابن خلدون . وجاء في الذخيرة في الكلام على الأديب ابي بكر عبادة بن ماء السماء المتوفى سنة ٤٢٢ هـ ... سلك الى الشعر مسلكا سهلا . فقالت له غرابته مرحباً وأهلاً ، وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقتها ، ووضعوا حقيقتها ، غير مرقومة البرود ، ولا منظومة المقود ، فأقام عبادة هذا منادها . وقوم ميلها وسنادها ، فكأنها لم تسمع بالأندلس الا منه ، ولا

الكلمة من الوشاح، وهو عقد من لؤلؤ وجوهر منظومين مخالف بينهما مطوف أحدهما على الآخر، تتوشح المرأة به، والشبه بين الموشحات والوشاح ظاهر في اختلاف الوزن والقافية في الأبيات وجمعها في كلام واحد كما سنرى .

وقد دعاهم الى ذلك حب الابتكار والميل الى الجمال والرفاهية حتى في أوزان الشعر وطرقه . فزجوا بين الأوزان المختلفة والقوافي المتعددة في قصيدة واحدة . وربما ألفوا بين وزن مخترع ووزن معروف . وربما اخترعوا أوزانا مختلفة ونظموا عليها قصيدة واحدة . وقد يلحنون كلامهم هذا ويفنون به ، لما فيه من خفة الوزن وورقة اللفظ . وقد ذكر ذلك ابن خلدون في مقدمته فقال :^١

«وأما أهل الاندلس فلما كثرت الشعر في قطرهم، وتهدبت مناحيه وفنونه، وبلغ التمشيق فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم فناً منه سموه بالموشح ، ينظمونه أسماطاً أسماطاً ، وأغصاناً أغصاناً . يكثر منها ومن أعاريضها المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً، ويلتزمون عدد قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعد الى آخر القطعة . وأكثرت ما ينتهي عندهم الى سبعة أبيات . ويشتمل كل بيت على أغصان ، عددها بحسب الأغراض والمذاهب . وينسبون فيها ويمدجون كما يفعل في القصائد . ويتجاوزون في ذلك الى الغاية، واستظرفه الناس وجملة الخاصة

أخذت الاعنة وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بافتنائها بلقي محمد بن حمود العمري الضريرو وكان يضعها على أشطار الأشعار، غير أن أكثرها على الأعاريض المهمة غير المستتمة يأخذ اللفظ العاصي والمعجمي فيسيه المركز . ويضع عليها الموشحة دون تغيير فيها ولا أغصان وقيل ان ابن عبد ربه صاحب العقد أول من سبق الى هذا النوع من الموشحات

ثم نشأ يوسف بن هرون الرمادي فكان أول من أكثر فيها من التضمين في المراكز يضمن كل موقف يقف عليه في المركز خاصة ، فاستمر على ذلك شعراء عصره كمشكرم ابن سعيد وابن أبي الحسن . ثم نشأ عبادة فأحدث التصغير وذلك انه اعتمد على مواضع الوقف في الاغصان فيضمها كما اعتمد الرمادي مواضع الوقف في المركز

١ اخترنا نقل عبارة ابن خلدون في الموشحات لانها من أجمع ما قيل فيها وقد أخذنا هذا عن نفع الطيب عند كلامه على الموشحات

والكافة لسهولة تناوله، وقرب طريقه. وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم
 ابن معافر الفريرى القبرى من شعراء الأئمة عبد الله بن محمد المرأتى، وأخذ عنه ذلك
 ابن عبد ربه صاحب العقد، ولم يذكر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما
 فكان أول من برع في هذا الشأن بعدما عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صاهد
 صاحب المرية. وقد ذكر الأعم البطليوسى أنه سمع أبا بكر بن زهر يقول كل
 الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله :

بدرتم	شمس ضحى	عصن نقا	مسك شم
ما أتم	ما أوضحا	ما أورقا	ما أتم
لا جرم	من لحا	قد عشقا	قد حرم

وزعموا أنه لم يسبق عبادة وشاح من معاصريه الذين كانوا في زمان ملوك
 الطوائف. وجاء مصليا خلفه منهم ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذى النون
 صاحب طليطلة. قالوا وقد أحسن في ابتدائه في الموشحة التي طارت له حيث يقول
 العود قد ترنم بأبدع تلحين وشقت المذانب رياض البساتين
 وفي انتهائه حيث يقول :

تخطر ولا تسلم عسالك المأمون مروع الكتائب يحيى بن ذى النون
 ثم جاءت الحلبة التي كانت في مدة الملمين فظهرت لهم البدائع، وفرسان
 حلبتهم الأعمى التطيلي ثم يحيى بن بقرى والتطيلي من الموشحات المذهبة قوله
 كيف السبيل الى صبرى وفي المعالم أشجان
 والركب وسط الفلا بالخررد النواعم قد بانوا

١ قد اختلفوا في هذا الاسم ففي مقدمة ابن خلدون الفريرى وفي الذخيرة محمد بن محمود أو محمود المرى
 وفي فوات الوفيات ترجمة عبادة بن ماء السماء (ج ١ ص ٢٥٤) محمد بن محمود أو ابن جود المقبرى الضرير
 وهو ناقل عن الذخيرة وفي نفع الطيب في الكلام على الموشحات نقلا عن ابن خلدون مقدم
 ابن معافر القبرى وفي مقدمة ابن خلدون طبع باريس صفحة ٣٩٠ جزء ثالث مقدم بن
 معافرا ومعافرف والتبيرى بدل الفريرى أو التبيرى وهو خلط بدل على تحريف هذا الاسم

وذكر غير واحد من المشايخ أن أهل هذا الشأن بالأندلس يذكرون أن
جماعة من الوشاحين اجتمعوا في مجلس باشبيلية ، وكان كل واحد منهم قد صنع
موشحة وتأنق فيها، فتقدم الأعمى التطيلي للانشاد، فلما افتتح موشحته المشهورة
بقوله :

ضاحك عن جمان سافر عن بدر
ضاق عنه الزمان وحواه صدرى

خرق ابن بقی موشحته وتبعه الباقرن . وذکر الاعلم البطليوسى أنه سمع
ابن زهر يقول ما حسدت قط وشاحا على قول الابن بقی حين وقع له
أما ترى أحمد في مجده العالی لا يلحق
أطلعـه المغرب فارنا مثله يامشرق

وكان في عصرهما من الوشاحين المطبوعين أبو بكر الأبيض ، وكان في
عصرهما أيضا الحكيم أبو بكر بن باجه صاحب التلاحين المعروفة. ومن الحكايات
المشهورة أنه حضر مجلس مخدمه ابن تيفلويت صاحب سرقسطة فألقى عليه
بعض موشحته : جبر الذيل أيما جر . فطرب الممدوح لذلك وختما بقوله

عقد الله راية النصر لأمير العلاء أبي بكر

فلما طرق ذلك التلاحين سمع ابن تيفلويت صاح واطرباه ، وشق ثيابه ، وقال
ما أحسن ما بدأت وما ختمت . وحلف الأيمان الغلظة أن لا يمشى ابن باجة
لداره الأعلى الذهب. تخاف الحكيم سوء الماقبة فاحتال بان جعل ذهباً في نعله
ومشى عليه . ثم قال ابن خلدون بعد كلام . واشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة
الموحدين محمد بن أبي الفضل بن شرف . الى أن قال وابن هردوس الذى له :

يا ليلة الوصل والسعود بالله عودى

وابن مؤهل الذى له

ما العيد في حلة وطاق وشم طيب وإنما العيد في التلاق مع الحبيب
 وأبو اسحق الدويني . قال ابن سعيد سمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول
 انه دخل على ابن زهر وقد أسن وعليه زى البادية ، اذ كان يسكن بمحصن سبته فلم
 يعرفه ، فجلس حيث انتهى به المجلس ، وجرت المحاضرة أن أنشد لنفسه موشحة
 وقع فيها .

كحل الدجى يجرى من مقلة الفجر على الصباح
 ومعصم النهر في حلل خضر من البطاح

فتحرك ابن زهر وقال أنت تقول هذا؟ قال اختر . قال ومن تكون؟ فأخبره .
 فقال ارتفع فوالله ما عرفتك . قال ابن سعيد وسابق الحلبة التي أدركت هو أبو بكر
 ابن زهر ، وقد شرقت موشحاته وغربت . قال وسمعت أبا الحسن سهل بن مالك
 يقول لابن زهر لو قيل لك ما أبدع ما وقع لك في التوشيح؟ فقال كنت أقول :

مالمو له من سكره لا يفيق ياله سكران
 هل تستعاد أيامنا بالخليج وليالينا
 اذ يستفاد من النسيم الاريح مسك دارينا
 واذا يسكاد حسن المكان البهيج أن يميننا
 نهر أظله دوح عليه أنيق مؤنق فينان
 والماء يجرى وعأم وغريق من جنى الريحان

واشتهر بعده ابن حيون . الى أن قال: وبعد هؤلاء ابن حزمون بمرسيه . ذكر
 ابن الراس أن يحيى الخزرجي دخل عليه في مجلسه فأنشده موشحة لنفسه ، فقال
 له ابن حزمون ما الموشح بموشح حتى يكون عاريا من التكلف . فقال علي مثل
 ماذا؟ فقال علي مثل قولى:

ياها جرى هل الى الوصال منك سبيل
أو هل يرى عن هواك سال قلب العليل

وأبو الحسن سهل بن مالك بفرناطه، قال ابن سميذ كان والدى يمجيب بقوله
ان سيل الصباح فى الشرق عاد بجرأ فى أجمع الافق
فصداعت نوادب الورق أتراها خافت من الفرق
فبكت سحرة على الورق

واشتهر بأشبيلية لذلك العهد أبو الحسن بن الفضل. قال ابن سميذ عن والده
سمعت سهل بن مالك يقول له يا ابن الفضل لك على الوشاحين الفضل بقولك

أوا حسرتى لزمان مضى عشية بان الهوى وانقضى
وأفردت بالرغم لا بالرضا وبت على جمرات الغضى
أعاقق بالفكر تلك الطول وأثم بالوهم تلك الرسوم

قال وسمعت أبا بكر بن الصابونى ينشد الاستاذ أبا الحسن الدباج موشحاته
غير مامرة ، فما سمعته يقول لله درك الا فى قوله .

قسما بالهوى لذى حجر ما لليل المشوق من فجر
خذ الصبح ليس يطرد ما لليلي فيما أظن غد
صح يا ليل انك الابد

أو نقصت قوادم النسر فنجوم السماء لا تسرى

ومن موشحات ابن الصابونى قوله

ما حال صب ذى ضنى وا كتاب أمرضه يا وليلتاه الطيب
عامله محبوبه باجتساب ثم اقتدى فيه الكرى بالحبيب

جنى جفونى النوم لكننى لم أبكه الا لفقد الخيال
وذو الوصال اليوم قد غرنى منه كما شاء وشاء الوصال
فلست باللائم من صدنى بصورة الحق ولا بالمحال
واشتهر ببر العدو ابن خلف الجزأرى صاحب الموشحة المشهورة
يد الاصباح قدحت زناد الأنوار من مجامر الزهر
وابن خزر البجائى وله من موشحه

نفر الزمان موافق حباك منه بابتسام

ومن محاسن الموشحات موشحة ابن سهل شاعر اشبيلية وسبته من بعدها قوله :

هل درى ظبي الحمى أن قد حى قلب صب حله عن مكنس
فهو فى حر وخفق مثل ما لعبت ربح الصبا بالقبس»

هذه نماذج الموشحات مما ذكره ابن خلدون . ونعود فنقول : ان سبب
اختراع الموشحات فى الأندلس ما تولد فى النفوس من رقة وميل الى الخلاعة
والدعابة فى الكلام ، وفى نوع التعابير وشعور الناس من أدباء وشعراء بضرورة
الخروج من الاوزان القديمة المعروفة ، لضيق تلك الأوزان عن احتمال عبث
الشعراء بالشعر على حسب أهوائهم

والمقول اذا مالت الى التغيير مالت الى الابتكار وحب الجديد . لذلك سئم
الناس طريقة الشعر القديمة المعروفة ، وحاولوا ابتكار شىء جديد ، فاخترعوا تلك
الاوزان لتساعدهم على ما يريدون من الكلام فى مجبوحة اللهو والطرب والرقص
وانشاد الشعر بطريقة خفيفة على النفس . فوجدوا ذلك أدعى الى تحريك النفوس
فابتدؤا أولا بالاوزان العربية الخفيفة المعروفة ، كالرمل والمزج والمقطوعات وغير
ذلك ، وغيروا فيها القافية . وولدوا من ذلك الموشحات وأباحوا لأنفسهم التغيير
فى الوزن والقافية . فاخترعوا من الأوزان مالا قاعدة له . ثم توسعوا فى هذه الاوزان

وتفننوا فيها ، وأودعوا هذا النوع الجديد من الشعر ميولهم وأهواءهم . واشتغل
بذلك الظرفاء والادباء فشمل هذا الشعر كل أنواع اللهو والتسلى . ثم عمشى في نفوس
جميع الناس حتى أصبح نوعاً من أنواع الشعر العام . فنظم على أسلوبه الحكماء
والفقهاء عبارات الوعظ والحكم ، ومنهم التقى المشهور والصوفى المعروف محيي
الدين بن العربي

ثم تخطى هذا النوع من بلاد الأندلس الى بلاد البربر وغيرها من بلاد المشرق
وكثير من البلاد الاسلامية ، فنبت شعراء كثيرون في هذا النوع . وانبعث هذا
الكلام من نفوس العامة ، أو من الآراء والافكار التي كانت تدور في رؤوس كثير
من الناس ، فنظمتها كبار الشعراء . وما زالت العامة تجذب الخاصة اليها ، وتدفعها الى
التعبير عن أفكارها المنتشرة الدائرة في نفوسها وعلى ألسنتها ، سواء أكانت من
طريق الكلام أم من طريق الأغاني ، حتى قربت الموشحات من لغة العامة
وصارت من كلامهم وأناشيدهم . وكلما قربت من العامة بعدت عن اللغة العربية
الفصحى وعن الشعر العربي . لذلك كان ظهور نفوس العامة وحالتهم العقلية
في الموشحات أكثر وضوحاً منه في الشعر العربي الفصيح

فلا غرو أن نجد في الموشحات خلطاً بين الشعر العربي الصحيح والكلام العامي
الملحون ، لأن أصلها مأخوذ من الشعر العربي ، لذلك لا تخلو من
أثره في الصناعة والأخيلة والأسلوب وقواعد العروض . كما تتخلل ذلك
عبارات عامية ، وأحياناً يتمشى الشاعر على غير قواعد اللغة . فنجد أبياتاً غير عربية
وعبارات غير معربة . فليست الموشحات عربية صرفة ولا عامية بحتة ، بل يمكن
أن يقال انها شعر عربي ، ولكن في غير الأسلوب الشعري العربي الصميم
وصناعته المعروفة .

وقد كان للموشحات أن تحدث في الشعر نوعاً جديداً لو لم يقصر الشعراء

ابتكاراتهم على الديباجة والوزن والقافية . ولكنهم لم يخرجوا عن الموضوعات والمعاني المعروفة قبلهم عند شعراء العرب . فلم يتكلموا في الموضوعات العامة الاجتماعية ولم يخرجوا فيها عن التعبير عما يجول بالنفوس من مسائل العشق والغرام وما يشبهها كما قلنا . لأنهم أرادوا أن يتغنوا بذلك . ثم أوغلوا في التعبيرات الشخصية وبعض هذه التعبيرات لا يمكن أن تؤدي المعنى المقصود الا بلهجة خاصة ، فاضطروا الى استعمال بعض العبارات العامة . ثم توسعوا في ذلك حتى تعددت هذه اللهجات وكثير منها لهجات عامية لا يتذوقها كل من يعرف العربية الفصحى . ومن هذا تطرقوا الى الزجل ذلك الشعر العامي المعروف .

فالמושحات علامة من علامات الانتقال في الشعر العربي، لانها حادث جديد في الأدب ، ولكنها علامة من علامات انحلال وحدة اللغة العربية وضياعها أيضاً، اذ لو كان لها أن تنتشر انتشارا عاما في جميع البلدان لادت الى انتشار اللغة العامية في كل قطر ، فتصبح كل أمة ذات شعر خاص ولهجة خاصة ، يصعب فهمها على غيرها من الأمم . الاخرى . على ان لذلك ميزة وهي ان العامة يفهمون لغتها الخاصة أكثر مما يفهمون اللغة الفصحى . ولكن هذا يدعو كما قلنا الى انحلال الوحدة اللغوية

وقد ذكر ابن سناء الملك في كتاب له سماه « دار الطراز في صناعة الموشحات وأنواعها » . كلاما عن الموشحات وأنواعها وهو أجمع كتاب في ذلك فرأينا أن تنقل منه جزءا عظيما قال .

١ وجاء في كشف الظنون . در الطراز « لا دار الطراز » لابن القاسم هبة الله بن حمفر المصري التوفيق سنة ٦٨٠ (راجع كشف الظنون ج ١ ص ٣٦٠ طبع بولاق)

« ... الموشح كلام منظوم على وزن مخصوص . وهو يألف في الاكثر من ستة أفعال وخمسة أبيات، ويقال له التام. وفي الأقل من خمسة أفعال وخمسة أبيات ويقال له الأقرع . فالتام ما ابتدئ فيه بالأفعال ، والأقرع ما ابتدئ فيه بالأبيات. فنال التام موشح الأعمى وهو

صاحك عن جمان سافر عن بدر ضاق عنه الزمان وحواه صدرى

فهذا الموشح ابتدئ بفقلة. ومثال الأقرع

نسطوة الحبيب أحلى من جنا النحل

وعلى الكئيب أن يخضع للذل

أنا فى حروب مع الحدق النجل

ليس لى يدان يا حور فتان من رأى جفونه فقد أفسدت دينه

فهذا الموشح ابتدئ ببيتته . والاقفال هي أجزاء مؤلفة ، يلزم أن يكون كل قفل منها متفقاً مع بقيتها في وزنها وقوافيها وعدد أجزاءها . والأبيات هي أجزاء مؤلفة مفردة أو مركبة، يلزم في كل بيت منها أن يكون متفقاً مع بقية أبيات الموشح في أوزانها وعدد أجزاءها ، لافي قوافيها . بل يحسن أن تكون قوافي كل بيت منها مخالفة لقوافي البيت الآخر . والقفل كما تقدم يتردد في الموشح ست مرات في التام وخمس مرات في الأقرع . وأقل ما يتركب القفل من جزئين فصاعداً الى ثمانية أجزاء وعشرة أجزاء . ولم أجد للمغاربة منه ما أتق بنسبه، فلهدا لم أذكر مثالا منه . والبيت لا بد أن يتردد في التام وفي الأقرع خمس مرات . وأقل ما يكون البيت ثلاثة أجزاء . وقد يكون في النادر من جزئين . وقد يكون من ثلاثة أجزاء ونصف . وهذا لا يكون إلا فيما أجزاءه مركبة . وأكثر ما يكون خمسة أجزاء . والجزء من القفل لا يكون الا مفرداً ، والجزء من البيت قد يكون مفرداً وقد يكون مركباً

والمركب لا يتركب الا من فقرتين أو ثلاث فقر، وقد يتركب في الأقل من أربع فقر. وسنكتب هاهنا مثالا لكل ما ذكرناه ليتلخص ويتشخص وينتقل ما تدركه بالقول سماعاً الى أن تراه بالخط عياناً. فأمثلة الاقفال:

القفل المركب من جزئين

شمس قارنت بدرا راح وسديم

المركب من ثلاثة اجزاء

حلت يد الأمطار أزرة النوار فيأخذاني

المركب من أربعة اجزاء

أدر لنا كواب ينسى بها الوجد واستحضر الجلاس كما اقتضى الود

المركب من خمسة اجزاء

يا من أجود ويبخل على شحى وافتقارى أهواك وعندى زيادة منها شاره

المركب من ستة اجزاء

ميتات الدمن أحيين كربى وهل يتمكن عزالقلبي مت ياعزاه شاه

المركب من سبعة اجزاء

الموشح المعروف بالمروس، وهو ملحون، واللحن لا يجوز استعماله فى شىء من

ألفاظ الموشح الا فى الخرجة خاصة. ولهذا لم نورد مثالا

المركب من ثمانية اجزاء

على عيون العين نعى الدرارى من شغف بالحب

واستعذب العذاب والتذ حاليه من أسف وكرب

وقد ينسدر في بعض الموشحات الشاذة التي لا يعول عليها أن تكون أقفالها

مختلفة أعداد الاجزاء كالموشح الذي أوله : بابي علق بالنفس عليق
وهذا الموشح لعبادة ، فان قفله الأول جزءان ، وبقية أقفاله ثلاثة. وسيأتى في
هذا الموشح منسوقاً في جملة ما نذكر من الموشحات التي ذكرت الأمثلة منها.
فأنى أذكر في آخر هذه الاوراق كل موشح ذكرت المشال منه ، ليكون أنس
المتعلم بها أكثر ، وعلمه بها في نفسه أرسخ .

أمثلة الأبيات

أمثلة ما أجزاءه مفردة : ما هو منها على ثلاثة أجزاء

أرى لك مهند أحاط به الأئمة فجرد ماجرد

فيا ساحر الجفن حسامك قطاع

ما هو منها على أربعة أجزاء

قد باح دمعى بما أكتنه وحن قلبي لمن يظلمه

رشا تمرن في لافه كم بالمنى أبدا أئنه

يفتر عن لؤلؤ متسق من للأقح بنسيمه العبق

أمثلة الأبيات التي اجزاؤها مركبة

ما تركب من فقرتين وثلاثة أجزاء.

أقم عذرى فقد آن أن أعكف

على خمر يطوف بها أوظف

كما تدرى هضم الحشى مخطف

أذا ماماد في مخضرة الأبراد رأيت الآس بأوراقه قد ماس

ماتركب من فقرتين وثلاثة أجزاء ونصف

من أودع الاجفان صوارم الهند
وأنتب الريحان في صفحة الخد
قضى على الهيمان بالدمع والسهد

أنى وللكمان للهايم المغرم بدمع نم اذ يسجم بما يكتم
من السر في عاطل جال عزيزساط على بالدعج
ماتركب من فقرتين وأربعة أجزاء

ماحوى محاسن الدهر الاغزال
معروف الجدين من فهر عم وخال
نسبته للنابل الغمر وللنزال
فأنا أهواه للسفخر وللجمال

وجبه وجه طليق للضيوف مشرق ويد تسطو على الاسد فتفندق

ماتركب من فقرتين وخمسة أجزاء

هن الظباء الشمس قنيصهن الضيفم
ما ان لها من كنس الا القلوب الهيم
القرب منها عرس والبعد عنها ماتم
تلك الشفاة اللعس يحيا بهن المغرم
لها لحاظ نعس ترنوا الى من تسقم

بأعين الغزلان وتبتسم عن جوهر الاسماط
قضى لها الغيران ان تكتم في مضمر الانبساط

وقد يندر في بعض الموشحات ما يكون بينه جزأين مركبين من فقرتين وهو

شاذ جداً وهو

انما يجي سليل الكرام واحد الدنيا ومعنى الانام
 وقد تكون الخرجة معربة وان لم يكن فيها اسم المدوح، ولكن بشرط أن
 تكون الفاظها غزلة جداً، هزازة سحارة خلافة بينها وبين الصباية قرابة. وهذا
 معجز معوز، وما يوجد منه في الموشحات سوى موشحين أو ثلاثة، كقول ابن بقل:
 ليل طويل ولا ممين يا قلب بعض الناس أما تلين
 فمن قدر أن يقول هكذا فليعرب والا فليغرب. والمشروع بل المفروض في
 الخرجة أن يجعل الخرج الينا وثبا واستطرادا، وقولا مستعارا على بعض السنة
 الناطق والصامت، أو على الأغراض المختلفة. وأكثر ما يجعل على أسنة الصبيان
 والنسوان والسكري والسكران. ولا بد في البيت الذي قبل الخرجة من قال أو
 قلت أو قالت أو غنى أو غنيت أو غنت فما جعل على لسان الحمام قول عبادة
 ان الحمام في أيكما تشدو

قل هل عليم أو هل عهد أو كان كالمعصم والمعتضد ملكان
 ومما جعل على لسان الغرام قول ابن بقل
 أنا وأنتا أسوة هذا الهجر
 بالصبر بتنا عند انصداع الفجر
 ومن رحلتنا غنى الجوى في صدرى
 سافر حبيبي سحر وما ودعتوا يا وحش قلبي في الليل اذا افكرتوا
 ومما استعير على لسان الهيجا قول عبادة

فالهيجا تغنى والسيف قد طرب
 ما أملح العساكر وترتيب الصفوف والابطال تصيح الواثق يا جدع

والموشحات تنقسم قسمين: الاول ما جاء على أوزان أشعار العرب والثانى

ملا وزن له فيها ولا المام . له بها والذي على أوزان الأشعار ينقسم قسمين أحدهما مالا تتخلل أفعاله وأبياته كلمة تخرج تلك الفقرة التي جاءت فيها تلك الكلمة عن الوزن الشعري . وما كان من الموشحات على هذا النسخ فهو المرذول المخدول، وهو بالخمسات أشبه منه بالموشحات، ولا يفعله إلا الضعفاء من الشعراء . ومن أراد أن يتشبه بما لا يعرف، ويتشبع بما لا يملك، اللهم إلا ان كانت قوافي قفله مختلفة فانه يخرج باختلاف القوافي الاقوال، فيقال من الخمسات كقول بعضهم

ياشقيق الروح من جسدي أهوى بي منك أم لم
فهذا من المديد وكقول الآخر

أيها الساقى اليك المشتكى قد دعوتك وان لم تسمع

فهذا من الرمل وفي شجيان الوشاحين والطعابين في صدور الاوزان من يأخذ بيت شعر مشهوراً ويجعله خرقة، ويبنى موشحه عليه، كما فعل ابن بقي في بيت ابن المعتز وهو

عاموني كيف أسلو والا فاحجبوا عن مقلتي الملاحا

فان ابن بقي جعله خرقة لموشحه ، وسيأتي ذكره . وفي الوشاحين من أهل الشطارة والدعارة من يأخذ بيتاً من أبيات المحدثين ويجعله بألفاظه في بيت من أبيات موشحه، كما فعل ابن بقي في بيت كشاجم قال:

يقولون تب والكأس في كف أعيد وصوت المثنى والمثلث على
فقلت لهم ان كنت أضمرت توبة وأبصرت هذا كاه لبدالى

فقال ابن بقي

قالوا ولم يقولوا صوابا

أفريت في المجون الشبابا

فقلت لو نويت متابا

والكأس في يمين غزالي والصوت في الثالث عال لبدالي
والقسم الآخر ماتخلت أبياته كلمة أو حركة ملتزمة كسرة كانت أو
ضمة أو فتحة عن أن يكون شعراً صرفاً وقريضاً محضاً، فثال الكلمة قول ابن بريق
صبرت والصبر شيمة العاني ولم أقل للمطيل هجراني معذبي كفاني
فهذا من المنسرح وأخرجه منه « معذبي كفاني » ومثال الحركة هو أن يجعل
على قافية في وزن ويتكلف شاعرها أن يعيد تلك الحركة بعينها وبقافيتها. كقوله
ياوبح صب الى البرق له نظر وفي البكاء مع الورق له وطر
فهذا من البسيط والتزام إعادة القافية في وسط وزن على الحركة المحفوظة
هو الذي أشرنا إليه .

والقسم الثاني من الموشحات هو ما لا مدخل لشيء منه في شيء من أوزان
العرب وهذا القسم منها هو الكثير والجمل الغفير، والقدر الذي لا ينحصر والشارد
الذي لا ينضب

والموشحات تنقسم من جهة أخرى الى قسمين قسم أفعالها وزن أبياته حتى
كأن آخر الايات من آخر الأفعال كقول الاعمى

أحلى من الامن يرتاح من قربي ويفرق في وجهه سنة يشجى بها العذول ويشرق
الله ما أقرب على محبه وأبعدا
خلو اللي أشب آسا الضنافيه وأسعدا
أحب به أحب ويا تجنيه طال المدا

أما ترى حزني ناراً على قلبي تحرق حسبي بها جنة ياماء ياما يا ظل يارونق
وقسم أفعالها مخالفة لاوزان الايات مخالفة تدبين لكل سامع ويظهر طمهما
لكل ذائق كقول بعضهم

الحب يجنيك لذة العذل واللوم فيه أحلى من القبل
لكل شيء من الهوى سبب جد الهوى بي وأصله اللب

وإن لو كان . جد يعنى كان الاحسان من الحسن
والموشحات تنقسم من جهة أخرى الى قسمين : قسم لا يبيته وزن يذكره
السمع ويعرفه الذوق ، كما تعرف أوزان الأشعار ولا يحتاج فيها الى وزنها
بميزان العروض وهو أكثرها. وقسم مطرب الوزن مهلهل النسخ مفكك انظم
لا يحس الذوق صحته من سقمه ولا دخوله من خروجه كالوشح الذى أوله

أنت اقتراحي لا قرب الله الواحي
من شاء أن يقول فاني لست أسمع خضعت في هواك وما كنت لاخضع
حسبي على رضاك شفيع لى مشفع
نشوان صاحي بين ارتياح وارتياح

والموشحات تنقسم من جهة أخرى الى قسمين قسم يستقل التلحين به ولا
يفتقر الى ما يعينه عليه وهو أكثرها، وقسم لا يحتمل التلحين ولا يمشى الا بأن
ميتوكاً على لفظة لا معنى لها تكون دعامة للتلحين وعكازاً للمغنى كقول ابن بقي :
من طالب نار قتلى ظبيات الحدوج فتانات الحجيح
فان التلحين لا يستقيم الا بأن يقول لا لا بين الخبرين الجيسين من
هذا القفل

ومما سنه القوم في أكثر موشحات المدح أن يحتم الموشح بالغزل ويخرج
من المدح اليه ، كما خرج اليه منه ، وهذا هو الاكثر من عملهم والاطهر من
مذهبهم ومنه قول الأعمى

حلوا المجاني ماضره لو أجناني كما عناني وجدى به وعثاني
فانه ابتداء بالغزل ثم خرج الى المدح ثم ختم بالغزل؟ والموشحات يعمل فيها
ما يعمل في أنواع الشعر من الغزل والمدح والرثاء والهجو والمجون والزهد. وما كان
منها في الزهد يقال له المكفر والرسم في المكفر خاصة أن لا يعمل الا على وزن

موشح معروف قوافي أقاله، ويختم بخرجة ذلك الموشح ليدل على انه مكفر
ومستقبل ربه عن شاعره ومستغفره

الموشح التام^١

الموشحات المغربية على طريق الأمثلة

ضاحك عن جمان	سافر عن بدر	ضاق عنه الزمان	وحواه صدرى
آه مما أجد	شفتى ما أجد	قام بي وقعد	باطش متشد
كلما قلت قد	قال لى أين قد	عابثة يدان	للصبا والقطر
وانثنى خط بان	ذا مهر نضر	خدفؤادى عن يد	ليس لى منك بد
لم تدع لى جلد	غير انى أجد	واشتياق يشهد	مكرع من شهد
ما لبنت الدنان	ولذاك الثغر	أين محيا الزمان	من محيا الحر
بى هوى مضمر	ليت جهدى وقفه	ففسؤادى افقه	كلا يظهر
ذلك المنظر	لا يداوى عشقه	راق حتى استبان	عذره وعذرى
باني كيف كان	فلكي درى	أولى أن أياسا	هل اليك سبيل
ذبت الا قليل	عبرة أو نفسا	ساء ظنى بعسى	ما عسى أن أقول

١ هذه الموشحة للاعشى التظليل راجع ص ١٦٨ و ص ٢٢٧

واقضى كل شأن وأنا خالما من عنان جزعى وصبرى
 ما على من يلوم لو تناهى عنى
 هل سوى حبريم دينه التجنى
 أنا فيه أهيم وهو بي يغنى

الموشح الأقرع

سطة الحبيب أحلى من جنا النحل
 وعلى الكئيب أن يخضع للسدل
 أنا فى حروب مع الحدق النجل
 يس لى يدان يا حور فتان من رأى جفونه فقد أفسدت دينه
 ينبغى التجنى لمثلك فى الأئس
 لو قبلت منى تهت على الشمس
 غاية التمنى هلم الى الانس
 أنت مهرجاني وخذك بستانى غط ياسينه ان الناس يجنونه
 خطط الوزير بخطط ايشار
 فأنهى السرور الى غير مقدار
 ردت الأمور الى أسد ضار
 ثابت الجنان صفوح عن الجان قد حمى عرينه بالزرق المسنونة
 خل كل مئز الى الحق منقاداً
 من رأى بعين فى ذا الخلق من سادا
 كأبى الحسين ويفديه من جادا
 كل ذى امتنان لا بل كل هتان رام أن يكونه جوداً فأتى دونه

أظهر القمام في الغربة حرمانا
فأنا ألام اسرار واعلانا
قلت والكلام يصرح أحيانا
فزت بالأمانى ماجاد باحسان صاحب المدينة أعلى الله تمكينه

المركب قفله من جزءين

شمس قارنت بدراً راح ونديم
أدر كؤوس الخمر عنبرية النشر ان الروض ذو بشر
وقد درّخ النهار هبوب النسيم
وسلت على الافق يد الغرب والشرق سيوفا من البرق
وقد أضحك الزهرا بكاء الغيسوم
الا أن لى مولى تحمك فاستولى أما انه لولا
دمع يفضح السرا لكنت كتوم
أنى لى كتمان ود معى طوفان شبت فيه تيران
فن أبصرا الجرا فى الح يعوم
اذا لامنى فيه من رأى تجنيه شدوت أغنيه
لعل له عندرا وأنت تلوم

المركب قفله من ثلاثة أجزاء

حلت يد الامطار ازرة النوار فيأخذانى
اشرب طاب الصبوح فى ذا اليوم
فى روضة تفوح لدى الغيم
قد أشرقت تلوح لدى القوم

ووجه ذا النهار مغطا بنهار من الدجن
 هذا الهوى يجور فما صنعى
 قد ضاق يامنصور به ذرعى
 اذ ليس لى نصير سوى دمعى
 فياضف انتصارى اذا دمعى انصارى على حزنى
 ظلمت اذ بعدت عن الصب
 فعد كما قد كنت الى قربى
 غدرت ونفرت فياحبى
 أفديك من عذار يدين بالنفار ولا يدنى
 محبوبى هب رضا كا وخذ عمرى
 وعسلنى لما كا من الثغر
 بما حوت عينا كا من السحر
 برد غليل نارى وشم ظبا الاشفار لا تقتلنى
 لما أطل حزنى ولم برحم
 وزاد فى التجنى وما سلم
 شدوته أغنى غنا مفرم
 حبيبى أنت جارى دارك بجنب دارى وتهجرنى

الموشح المختلف الاقفال

بأبى علق بالنفس عليق
 هويت هلالا فى الحسن فريدا أعار الغزالا الحاظا وجيدا
 وتاه جمالا لم يبعغ مزيدا بدر يتلالا فى حسن اعتدال

زاهه رشق	والقد رشيق		
بدر يتغلب	بالسحر المبين	عذار معقرب	على ياسمين
سوسان مكتب	بورد مصون	لما لاح يسحب	ذيول الجمال
	عنّلى خلق	بالعشق خليق	
جفاني يعيش	لوقفى عليه	لو بالنفس ريش	لطرت اليه
للحسن جيوش	على مقلتيه	واللحظ المريش	بالسحر الحلال
	فله مشق	والقلب مشوق	
تعمد هجرى	مذ دنت بوده	وبددت صبرى	على طول صده
ما الحسن يجرى	بصفحة خده	ثنايه تزرى	بنظم اللآلى
	فمه حق	باللثم حقيق	
لما أن تسربل	ثوب الحسن زيا	أردت أقبل	لماء الشهباء
فقال تمثّل	بالشعر أيا	ومال تدل	بأجلى مقال
	أنا قول قوقو	ليس بالله تدوقو	

الموشح الذى بينته ثلاثة أجزاء مفردة

أفردت بالحسن أم خلقك ابداع
أرى لك مهند أحاط به الأئمة فجرد ماجرد
فيا سحر الجفن حسامك قطاع
ايا فتنة القلب خف الله فى صب قتل من الحب
تمنيه بالمزن وبرقك خداع

ما تركب بينته من فقرتين وثلاثة أجزاء

كذا يفتاد سنا الكوكب الوقاد الى الجلاس مشمشعة الاكواس
أقم عذرى فقد آن أن أعكف

على خمر يطوف بها أوطف
 كما تدرى هضم الحشا مخطف
 اذا ما ماد في مخضرة الأبراد رأيت الآس بأوارقة قد ماس
 من الأنس وان زاد في النور
 على الشمس وبدر الديجور
 له نفسى وما نفس مهجور
 غزال صاد ضراغمة الآساد بلحظ جاس خلال ديار الناس
 جلا الاجلاك بنور الهدى مرآه
 فا الافلاك تدير سوى عليها
 كذا الاملاك عبيد عبيد الله
 فمن أراد قياسك بالاجماد فجهلا قاس سنا الشمس بالنبراس
 لك الفضل وانك من آله
 رأى الكل بكم نيل ماله
 فما يخلو من ينشد في حاله
 منى عباد بكم نحن في أعياد وفي اعراس لاعدمتم للناس
 ما تركب بينه من ثلاثة أجزاء ونصف
 من أودع الاجفان صوارم الهند
 وانبت الريحان في صفحة الخد
 قضى على الهيمان بالدمع والسهد
 أنى وللكتان للهايم المفرم مدمع نم اذ يسجم بما يكتم
 من السر فى عاطل حال غزير ساط على بالدعج
 يا أبى أحور كالبدرفى التم

يفتر عين جوهر مستعذب اللثم
وخده الازهر يدمى من الوهم
فكيف أن أعذر وقد سرى أرقم على عند فلا يلتم وقد حكم
من السحر لقتل أبطال مع الأباط جيش من الزنج
أجز للنور كصاحب الطور
ككبر ديجور في قد خيزور
كفصن بلور في دعص كافور
بنفس مهجور أفدى وان يتم ففى محتم ثنايا فم قد نظم
من الدر راحى وسلسالى على أسماط عطريه الفلج
الحسن موقوف عليك يا احمد
والأمر مصروف اليك يا اغيد
عبدك مشغوف فيك ومستعبد
امنك تعنيف أو منك أن ترجم وان نحرم ضنا مغرم اذا يسقم
فوأسرى فى بحر أوجالى بعيد الشاطى أمسك بالموج
وغاده تبدو كالبدر فى السعد
أمالها النهدي فى غصن رند
أوراقها البرد أينع بالورد
باتت وهى تشدوا حبيبي أهجم وقم واعزم وقبل فم وجى وانضم
الى صدرى وقم بخلخالى

الموشح الذى يتركب بيته من جزئين مركبين فى فقرتين

باكرالى الخمر واستنشق الزهرا فالعمر فى خسر مالم يكن سكر
فقل ما أسلو عن مرشف الأكواس وساحر الطرف مساعد الجلاس

فسقيني بنت الزراجين

فهاتها صرفا ياذا الرشا الاحور راح حكك وصفا من خدك الاقر
رشاهو النبيل والعدل بين الناس والمسك في العرف من نفعه الانفاس
فداريني عن مسك دارين

كم لامني فيه نذل من العدل لما رأى فيه ميلا الى وصلي
وانما العدل فما به من باس رضا به يشفي ويكثر الايناس
فهنوني لست بمقبون

للطرف في الفتك اثار معنى والممز في الملك عز سليبي
يهابه الكل خوط القنا المياس يثنى على الحقف مثل قضب الآس
من اللين ينقد عن لدن
الله ما اهوى خوداً تغنيه

باحث بها الشكوى عمداً لتغنيه
أنت المنى تحلو فترك كلام الناس
وادخل معي الفى مثل الشراب في الكاس
يا كنفوني كما تسليني

المركب قفله من ستة أجزاء

الراح في الزجاجية أعاياها خد النديم حمرة الورد
واستوهبت نسيمة فهجنت نشر العبير مع شذا الند
ما همت بالحيا الا وقد سقتني
مليحة الحيا مليحة التثني
والحسن قد تها فيها بلا تأن

أذكي بها سراجها رأيت في الليل البهيم شعلة الزند
لأنها اعليمة تاهت على البدر المنير وهو في السعد

ان التي الام فيها على غرامى
 لقدها قوام كالفضن فى القوام
 لثغرها نظام كالعقد فى النظام
 لريقها مجابه كالمسك فى طيب الشميم كجنا الشهد
 وعينها السقية وسنانه من الفتور لا من السهد
 تزيد فى بلائى والنفس تشبهها
 ولا أرى درائى الابريق فيها
 قالت لاصدقائى وقد ضنيت فيها
 احى الهوى مزاجه دعوه من طب الحكيم فالدوا عندى
 محبوبتى حكيمة تطفى برمان الصدور حرقة الوجد
 كم فى الانام مثلى شفاؤها دواها
 وكم تريد قتلى ولم أرد سواها
 وقال لأمى لى لجت فى هواها
 طابت لى اللجاجة وقلت للأشجان دوى ما أنا وحدى.
 ذو مهجة مقيمة فى القرب من ظبي غرير وهو فى البعد.
 قلبى لها يتوق وقلبها يقول
 هيات لا طريق هيات لا وصول
 فقلت والمشوق يقنعه القليل
 « »

(انتهى ما جمعناه من كتاب دار الطراز لابن سناء الملك)

جملة من الموشحات (١)

موشحة لسان الدين بن الخطيب

جادك الغيث اذا الغيث همى لم يكن وصلك الا حلما
يا زمان الوصل بالاندلس اذ يقود الدهر أشتات المنى
في الكرى أو خلسة المختلس زمرا بين فرادى وئنا
ينقل الخطو على ما يرسم والحيا قد جلل الروض سنى
مثل ما يدعو الوفود الموسم وروى النعمان عن ماء السما
فتغور الزهر منه تبسم فكساه الحسن ثوبا معلما
كيف يروى مالك عن أنس فى ليال كتمت سر الهوى
يزدهى منه بأبهى ملابس مال نجم الكاس فيها وهوى
بالدجى لولا شمس الغور وطرمافيه من عيب سوى
مستقيم السير سعد الأثر حين لذ الانس شياً أو كما
أنه مر كلمح البصر غارت الشهب بنا أو ربما
هجم الصبح هجوم الحرس أى شىء لامرئ قد خلصا
أثرت فينا عيون الترجس فيكون الروض قد كفن فيه

(١) راجع طائفة من الموشحات فيها يأتي
فوات الوفيات للصلاح الكتبي جزء اول ص ٣٢ ، ٦٣ — ٦٧ ، ٩٨ ، ٢٣٧ ، ٢٥٥
و جزء ثانى ص ٤١ ، ١٣٩ ، ١٦١ ، ٢٤٣ ، ٢٦٧ ، ٣١١ ، ٣٢٠ ، ٣٥٤ ، ٣٢٥
٣٧١ — ٣٧٨ ، ٣٨٥ ، ٤٠٤
وفى نفع الطيب طبع أوروبا جزء اول ص ٣٠١ و جزء ثانى ص ٣٠٤ ، ٣٢٤ ، ٤١٧ ،
٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٨٠ ، والجزء الرابع طبع بولاق فى الكلام على الموشحات
والمندارى المائتات فى الازجال والموشحات طبع بيروت

تنهب الازهار منه الفرصا
 فاذا الماء تناجى والحصا
 تبصر الورد غيورا برما
 وترى الآس ليبياً فها
 يا أهيل الحى من وادى الفضى
 ضاق عن وجدى بكم رحب الفضى
 فأعيدوا عهد أنس قد مضى
 واتقوا الله واحيوا مفرما
 حبس القلب عليكم كرما
 وبقلى منكم مقرب
 قر أطلع منه المغرب
 قد تساوى محسن أو مذنب
 ساحر المقلة معسول اللهى
 سدد السهم وسمى ورمى
 ان يكن جار وخاب الامل
 فهو للنفس حبيب أول
 أمره معتمل ممتثل
 حكم الحظبها فاحتسكا
 منصف المظلوم ممن ظلما
 ما قلبى كلما هبت صبا
 كان فى اللوح له مكتبا
 جلب الهم له والوصبا
 لاعج فى أضلعى قد أضرما
 لم يدع فى مهجتى الا زما

أمنت من مكره ماتتقيه
 وخلا كل خليل بأخيه
 يكتسى من غيظه ما يكتسى
 يسرق السمع بأذى فرس
 وبقلى سكن أنسى به
 لا أبالى شرقه من غربه
 تعتقوا عانيكم من كربه
 يتلاشى نفساً فى نفس
 أقترضون عفاء الحبس
 بأحاديث المنى وهو بعيد
 شقوة المفرى به وهو سعيد
 فى هواه بين وعد ووعيد
 جال فى النفس مجال النفس
 ففؤادى نهبة المفترس
 وفؤاد الصب بالشوق يدوب
 ليس فى الحب محبوب ذنوب
 فى ضلوع قد براها وقلوب
 لم يراقب فى ضعاف الانفس
 ومجازى البر منها والمسى
 عاده عيد من الشوق جديد
 قوله ان عذابي لشديد
 فهو للاشجان فى جهد جهيد
 فى نار فى هشيم اليبس
 كبقاء الصبح بعد الغلس

واعرى الوقت برجى ومتاب
 بين عتي قد تقضت وعتاب
 ملهم التوفيق فى أم الكتاب
 أسد السرج وبدر المجلس
 ينزل الوحي بروح القدس
 الغنى بالله عن كل أحد
 واذا ما قبح الخطب عقد
 حيث بيت النصر مرفوع العمد
 وجنى الفضل زكى المغرس
 والندى هب الى المغترس
 والذى ان عثر الدهر أقال
 تبهر العين جلاء وصقال
 قول من أنطقه الحب فقال
 قلب صب حله عن مكنس
 لعبت ریح الصبا بالقبس

سلمى يانفس فى حكم القضا
 دعك من ذكر زمان قد مضى
 واصر فى القول الى المولى الرضا
 الكريم المنتهى والمنتى
 ينزل النصر عليه مثل ما
 مصطفى الله سعى المصطفى
 من اذا ما عقد المهدي وفا
 من بنى قيس بن سعد وكفى
 حيث بيت النصر محى الحمى
 والهوى ظل ظليل خيما
 ها كها ياسبط أنصار العلا
 عادة ألبسها الحسن ملا
 عارضت لفظا ومعنى وحلى
 هل درى ظبي الحمى ان قد حى
 فهو فى حر وخفق مثل ما

موشحة ابن سهل التي عارضها لسان الدين

هل درى ظبي الحمى ان قد حى
 فهو فى حر وخفق مثل ما
 يابدورا أطلعت يوم النوى
 ما قلبى فى الهوى ذنب سوى
 أجتنى اللذات مكالوم الجوى
 كلما أشكوه وجدا بسما
 اذ يقسم القطر فيها مأتما

قلب صب حله عن مكنس
 لعبت ریح الصبا بالقبس
 غررا تسلك فى نهج الغرر
 منكم الحسن ومن عيني النظر
 والتنادى من حبيبي بالفكر
 كالربا بالعارض المنبجس
 وهى من بهجتها فى عرس

بأبي أفديه من جاف رقيق	غالب لي غالب بالتسؤده
أقحوا أنا عصرت منه رحيق	مارأينا مثل ثغر نضده
وفؤادى سكره ما ان يفيق	أخذت عيناه منه العريده
أ كحل اللحظ شهى العس	فاحم الجمة معسول اللمي
وهو من اعراضه في عبس	وجبه يتاو الضحى مبتسما
لي يجنى الذنب وهو المذنب	أيها السائل عن ذلى لديه
مشرقا للصب فيه مغرب	أخذت شمس الضحى من وجنتيه
وله خد بلحظى مذهب	ذهبت أدمع أجفانى عليه
لاحظته مقلتى في الخلس	يطلع البدر عليه كلما
ذلك الورد على المغترس	ليت شمري أى شىء حرما
غادرتنى مقلتاه دفعا	كلما أشكو اليه حرقى
أثر النمل على صم الصفا	تركت ألحاظه من رمقى
لست ألحاه على ما أتلفنا	وأنا اشكره فيما بقى
وعذولى نطقه كالخرس	فهو عندى عادل ان ظلما
حل من نفسى محل النفس	ليس لي في الحب حكم بعدما
يلنظى في كل حين مايشا	منه للنار باحثائى اضطرام
وهى ضر وحريق في الحشا	وهى في خديه برد وسلام
أسد الغاب واهواه رشا	أتقى منه على حكم الغرام
وهو من ألحاظه في حرس	قلت لمان ان تبدى معلما
اجعل الوصل مقام الخمس	أيها الآخذ قلبى مغنا

وقد عارض هذا الموشح أيضاً بعض متأخري المغاربة فقال :

يا عريب الحى من حى الحى	أنتم عيسى وأنتم عرسى
لم يحل عنكم ودادى بعد ما	حلم لا وحياة الانفس

مالك قلبي شديد البرحا	من عذيري في الذي أحبته
سهم لحظ لفؤادي جرحا	بدرتم أرسلت مقلنته
غصن بان فوقه شمس ضحا	ان تبدي أو ثنى خلته
تنجلي منه بأبهي ملبس	تطلع الشمس عشاء عند ما
وقرى الصبح أضافي الغلس	وقرى الليل أضا منهزما
والها مضني شديد الشف	يا حياة النفس صل بعد النوى
ككاد أن يفضى به للتلف	قد براه السقم حتى ذا الهوى
وزمان بالمنى لم يسمع	آه من ذكر حبيب بالوى
عائدا يانفس من ذافا يأس	كنت أرجو الطيف يأتي حلما
سأهرا أجنفانه لم تنعس	هل يعود الطيف صبا مغرما
ليس في الاطلالى من أرب	همت في اطلال ليلي وأنا
لا ولا ليلي وسعدى مطلبى	ما رادى رامة والمنحنى
سيد العجم وتاج العرب	انما سؤلى وقصدى والمنى
الشريف ابن الشريف الكيس	أحمد المختار طه من سما
ظاهر الاصل زكي النفس	خاتم الرسل الكريم المنشى

موشحة لبعض شعراء الأندلس يعرض بها موشحة لسان الدين

يا زمان الوصل بالاندلس	جادك الغيث اذا الغيث همى
شمال للصبح عند الغلس	عطر الارزاء لما نسما
يقرا الليل لنا من عبس	وأنت شمس الضحى تنسخ ما
مولع بالصد عنى مذفتى	طاف بالكاس من الزهرفتى
واحتسى منه ببعض الشفة	فتن الاباب لما التفتنا
صده تيه الهوى عن الفتى	وأنا ما بين حتى ومتى
أرجت بالعرف أفق المجلس	وكؤوس الراح بين الندما

خمرة صفراء في البلور ما
 بادر اللذة واجمع شملها
 ذى عيون ناعسات كم لها
 وافر الازداف عانى حملها
 كلما أترع ككاسا قال ما
 فابذل الجهد وكن معتنماً
 فرص الايام كن منتهزاً
 ورحب الانس لـج منتجزاً
 واجن من زهر الهوى محترزاً
 لا تخف لوماً ويمسم حينما
 ما مضى انس ووافى مثل ما
 الرياض اذهب ترى بلبلمها
 بخاود الورد قد كلها
 وقود البان قد قام لها
 والربا راحت تحاكي خدما
 جيها زرر بالزهر كما
 وجلا الروض لنا أشجاره
 وترى في جيدها نواره
 خلع الليل به أطواره
 وبقياد زهت فيه أما
 كمنار في محيا عامسا
 حينما الصبوة أيام الصبا
 فاذا أيقظها دهر صبا
 جرد الشيب لنا بيض الشبا

أشبه الخان بروض النرجس
 بمدام وغلام مطرب
 من فنون السحر ما يلعب بي
 ناكل الخصر وذامن عجب
 أنت بالشارى حياة الانفس
 لنفيس النفس طيب الانفس
 مبنداها قبل حذف الخبر
 قبل أن تمضى كلمح البصر
 من جنائيات هجوم الكبر
 لاحت الذات كالمختلس
 كان ذا الدهر لنا بالحرس
 لاشتباق الورد مثل الشكل
 دمع ظل لاشتياق البلسل
 مانع الوصل بحمد الاسل
 وعليين ثياب السندس
 زر بالفضة ثوب الاطلس
 مائسات في قباء أخضر
 يتاللا كعمقود الجواهر
 ففدا كالصبح باهى المنظر
 فى شفاه الغيد حس اللبس
 فسدا للغير لا الملتبس
 وعيون الشيب فى سهو الوسن
 لصروف حد شفرها وسن
 واقتفى شرخ شباب وظعن

وغدا الانسان شيخاً هرماً
 فأت اذ مات فيقضى ندماً
 لا تدع عمرك يمضى هدراً
 وارق بالجهد من السؤل الذراً
 انما الايلم أمثال السرى
 ووحوش الانس تسعى مغنا
 ترك الوهم وخاض الظلمة
 ليس يحظى بالمنى الا الذى
 كان للراحة كالمتنبذ
 مثل ما قد بات ذا طرف قذى
 فى طلاب العلم حتى علما
 أحمد الناصب فينا علماً
 حل فى مصر وان كان الملا
 ورياض الفضل لما أن علا
 ازدرت أغصانها حتى خلا
 نفرت اذ حل فيها كالسما
 حوله الطلاب كالشهب سما
 أيها الطالب للعلم ائتد
 ان ترم نيل المرجى فاجتهد
 علم من يعمل ا كسيد فزد
 والزم الاعتاب وانزل بالحى
 باعتقاد فاز من قد لسا
 مذ خبرت الناس طرا نظرا
 واعتراه لاعج من وجس
 واغتنام الوقت شغل الكيس
 أنت اذ ذاك جبان غافل
 واجتهد والضرع ضخم حافل
 والجريء الشهم ليث باسل
 باردا للاسند المقترس
 وله العزم أضا كالتبس
 كابد الاهوال حتى ظفرا
 من وراء الظهر أنى ظهرا
 يقطع الليل جميعاً سهرا
 انه يملا بروح القدس
 للثقى فاز به من يأتسى
 قد عفت لما اعتراها فى خلل
 تقع جهل جف منهن البلل
 قاعها من عذب ما يشفى العلل
 وهو بدر بكال مكئسى
 قدرها من نوره المقتبس
 ليس الا بابيه ينفعكا
 فى اتباع للذى يرفعكا
 منه واترك حاسدا يدفعكا
 خالغ الريقة من قول المسى
 نعله والكبر شان الملبس
 لمناط الامر فى هذا الزمان

لم أجد الا مقالا صدرا
 غير ما يمليه فانظر لترى
 يبدع النطق لـما نظما
 وأنى يخضع جمع العاما
 انما المجد الرفيع المتطى
 يدع المرفوع كما لمهبط
 ناظراً في أمره بالاحوط
 كل من أم حماه قد حى
 فاذا جرد منه انفصا
 حبذا المغرب قطراً بالسنا
 قطره الشامخ قد اهدى لنا
 كل من فاتته أسباب المنى
 قل لمن يرجو سوى المذكور ما
 لا ولا الناس سواء انما
 لذ بشهم فازمن أمـله
 أنقل السؤدد اذ حمـله
 وحماه الامن من أمـله
 بحره الوافر العلم طما
 نال منجه الناس حتى عمما

عن دعا وأخلفت عند العيان
 درر الالفاظ في سمط البيان
 بهت المنطيق مثل الاخرس
 نحو ذا المفرد في المتمس
 - أروؤس الآساد قسرا مثل ذا
 ثم للنازل يعللى منفذا
 خافض الطرف على حر القذى
 بحسام العزم هش الملمس
 جامد الصخر بذاك الميس
 فضله يبهر بدر الافق
 سيدا قد فاق شمس المشرق
 بعـلاه للثريا يرتقى
 ينبت الزهر بأرض اليبس
 رأى من سواهم فى هوس
 بنوال فاق سح الهامـل
 وقر فضل مستبين شامل
 بلغ القصد فبشرى الآمل
 كامل الامداد لم يحتبس
 مشرقا والغرب للاندلس

موشحة ابن سناء الملك

كللى ياسحب تيجان الربا بالحللى واجعللى سوارك منعطف الجدول

دور

ياسما فيك وفي الارض نجوم وما كلما اغربت نجما اشرفت انجما
وهي ما تهطل الا بالطلى والدمى

قفلة

فاهطللى على قطوف الكرم كي تمتلى وانقللى للذن طعم الشهد والفوفل

دور

تتقد كالكوكب الدرى للمرصد يعتقد بها الجوسى بما يعتقد
فاتقد ياساقى الراح بها واعتمد

قفلة

واملكى حتى ترانى عنك فى معزل قلل فالراح كالعشق ان يزد يقتل

دور

من ظلم فى دولة الحسن اذا ماحكم فالسلام يجول فى باطنه والندم
والقلم يكتب ماسطر فوق القم

قفلة

من ولى فى دولة الحسن ولم يعدل يمزل الالفاظ الرشا الا كحل

دور

الا أريم عن شرب صهباء وعن عشق ريم فالنعيم عيش جديد ومدام قديم
لاأهيم الا بهذين فقم يانديم

قفلة

وانهل من اكؤس صورن من صندل أفضل من نكهة العنبر والمندل

دور

هل يعود عيش قطعناه بوادي زرود والجنود في حضرتي تضرب جنكاو عود
والحسود في معزل عنا غدا لا يسود

قفله

عدلى لاتعدلونى فاهوى لذى مانلخى فى الحب مثل العاشق المبتلى

دور

اسفرت ليلتنا بالانس مذ اقرت بشرت بملتقى المحبوب واستبشرت
شمرت فقلت للظماء مذ قصرت

قفله

طولى ياليلة الوصل ولا تنجلى واسبلى سترك فالمحوب فى منزل

دور المديح

يانسيم بلغ سلام المستهام السقيم لكريم طه امام المرسلين العظيم
عن اليم وجدى به حدث وشوقى القديم

موشحة لابن زهرى

راحة الارواح	فى كؤس الثغر من ذاك اللبس
عاطر الارواح	وتفشى الروض مسكي النفس
يهر الشمس	وكسا الادواح وشيا مذهبا
يهيج النفس	عسجد قد حل من فوق الربا
تلحق الانسا	فاتخذ للهوفيه مركبا
ساجع الادواح	منبر الغصن عليه قد جلس
عطفه المرتاح	حلل السندس خضرا قد لبس
حسنه قد راق	قم ترى هذا الاصيل شاجبا
فى حلى الاوراق	ولا ذيال الغصون ساجبا
قول ذى اشفاق	ونديم قال لى مخطبا

عادت الشمس بغرب تختلس
 ان أرانا الجو وجها قد عبس
 ووجوه الشرب تفي عن شمس
 بلحاظ أسكرتنا عن كؤوس
 مظهرات من خفايا في النفوس
 مازمان الانس الا مختلس
 وعيون الشهب تذكى عن حرس
 ما ترى نغر الوميض باسم
 وثناء الروض هب ناسما
 بث من أزهاره دراهمنا
 ركب المولى مع الظهر الفرس
 بجنود الله دأبا يحترس
 وجب الشكر علينا والهنا
 فزمان السعد وضاح السنى
 أثمرت فيه العوالى بالمنى
 يجتنى الاسلام منها ما اغترس
 فى ضمير النقع منها قد هجس
 يا اماما بالحسام المنقضى
 نترك الوضاح مها أمضا
 وديون السعد منه تقتضى
 لك وجه من صباح مقتبس
 وجميل الصفح منه ملتبس
 ها كما تمزج لطفنا بالنسيم
 قد أمت بالبر والصنع الجسيم

هات شمس الراح
 أوقد المصباح
 كلما تجلى
 خمرها أحلى
 سورا تتلى
 فاغتمت يا صاح
 تخضم النصح
 يظهر البشرى
 عاطرا نشرا
 قائلا بشرى
 وسقى وارتاح
 ان غدا أوراخ
 بعضنا بعضا
 وجهه الارضى
 ثمر اغضبا
 سيفه السفاح
 شهب تلتاح
 نصر الحقنا
 أخجل البرقا
 توسع الحقنا
 بشره وضاح
 منم صفاح
 كلما هبا
 تشكر الربا

أخجلت من قال في الصبح الوسيم مفرما صبا
غرد الطير فنبهه من نعس يامسدير الراح
وتمرى الفجر عن ثوب الغلس وانجلى الاصبح
وله أيضاً

نواسم البستان تنثر سلك الزهر
والطل في الاغصان ينظمه بالجواهر
وراحة الاصبح أضاء منها المشرق تنشرها الارواح
فلا تزال تخفق والزهر زهر فاح لها عيون ترمق
فايقظ الندمان يبصرن مالم يبصر
جواهر الشبان قد عرضت للمشترى
قدحت لى زندا يأبها البساق أذكرتني عهدا
اذ الشباب رائق فالشوق لا يهدا ولا الفؤاد الخلاق
وكيف بالسوان والقلب رهن الفكر
وسحب الهجران تحجب وجه القمر
لولا شمس الكاس يديرها بين البدور وأعرج الايناس
منا على ربع الصدور لكن لها وسواس يغرى بربات الخدور
كم واله هيمان بصبح وجه مسفر
ضياؤه قدبان من تحت ليل مقمر
يامطلع الانوار كم فيك من مرأى جميل ونزهة الابصار
ماضر لوتشفي الغليل باروضة الازهار وعرفها يبرى الغليل
قضيبك الفتان يسقى بدمع همر
فلا عيج الاشجان فيض الدموع يجرى
هل في الهوى ناصر أو هل يجار الهأم لو كان لى زائر
طيف الخيال الحأمم ما بت بالساھر ودمع عيني ساجم

والحب ذو عدوان يجهد في ظلم البرى
 وصارم الاجفان مؤيد بالخور
 رحماك في صب أذكرته عهد الصبا بواعث الحب
 قادت اليه الوصبا لم تهف بالقلب ربح الصبا الاهبا
 بليلة الأردن قد ضنخت بالعنبر
 يشير غصن البان منها بفضل المثرر
 طيها حمد نغر الملوك المجتبى من يرجح الطود
 من حله اذا احتبى قد جرد السعد منه حساماً منذهباً
 فالباس والاحسان والنوث للمستنصر
 تحمله الركبان تحيية للعنبر
 عصابة الكتاب حق لها الفوز العظيم تختال في اثواب
 حق لها الفخر الجسيم فحسبها الاطناب في الحمد والشكر العميم
 خليفة الرحمن لازلت سامى المظهر
 يا مورد الظان ورأس مال المعسر
 خذها على دعوى تزرى على الروص الوسيم جاءت ككاهوى
 أرق من لدن النسيم قد طارحت شكوى من قال فى الليل البهيم
 ليل الهوى يقظان والحب ترب السهر
 والصبر لى خوان والنوم من عينى برى

موشحة لآبى حسن المرينى

فى نفمة العود والسلافة والروض والنهر والنديم
 أطال من لآمنى خالافه فظل فى نصحه مليم

(دور)

دعنى على منهج التصابى ما قام لى العذر بالشباب

ولا تطل في المنى عتابي فلست أصغى الى عتاب
لانرج ردى الى جواب والكاس تفتقر عن حباب
والغصن يبدى لنا انعطافه اذا هفا فوقه النسيم
والروض أهدي لنا قطافه واختال في برده الرقيم

(دور)

ياحبذا عهدى القديم ومن به همت مسعدى
ريم عن الوصل لا يريم مولع بالتودد
ماتم الا به النسيم طوعا على رغم حسدى
معتدل القد ذو نجافه استقنى طرفه السقيم
ورام طرفى به انتصافه نغد فى خده الكليم

(دور)

غصن الصبا عاطر المقبل أحلى من الامن والامل
ظامى الحشا مغمم المخلخل حلو اللوى ساحر المقل
لكل من رامه توصل لم يخش ردا بما فعل
أشكو فيبدي لى اعترافه ان حاد عن نهجه القويم
لأعدم الدهر فيه رافه فحق لى فيه أن أهيم

(دور)

لله عصر لنا تقضى بالسد والمنبر البيج
أرى ادكارى اليه فرضا وشوقه دائما يهيج
فكم خلمنا عليه غمضاً وللصبا مسرح أريج
ورد أطلال المنى ارتشافه حتى انقضى شربه الكريم
لله ما أسرع انحرافه وهكنا الدهر لا يديم

(دور)

يا من يحث المطى غربا عرج على حضرة الملوك

واثر بها ان سفحت غربا من مد مع عاطل سلوك
واسمع الى من أقام صبا واحك صداه لافض فوك
بلغ سلامي قصر الرصافه وذكره عهدى القديم
وحى عنى دار الخلافة وقف بها وقفة الغريم

موشحة لابن الوكيل

غدا منادينا	محكما فينا	يقضى علينا الاسى	لولاتنا سينا
	بحر الهوى يفرق	من فيه جهده عام	
	وناره تحرق	من هم او قد هام	
	وربما تثلث	فتى عليه نام	
قد غير الاجسام	وصير الايام	سوداً وكانت بكم	بيضا لينا
	يا صاحب النجوى	قف واستمع منى	
	اياك أن تهوى	ان الهوى يضى	
	لا تقرب البلوى	اسمع وقل عنى	
بحاره مره	خضنا على غره	حينا فقام بها	للى ناغينا
	من هام بالغيب	لاقى بهم هما	
	بذلت مجهودى	لأحور ألى	
	يهم بالجدود	ورد ما هما	
وعند ما قد جاد	بالوصل أو قد كاد	أضحى التناهى	بديلا من تدانينا
	بحق ما يبنى	وينكم الا	
	أقررت عيى	فتجمعوا الشمالا	
	فالمسين بالبين	بقدمكم أبلى	
جدد لنا ما كان	بالاهل والاخوان	ومورد اللوصاف	من تصافينا
	يلجى قبات	عن مغرم صب	

من غير ماذنب	لهمه خانت
عوائد العرب	ما هكذا كانت
النأى المحييد	لا تحسبوا البعدا
اذ طال المسافر	يفير العبادا
بالشفع والوتر	يانازلا بالبان
والليل اذا يسر	والنمل والفرقان
والنحل والحجر	وسورة الرحمن
من كان صرف الهوى	هل حل في الاديان
والوديسن	أن يقتل الظان
عرج على الوادى	يا سائل القطر
وقف بهم نادى	من ساكنى بدر
لمضرم صادى	عسى صبا تسرى
من لوعلى البعد حيا	ان شئت تحيينا
كان يحيينا	بلغ تحيينا
كأنها أعوام	وافت لنا أيام
كأنها أيام	وكان لى أعوام
بالوصل لى لودام	تمر كالأحلام
فينا الشمول وغنانا	والكاس مترعه
مغنيننا	حشت مشعشه

موشحة للشيخ محي الدين

سراير الاعيان	لاحت على الاكوان	لناظرين
والعاشق الغيران	من ذاك في حران	ييدى الانين
دور		
يقول والوجد	أضناه والبعد	قد حسيه
لما دنا البعد	لم أدر من بعد	من غسيه
وهيم العبد	والواحد الفرد	قد خسيه
في البوح والكتان	والسر والاعلان	في العالمين
أما هو الديان	يا عابد الاوثان	أنت الضنين

(دور)

كل الهوى صعب على الذى يشكو ذل الحجاب
يا من له قلب لو أنه يذكو عند الشباب
قد قرب الرب لكنه أفك فانو المتاب
وناد يارحمن يارب يامن انى حزين
أضنائى المهجران ولا حبيب دان ولا معين

دور

فنسيت بالله عما تراه العين من كونه
فى موقف الجاه وصحت أين الاين فى بينه
فقال يا ساهى عاينت قط عين بعينه
أما ترى عيلان وقيس أو من كان فى الغابرين
قالوا بالهوى سلطان ان حل بالانسان أفناه دين

دور

كم مرة قلا أنا الذى أهوى من هو أنا
فلا أرى حالا ولا أرى شكوى الا الفسا
لست كمن مالا عن الذى يهوى بعد الجنا
ودان بالسوان هذا هو البهتان للعارفين
سلوهم ما كان عن حضرة الرحمن والآفكين

دور

دخلت فى بستان الانس والقرب كمكنسة
فقام لى الريحان يختال بالمعجب فى سندسه
أنا هو الانسان مطيب الصب فى مجلسه
ياجنان ياجنان اجن من البستان الياسمين
وحلل الريحان بحرمة الرحمن للعاشقين

موشحة لأحد الشعراء

فتق المسك بكافور الصباح ووشت بالروض اعراف الرياح
فاسقيتها قبل نور الفلق وغناء الورق بين الورق كاحمرار الشمس عند الشفق
نسيج المزج عليها حين لاح فلك اللهـــو وشمس الاصطباح
وغزال سامني بالملق وبراجسى واذكي حرقى اهيف منذسل سيف الحدق
قصرت عنه أنايب الرماح وثنى الذعر مشاهير الصفاح
صار بالذل فؤادى كلفا وجفون ساحرات وطفنا كلما قلت جوى الحب انطفنا
أمرض القلب بأجفان صحاح وسبي العقل بجهد ومزاح
يوسف الحسن عذب المبتسم قرى الوجه ليلي اللمم عنترى الباس علوى الهمم
أغصنى القمد مهضوم الوشاح مادرى الوصل صابى السباح
قد بالقمد فؤادى هيفا وسبا عقلى لما انعطفا ليته بالوصل أحيادنا
مستطار العقل مقصوص الجناح ما عليه فى هواه من جناح
ياعلى أنت نور المقل جد بوصل منك لى يأملى كم أغنيك اذا مالحت لى
طرقت والليل ممدود الجناح مرجباً بالشمس من غير صباح

موشحة لابن التلمساني

قرى مجلودجى الفليس بهر الابصار مذ ظهرا
آمن من شينة الكلف
ذبت من حبيه بالكلف
لم يزل يسعى الى تلقى
بركاب الدل والصلف
آه لولا أعين الحرس نلت منه الوصل مقتدرا

يا أميرا جار مذوليا
كيف لا ترضى لمن بليا
فبشفر منك قد جليا
قد حلا طعما وقد حليا

وبما أوثيت من كيس جد فما أبقيت مصطبرا
بدرتم في الجمال سنى
ولهذا القبهوه سنى
قد سباني لذة الوسن
بمحييا باهر حسن

هو خشني وهو مفترسى فاروعن أعجوبتي خيرا
لك خديا أبا الفرج
زين بالتوريد والضرج
وحديث عاطر الارج
كم سبي قلبا بلا حرج

لورآك الغصين لم يمس أوراك البدر لاستترا
يامنديا مهجتي كندا
فقت في الحسن البدر مدي
يا كحيللا كحله اعتمدا
عجبا أن تبرى الرمدا
وبسقم الناظرين كسي جفئك السحار وانكسرا

موشحة عارض بها أبو حيان موشحة ابن التماساني
عاذلي في الاهيف الآنس لورآه الآن قد عذرا

رشاً قد زانه الحور
غصن من فوقه قمر
قمر من سحبه الشعر
نغر من فيه أم درر
جال بين الدر واللعس خرة من ذاقها سكراً
رجة بالردف أم كسل
ريقة بالثغر أم عسل
وردة باللسد أم خجل
كحل بالمسين أم كحل
يالها من أعين نعس جلبت لناظري سهراً
مذ ناي عن مقلتي سني
ما أذيقا لذة الوسن
طال ما ألقاه من شجن
عجيباً ضدان في بدن
بنوادي جذوة القبس وبميني الماء منفجراً
قد أتاني الله بالفرج
اذ دنا مني أبو الفرج
قمر قد حمل في المهج
كيف لا يخشى من الوهج
غيره لو صابه نفسي ظنه من حره شرراً
نصب العينين لي شركا
فانثني والقلب قد ملكا
قمر أضحى له فلكا
قال لي يوما وقد ضحكا
أتجى من أرض أندلس نحو مصر تعشق القمر

موشحة لابن اللبابة الأندلسي

في نرجس الأحداق وسوسن الاجياد نبت الهوى مغروس بين القنا المياد
 وفي نقا الكافور والمندل الرطب
 والهودج المرزور بالوشى والعصب
 قضب من البلور حمين بالقضب
 نادى بها المهجور من شدة الحب
 أذابت الاشواق روى على أجساد أعارها الطاوس من ريشه ابراد
 كواعب أتراب تشابهت قدًا
 عضت على العناب بالبرد الاندا
 أوصت بي الاوصاب وأغررت الوجدا
 وأكثر الاحباب أعدى من الاعداء
 تفتت عن أعلاق لآلى أفراد فيه اللي محروس بألسن الانغماد
 من جوهر الذكرى عطل نبحور الحور
 وقيل الدرا سلاله المنصور
 جاوز به البحرا واخرق حجاب النور
 وقل له شعرا بفضلك المشهور
 جمعت في الآفاق مناقب الاضداد فأنت ليث الخليس وأنت بدر الناد
 خرجت محتالا أبغى سنا البرق
 أقطع أميالا غربا الى شرق
 مؤملا حالا يكون من وفقى
 فقال من قالا وفاه بالصدق
 دع قطعك الآفاق يأبها المرتاد واقصد الى باديس خير بنى حماد
 يامن رجال الطلا وأمل التعريس

ان شئت أن تحلى بطائل التأسيس
 لا تعتمد الا على علا بادييس
 من فوقه أعلا قدراً من البرجيس
 أولئك الاجاد فاحطط رحال العيس وانفض بقاء الزاد
 مواطن الارزاق

موشحة لأبي حيان الغرناطي

ان كان ليل داج وخاننا الاصباح فنورها الوهاج يفنى عن المصباح
 سلافة تبسو كالكوكب الازهر
 مزاجها شهيد وعرفها عنبر
 يا حبذا الورد منها وان أسكر
 قلبي بها قد هاج فما يراني صاح عن ذلك المنهاج وعن هوى ياصباح
 وبى رشا أهيف قد لج في بعدى
 بدر فلا يخسف منه سنا الخمد
 بلحظه المرهف يسطو على الاسد
 كسطوة الحجاج فى الناس والسفاح فا ترى من ناج من لحظه السفاح
 علل بالمسك قلب رشا أحور
 منع المسك ذى مبسم أعطر
 رياه كالمسك وريقه سكر
 غصن على رجراج طاعت له الارواح فخبذا الاراج ان هبت الارواح
 مهلا أبا القاسم على أبى حيان
 ما ان له عاصم من لحظك الفتان
 وهجر ك الدائم قد طال بالهيمان
 قدمه أمواج وسره قد لاح لكنه ما عاج ولا أطاع اللاح
 يارب ذى بهتان يعنل فى الراح
 وفى هوى الغزلان دافعت بالراح

وقلت لاسلوان عن ذاك يالاح
سبع الوجوه والتاج هي منية الافراح فاختر لي يازجاج قعال وزوج أقداح

موشحة صفى الدين الحلبي

شق جيب الليل عن نحر الصباح أيها الساقون
وبدا للطل في جيد الاقح لؤلؤ مكنون
ودعانا للذيد الاصباح طائل ميمون
فاخضب المبزل من نحر الدنان بدم الزرجون
تلقى دمها حور الجنسان في صحاف جون
فاسقنيها قهوة تكسو الكؤوس بسنا الانوار
وتميت العقل اذ تجي النفوس راحة الاسرار
بنت كرم عتقت عند الجوس في بيوت النار
غرست كرمها بين القيان يد افلاطون
وبماء الصرح قد كان يطان ذنها المخزون
أخبرتنا عن بنى المصر القديم خبرا مأنور
وروت يوم مناجاة الكليم كيف ذلك الطور
ولماذا أتخذت أهل الرقيم كهفها المذكور
وندا يونس عند الامتحان بالتقام النون
وبنا نوح غداة الطوفان فلكه المشحون
مدجلا شمس الضحى بدر التمام في الليالى السود
وغدا يصبغ أذيال الظلام بدم العنقود
قلت يا بشر اكم هذا غلام وفتاة رود
مزجا الكلس وقاما بستيان في حمى جيرون
فبذلنا في القناني والقيان ماحوى قارون
نال فصل الخمر من ذات الخمار عند شرب الراح

فعدت تستر من فرط الحمار
خلتها اذلم تدع بالاختمار
قمرا تم لسبع وثمان
قدّرت الشمس في حال القران
افعم الزاهر بالنفخ الممدار
فعدا وهو لامسوات الحمار
أو كما عاش الوري بعد البوار
ملك هذب أخلاق الزمان
وأعاد الناس في ظل الامان
ملك أنجد طلاب الندى
متلف ان جال آجال العدى
من نبي ارتق اعلام الهدى
مهد الارضين بالعدل فكان
ذبيها والشاة ترعى في مكان
باذل الاموال من قبل السؤال
مارجاه آمل الاونال
فاذا ما أمه راجى النوال
يهب الولدان والخور الحسان
وسواه ان دعاه ذو لسان
يامليكا لبني الدهر ملك
ملك أنت عظيم أم ملك
بالذى تختاره دار الفلك
مذ رأى بأسك سلطان الاوان
حاول النصر كموسى فاستعان
وجهها الواضح
غير صلت لاح
في الليالى الجون
فهو كالمرجون
نابه المحصور
مثل نفخ الصور
بندى المنصور
عدله المسنون
عضبه المسنون
غاية الأنجاد
واللهي ان جاد
سادة انجاد
أمنها مضمون
غدره مأمون
بأكف الجبود
غاية المقصود
جاد بالموجود
بكرها والعون
يمنع الماعون
فشرى الاحرار
ساطع الانوار
وجري المقدار
وهو كالمحزون
بك يهارون

وقد شاع فن التوشيح حتى أصبح من بذع الشعر والبلاغة . وانتشر في جميع المجالس على السنة الخاصة والعامة ، ثم أمعن الشعراء في هذا النوع حتى تسربت فيه اللغة العامية ، ودبت في جسمه ديباً ، وغلبته على عريته الفصحى وحتى خفيت معالم اللغة أو كادت ، وغلب ذلك على الشعر ، وسموا هذا النوع الجديد «زجلاً». ونسج العامة على منواله واشتهر بقوله كثير من الشعراء . ذكر جملة منهم ابن خلدون في مقدمته .

وقد اكتفينا بالإشارة الى هذا الشعر العامى وان كان جديراً بالعناية، لاحتوائه على صور النفوس العامة وبعض الآراء الاجتماعية . وأرجأنا تفصيل الكلام فيه لفرصة أخرى

المصادر الأدبية والتاريخية للأندلس

- فتح الطيب المقرئ (طبع مصر وليدن)
المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي (طبع ليدين)
البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى (طبع ليدين)
الاحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (طبع مصر)
أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر امراءها والحروب الواقعة بينهم
(طبع مجريط)
الجزء الثاني والعشرين من كتاب نهاية الارب في فنون الادب للتويزي وفيه
أخبار ملوك الأندلس من العلويين والامويين ومن ملك بعد بني أمية الى
حين انقراض الدولة العبادية (طبع غرناطة)
الجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون (طبع مصر)
مقدمة ابن خلدون
تاريخ مسلمي اسبانيا لدوزي (طبع باريز .)
Dozy. Histoire des Musulmans d'Espagne, Paris.
تاريخ العرب والمغاربة في اسبانيا والبرتغال لكوند (طبع باريز)
J. Cond. Histoire de la domination des Arabes et des Maures
en Espagne et en Portugal.
تاريخ العرب العام نسيديو (طبع باريز)
Seddillot. Histoire générale des Arabes, Paris.
تاريخ العرب لهوار (طبع باريز)
C. Huart. Histoire des Arabes, Paris.
Recherche sur l'histoire et la littérature arabe en Espagne.
2 Volumes Par Dozy.
Histoire des Arabes et des Maures d'Espagne. Par Louis
Viardot. 2 Vols. Paris 1851.
Encyclopédie de l'Islam.
ديوان ابن قزمان (نسخة مأخوذة بالفتوغرافية بدار الكتب المصرية عن
نسخة في مكتبة بطرسبورغ)

بحث في حياة ابن زيدون لاوغست كورد (طبع الجزائر)
Auguste Cour. Ibn Zaidoun. Alger.

طبقات الامم لصاعد الاندلسي (طبع بيروت ومصر)
قلائد المعيان للفتح بن خاقان (طبع مصر)
مطمح الانفس للفتح بن خاقان (طبع الاستانة)
الذخيرة في شعراء الجزيرة لابن بسام (مخطوط) منه جزآن في دار الكتب
المصرية والجزء الثالث في مكتبة برلين والرابع مفقود
ديوان ابن حمديس الصقلي (طبع رومة)
الحلة السيرة لابن الابار (طبع ليدن)

المكتبة العربية الاندلسية وهي الصلة لابن بشكوال في جزئين وبغية
الملتبس للضبي والمعجم لابن الابار والتكملة لكتاب الصلة لابن الابار وتكملة
التكملة لابن الابار (طبع بجريط) وتاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي وفهرست
مارواه عن شيوخه من الدواوين في ضروب العلم وانواع المعارف أبو بكر بن خليفة
الاموي الاشبيلي نشرها المستشرقان الاسبانيان كوديرا ورييرا (طبع بجريط)
F. Codera et j. Ribera Bibliotheca Arabi-co Hispana.

المكتبة العربية الصقلية لميشيل آماري (طبع ليسيك)
M. Amari Bibliotheca Arabo-Sicula (Leipzig).

قصيدة ابن عبدون وشرحها لابن بدرون (طبع ليدن)
ترجمة بن عباد (طبع ليدن)
دار الطراز في الموشحات لابن سناء الملك (من مخطوطات دار السكتب
المصرية)

تاريخ الادب العربي تأليف نيكلسون
A Literary History of the Arabs By Nicholson.

الفهرس

- ٥ تمهيد - فيه الكلام على الأدب وصلته بالاجتماع والكلام على بلاغة العرب في الأندلس والغرض من هذا الكتاب.
- ١١ العرب في الأندلس - دخول العرب بلاد الأندلس واختلاطهم بسكان هذه البلاد - الخلاف بين القبائل العربية هناك - طارق بن زياد وخطبته - الدول الإسلامية وعصورها - عصور الأدب والبلاغة.
- ١٩ الحياة العقلية - تكوين الحياة العقلية والاهتمام بالعلوم - العناية بالكتب وجمعها - العناية بنشر التعليم وانشاء المدارس - التأليف والمؤلفون - انتشار اللغة العربية واشتغال غير العرب بها.
- ٢٧ الفنون في الأندلس - عناية العرب بالفنون - النقش والتصوير والعمارة - أخذ أهل أوروبا العلوم والفنون عن العرب في الأندلس وكلام مؤرخيهم في ذلك - الترف وأبهة الملك.
- ٣٣ الغناء ومجالس الأدب - العناية بالغناء والكلام على زرياب المغني - مجالس اللهو والرقص وأغاني العشق وأثر النساء في ذلك - مجالس الأدب والاقبال عليها وانشاد الشعر فيها.
- ٤١ النشر في الأندلس - أحوال النشر في الأندلس وأنواعه ونماذج من أساليبه المختلفة.
- ٤٧ الشعر في الأندلس - التشابه بينه وبين الشعر في المشرق - ابتكار شعراء أهل الأندلس في الوصف وغيره وأمثلة ذلك.

٥٧	أبو عامر بن شهيد - ترجمته وشعره ونثره وما يمتاز به من الأساليب القصصية - قطعة من رسالته المسماة بالتوابع والزوابع - آراؤه في النقد الأدبي.
٧٥	الوزير ابن زيدون - حياته وصلته بابن جهور ثم موته.
٧٩	شعر ابن زيدون وأساليبه.
٨٩	الغزل في شعر ابن زيدون وصلته بولادة بنت المستكفي.
٩٧	نثر ابن زيدون والكلام على رسالتيه الجدية والهزلية.
١٠٧	أحمد بن عبد ربه.
١١١	ابن دراج القسطلي.
١١٩	المعتمد بن عباد.
١٢٩	الوزير ابن عمار.
١٣٩	عبد الجليل بن وهبون.
١٤٧	ابن حمديس الصقلي.
١٦٧	ابن برد الأصغر وأسلوبه القصصي في نثره ورسالته في الأزاهر.
١٧٩	الأعمى التطيلي.
١٨٩	محمد بن هاني وأسلوبه الشعري والكلام على جمال الشعر.
١٩٥	ابن الحداد وأسلوبه الشعري في وصف الأديرة والقساوسة وعبادة النصارى.
٢١٣	ابن خفاجة الأندلسي والجمال وأثره في الشعر.
٢٢٥	ابن سهل الاسرائيلي.
٢٣٥	الفتح بن خاقان.
٢٤١	ترجمة لسان الدين بن الخطيب.

- ٢٤٧ الموشحات وكيف نشأت - الأنواع التي حدثت في الشعر - كلام
ابن خلدون في الموشحات - الميل إلى الخروج من طريقة الشعر
القديم - كلام ابن سناء الملك عن الموشحات في كتابه "دار
الطراز" - جملة من الموشحات لأشهر الشعراء.
- ٣٠٣ المصادر الأدبية والتاريخية للأندلس
- ٣٠٥ الفهرس

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف للطباعة والنشر
بسوسة - الجمهورية التونسية

دراسات أدبية صدرت عن دار المعارف للطباعة والنشر

- أوهام العقاد في العبقرية محمد البدوي
- الأرض والصدى محمد البدوي
- التجربة الوجودية في "اليوم الأخير" ابراهيم الحسايري
- التيارات الأدبية في تونس المعاصرة البشير بن سلامة
- الثورة في شعر محمود درويش ياسين أحمد فاعور
- جبران بين المصلوب والمجنون جلال المخ
- الشابي وتاج الشوك جلال المخ
- دراسات في الأدب والنقد أبو القاسم كرو
- السخرية في أدب إميل حبيبي ياسين أحمد فاعور
- الشعر العبري والصهيوني المعاصر محمد صالح العياري
- الفن الروائي عند غادة السمان عبد العزيز شبيل
- في الأدب التونسي المعاصر أبو زيان السعدي
- لغة وأسلوب طه حسين في كتاب الأيام د. عطية عامر
- أزمة الذات في مقامات الهمداني المنصف شعرانة
- قراءات في الشعر التونسي عبد العزيز شبيل
- طائر الفنيق دراسة تحليلية
- لرواية الليلة الطويلة محمد البدوي
- أبو العلاء المعري من التمرد إلى العدمية عبيد البريكي
- شاعر وثورة حسن فتح الباب

ISBN : 9973-16-565-9



تم سحب ثلاثة الاف نسخة من هذا الكتاب، الطبعة الأولى 1998

الثمن : 5,000 د.ت